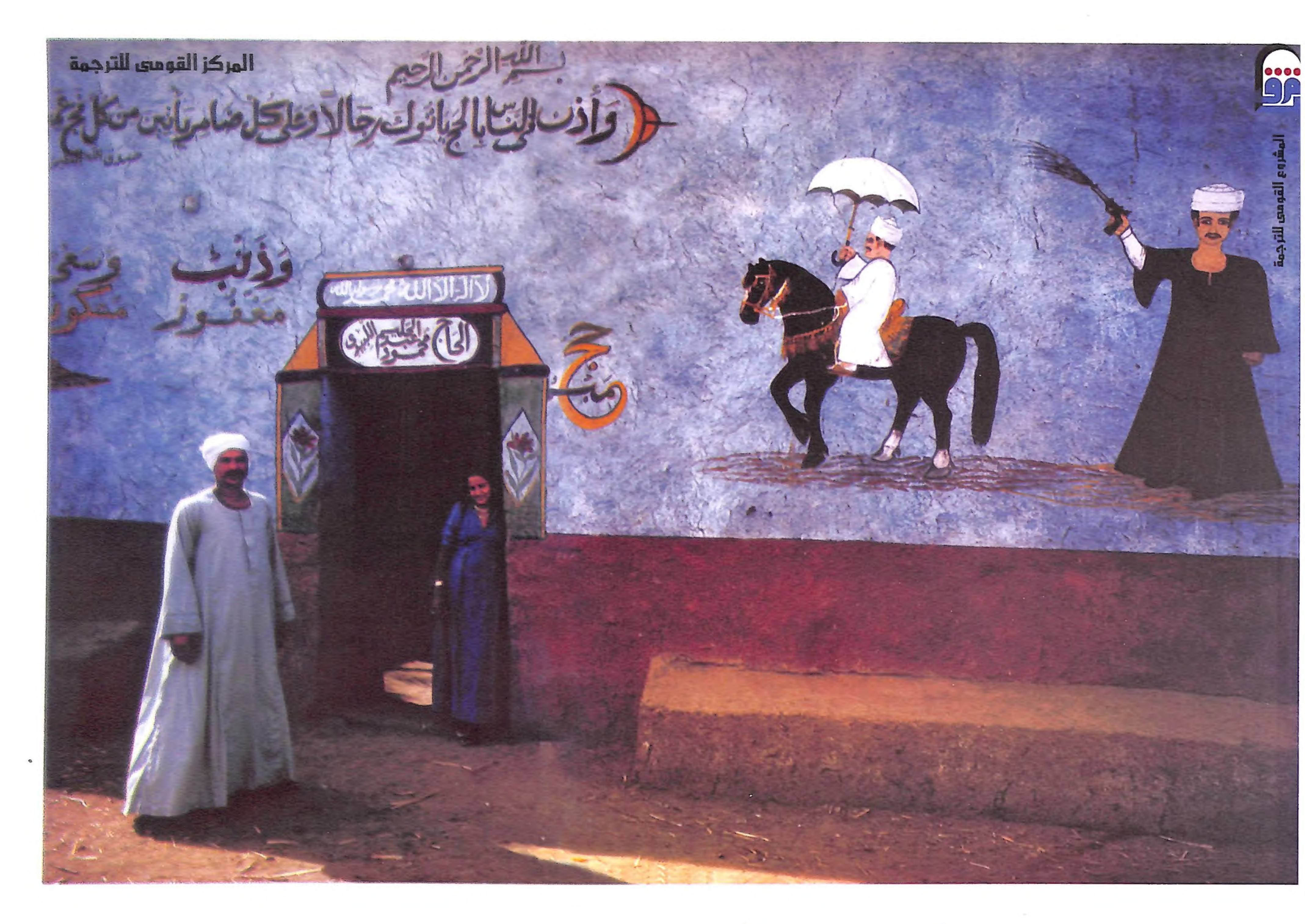


رسومات الحج

فن التعبير الشعبى المصرى عن الرحلة المقدسة

تحرير: أفون نيل

تصوير: آن باركر

ترجمة وتعليق: حسن عبد ربه المصرى

1495

رسـومات الحـج

فن التعبير الشعبى المصرى عن الرحلة المقدسة

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1495
- رسومات الحج: فن التعبير الشعبى المصرى عن الرحلة المقدسة
- آن باركر
- أفون نيل
- حسن عبد ربه المصرى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

Hajj Paintings
Folk Art of the Great Pilgrimage

by: Ann Parker and Avon Neal

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 2735426 Fax: 27354554

رسـومات الحـج

فن التعبير الشعبى المصرى عن الرحلة المقدسة

تصوير : آن باركر

تحرير: أفون نيل

ترجمة وتعليق

حسن عبد ربه المصرى



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

رسومات الحج : فن التعبير الشعبى المصرى عن الرحلة المقدسة
تصوير : آن باركر؛ تحرير: أفون نيل؛ ترجمة وتعليق : حسن عبد ربه المصرى
ط١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ٢٠١٠
٢٠٠ ص ٢٨ × ٢٨سم
١- الحج - مناسك
٢- الفن الشعبى
(أ) باركر ؛ آن (مصور)
(ب) نيل ؛ أفون (محرر)
(ج) المصرى ؛ حسن عبد ربه (ترجمة وتعليق)
(د) العنوان ٢٥٢,٥٢

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٤٠٣٦
الترقيم الدولى : 3- 880 - 479 - 977 - 978
طبع بمطابع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إهداء المترجم

في شهر نوفمبر عام ٢٠٠٦ اجتزأت زوجة ابني الدكتورة سهير جابر عصفور بعضاً من وقتها المحدود في إسبانيا، التي حضرت إليها لجمع مادة بحوث ترقيتها الأكاديمية المرتقبة، لزيارتنا في لندن . وانتهزت أنا الفرصة لأخذ رأيها في هذا الكتاب كمشروع كنت أتردد في ترجمته إلى اللغة العربية، فما إن تَصفحت الصفحات العشر الأولى حتى شهقت إعجاباً . ولم تتركه من بين يديها إلا بعد أن أمعنت النظر في كل صورة، مُعلقة على أشياء كثيرة لا تراها إلا العين المحبة، ثم حفزتني لأن أحزم أمري وأخطط للبدء فوراً في هذا العمل .

إلى روحها الطاهرة أهدي هذا الكتاب تعبيراً صادقاً عن مقدار محبتها التي لا زالت مورقة في قلوبنا أنا وأسرتي .

لندن في يناير ٢٠٠٨

رسومات الحج





أهدى هذا الكتاب

إلى إيلى

وإلى حمدى

وإلى وكل المصريين من مبدعى رسومات الحج

الذين يسرت أواصر صداقتهم ومعانى صبرهم وتعاونهم لهذا الكتاب أن يصبح حقيقة .





المحتويات

تقديم بقلم روبرت إيه . فيرنا ١٣
إيضاح بقلم المصورة آن باركر ١٩
شكر وتقدير ٣١
مقدمة (شرح لفريضة الحج) بقلم المحرر أفون نيل ٣٣
الحج ٣٥
أركان الإسلام الخمسة – الصلاة اليومية ٣٨
السفر لأداء الحج فى الأيام الماضية ٣٩
السفر فى الوقت الحاضر ٤٠
التخطيط المسبق لأداء الحج – إدارة عملية الحج وتنظيمها ٤٢
الوصول إلى جدة – من جدة إلى مكة المكرمة ٤٤
التوجه إلى مكة المكرمة – الكعبة وكسوتها ٤٥
المحمل – الحجر الأسود ٤٨
شعيرة السعى وبئر زمزم ٤٩
يوم الوقوف بعرفات – النفرة إلى مزدلفة ٥٠
رمى الجمرات بمنى ٥١
وليمة مأدبة الأضحية – المدينة المنورة ٥٤
رسومات الحج ٥٥
مبدعو رسومات الحج ٥٨
نماذج رسومات الحج ٥٩
الرحلة ٦٤
السفر إلى مكة ٨٢
جبل عرفات ٩٦
منى ١٠٤
زيارة المدينة المنورة ١١٨
العودة إلى الوطن ١٢٨
بعد الحج ١٤٦
التعريف بفنانى رسومات الحج ١٦١
كشف بأسماء الفنانين وبلادهم والصفحات التى نشرت عليها رسوماتهم ١٩١
كشاف بأماكن اللوحات والصور وفق صفحات نشرها بالكتاب ١٩٢



الحاج
الحاجة
ذو الحجة ١٤٠٥
١٩٨٥

تقديم

بقلم روبرت إيه. فيرنا

لابد أن نأخذ فى الاعتبار من البداية أن رحلة الحج إلى مكة المكرمة تُعد من أعظم التجارب فى حياة المسلم، لأنها تعتبر إنجازًا لشعيرة تحض عليها آيات من القرآن الكريم، بشرط أن لا يترتب على القيام بها مصاعب أو مضار تنعكس سلبًا على أسرة الفرد الذى عزم على القيام بها. لهذا يقوم غالبية المسلمين برحلتهم هذه فى أواخر سنوات عمرهم، عندما تكون ظروف الأسرة المالية قد أصبحت أكثر يسرًا واستقرارًا وأمنًا، وبالنسبة إلى السيدات عندما يكون الأولاد قد أضحوا أكثر استقلالاً فى حياتهم عن أمهاتهم . من هنا يمكن القول إن رحلة الحج تمثل بالإضافة إلى أداء الواجب الدينى - نوعًا من الأبهة الاجتماعية . إنها تؤكد أن رب الأسرة قادر على تلبية الحاجات الأساسية لأسرته، أو أن هذا الشخص - بمعنى آخر - قد بلغ مرحلة من النجاح فى حياته الشخصية تؤهله للقيام بواحدة من التكليفات التى فرضها الله عليه.

شرح عالم الإنسانيات فيكتور تيرنر VICTOR TURNER باستفاضة التغييرات الطبيعية التى تُلم بالحاج أو يتعرض لها عقب قيامه بأداء هذه التجربة، وأشار إلى نوعية المشاعر التى تترتب عليها، والمكانة الاستثنائية التى يحظى بها " الحاج " مظهريا واجتماعيا عبر الزمان والمكان . أما الأهل والأقارب فينظرون إلى رحلة مكة المكرمة باعتبارها مناسبة مبهجة لإبداء المشاركة الوجدانية من جانب أفراد أسرة الحاج أو الحاجة وأصدقائهم، خصوصًا بعد أن استحق العائدون منهم أن ينعموا بالألقاب التشريفية التى تطلق عليهم وتظل لصيقة بهم ما بقى لهم من عمر. أما مجتمعاتهم الكبيرة فيتزايد مقدار احترامها لهم لأن تجربة الحج فى نظرهم تمنح من أدوها إحساسًا متجددًا بمكانتهم على قدر اتساع هذه المجتمعات، وأيضًا على مستوى "الأمة " التى ينتمى إليها المسلمون كلهم.

إنه لأمر مهم أن توضع المشاهد التى تعبر عنها الصور التى سيتابع نشرها بعد هذا النص وفق رؤية فنية ذات مغزى، لأنها من وجهة نظر مبدعى رسومات الحج - كما تفرضها مفردات الثقافة الشرقية - تعكس عرضًا واقعيًا لمدى التغيير الذى لحق بحياة الحجاج من أبناء المجتمع ؛ ذلك لأن تقليد إبداع الرسومات التى تعبر عن أروع اللحظات فى حياة الأفراد مظهر قديم من مظاهر الحياة فى وادى النيل، فمثل هذه الرسومات كانت تشير قديمًا إلى معانٍ مهمة ضمن التعبير الجماهيرى الذى وضع أصوله ملوك الفراعنة، حين قاموا بعرض مشاهد من انتصاراتهم فوق جدران نصب تذكارية قاموا بتشييدها، كما فعل رمسيس العظيم حين أمر بتسجيل انتصاراته فوق لوحات معبد «أبو سمبل» جنوب مصر بالقرب من منطقة النوبة .

من الصعب الإشارة إلى رسومات الحج التى زينت بعض المنازل ثم زالت سريعًا، لكننا على ثقة من أن مثل هذه التجارب غير الناجحة هى التى فتحت الباب أمام أخرى ناجحة للمبدعين الذين جاءوا من بعدهم ودام بعضها لعشرات السنين.

ربما يكون التعبير عن تجربة روحية، عن طريق رسم مشهد من مشاهدها فوق جدار منزل أحدهم أمرًا غريبًا عند أبناء الحضارة الغربية، لكن علينا أن نتذكر أن طلاء سيارة المتزوجين حديثًا فى أمريكا بالكيفية المتعارف عليها، هى أيضا تعبير عن الحياة الجديدة التى سيعيشونها، تعبير يعكس رغبة أصحاب كلتا التجربتين فى إشعار أصدقائهم والأغراب عنهم بحياتهم الاجتماعية الجديدة .

فى منتصف النهار عندما تكون الشمس فى كبد السماء، تقدم بيوت صعيد مصر ترحيبها وضيافتها للغرباء فى شكل ظل وارف وحماية مضمونة ضد شمس الصحراء الحارقة . هذه البيوت المعتنى بها (كما فى الصورة التى على الصفحة المقابلة) مثلها مثل البنايات النوبية المنتشرة فى أسوان الغربية، تتجلى عن لمسات تدفع إلى الذاكرة أنواعا من التقنيات الفنية المتقدمة التى غيرت الحياة الثقافية لمجموعة كبيرة من الناس .

عندما شيد السد العالى العظيم، غمرت مياه بحيرة ناصر قرى بأكملها، أما قاطنوها الذين رحلوا عن مواطن أجدادهم فأعيد تسكينهم فى منازل حكومية ضمن تجمعات عمرانية جديدة بعيداً عن النيل .

هذه القرى الجديدة ذات البنايات المهيبة والتى جعلها موقعها المثالى شمال جسم السد معزولة، تُعد من المواقع السكانية التى نجت من بين مخالب ميراث هندسى متميز وثقافة قضت عليها ضرورات تلبية حاجات اقتصادية . الزائر لهذه المساكن تقوده درجات السلم العريضة التى يحدها اللون الأبيض الرمادى الجذاب إلى مصطبة خارجية معتدلة البرودة، أما الحجرات ذات الظل الوارف فتواجه ساحة الدار الداخلية البعيدة عن العيون .

عندما عبرنا إلى الداخل لمحنا لبرهة خاطفة ظل امرأة بين مدخلين مقوسين بدا وكأنها - ربما - تتحدث إلى رب البيت الذى أدى فريضة الحج عام ١٩٨٥، كما يؤكد ذلك الخطوط التى رسمها الفنان الفطرى أسفل مصباح النيون الكهربائى الذى ينير مدخل البيت . أما الرسومات البسيطة التى صورت مكة ومسجد الرسول (عليه الصلاة والسلام) وفوقه طائرة، فتبدو أقل فى مستوى زخرفتها من زخارف البيت الأخرى . مكانة هذه الرسومات العالية تعبر عن حنين جارف للوطن ضمن رسالة تقول مناظرها " يعيش فى هذا المكان رجل شديد الايمان قام بأداء فريضة الحج " .

فى رأينا أن هاتين الحالتين من التعبير المجتمعى اللتين تربطان بين تجربة خاصة جدًا وبين متغيرات أساسية ستطرأ على الحياة الاجتماعية للفرد، تشيران إلى " «أن هذا الفرد بعد مروره بتجربته هذه أو تلك لن يكون هو نفس الشخص الذى كان قبلهما» . لا بد لنا أن نرحب بهذه المجموعة من الرسومات التى تعكس عمق الإخلاص الدينى لدى الذين رُسمت من أجلهم من ناحية، كما توضح مقدار الموهبة التى يتمتع بها الفنانون الفطريون الذين رسموها من ناحية أخرى .

واهتمامنا الإنسانى الاعتيادى يفرض علينا أن نشارك المجتمعات الأخرى تجاربها الثقافية التى تعكس الأحداث المهمة فى حياة أفرادها . وفى الوقت الذى لا يبادر فيه كل المسلمين إلى أداء شعيرة الحج، نلاحظ أن الرحلة المقدسة إلى مكة المكرمة تضفى بهجة على الملايين وتشكل حلمًا لدى ملايين آخرين. لذلك لا عجب أن تعبر هذه الرسومات عن سبيل من سبل المشاركة فى التعبير عن رحلة الحج، مشاركة تجعلنا نتقدم بجزيل الشكر لكل من أسهموا فى هذا الجهد وساعدوا على إخراجه ونشره بهذه الكيفية .

روبرت إيه . فيرنا / جامعة تكساس ولاية إيستون

على الرغم من الملاحظة الإنسانية التى تؤكد كبر سن الحجاج بصفة عامة، فإن من تحدثنا إليهم أكدوا لنا أن شريحة من متوسطى العمر من الرجال والنساء يتوافر لهم المال اللازم للقيام برحلة الحج، بعضهم من مصر وبعضهم الآخر من بلدان أخرى تنتمى للعالم الإسلامى، وقلة منهم حالفهم الحظ وأدوا هذه الفريضة أكثر من مرة .

عندما تتحسن الظروف المعيشية للأسرة المسلمة، أول ما تفكر فيه هو أن يؤدى كبار السن فيها فريضة الحج، وعلى الرغم من ذلك يلاحظ أن الغالبية العظمى من المسلمين المستورين ماديا لا يملكون رفاهية التفكير فى الإعداد لها . من هنا لم نندهش عندما عرفنا أن العديد من الأسر فى صعيد مصر يقوم أفرادها لسنوات طويلة بادخار جزء من دخلهم حتى يتمكنوا من تحويل حلم السفر لمكة المكرمة إلى حقيقة . حتى الصغار عندما يقومون بمثل هذه المساهمة المحببة للنفس لأجل تسهيل سفر والديهما العجوزين لأداء هذه الفريضة، يشاركون فى تأكيد أحقية الأسرة فى التمتع بالمكانة والشرف اللائقين بها .

فى مدينة إسنا نرى هذين العجوزين المبتهجين يتصدران رسما يزين منزلهما، (فى الصورة المنشورة على الصفحة المقابلة)، ضمن لوحة رسمها الفنان المحلى محمود العربى لشاب على صهوة جواده المندفع.

الجدير بالملاحظة أن تدقيق النظر فى الرسم يدفعنا للتساؤل : لماذا أهمل الرسام الاجتهاد فى التعبير عن إشراقة الشباب التى يتمتع بها الرجل الواقف أسفل صورته وهو يمتطى ظهر جواده؟ أما الصورة الأولى (المنشورة صفحة ٧) ففيها رسم للكعبة وحاج يركع في اتجاهها.

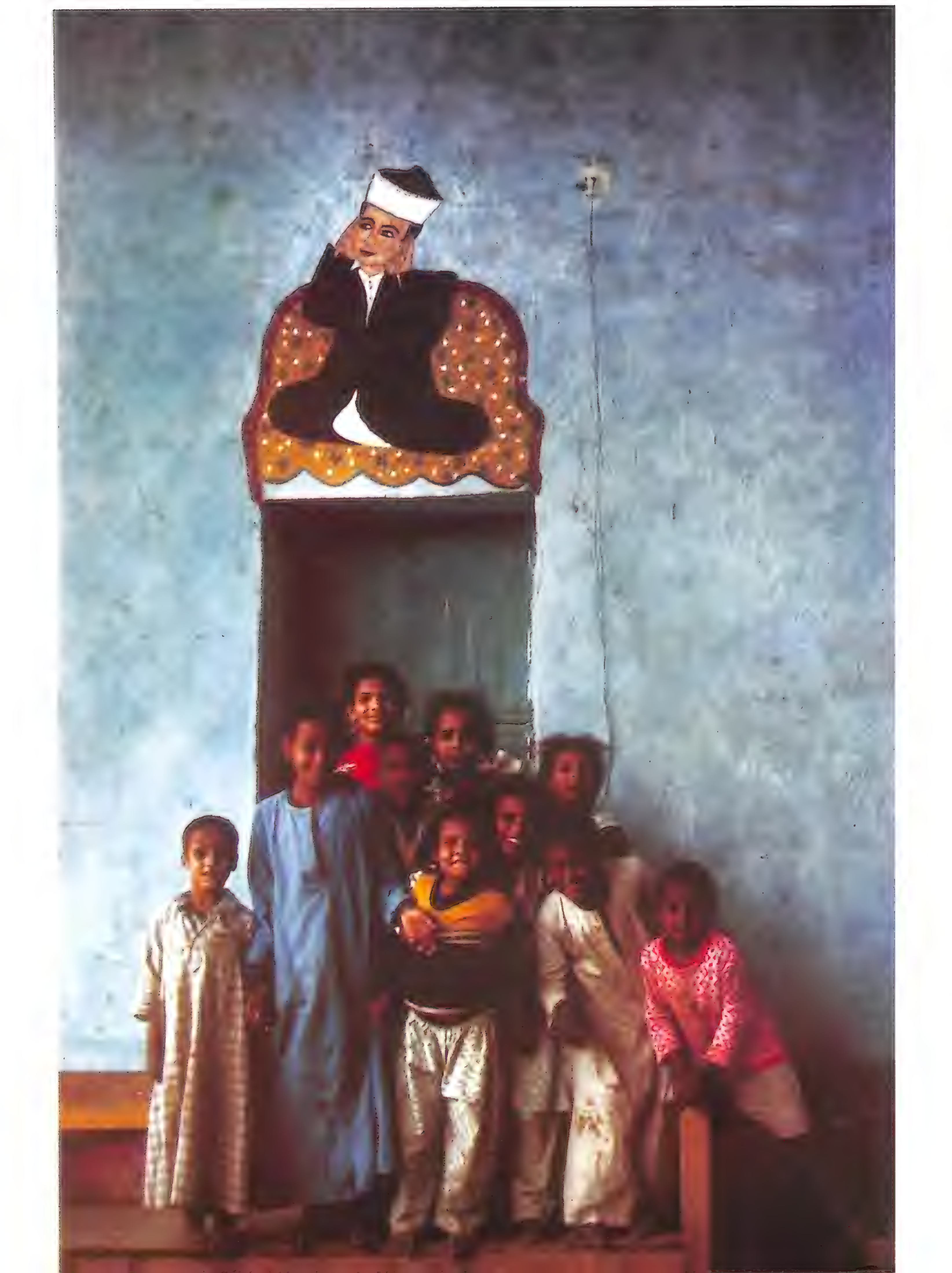




على الرغم من أن رسومات الحج فى منشئها تعد تقليدا ريفيا، فقد انتقلت إلى حوائط بنايات المراكز والمدن الكبرى مع هجرة أبناء القرى إلى المناطق الحضرية. لذلك يمكن بسهولة العثور على رسم بسيط - كهذا الذى إلى يسار هذا النص - يتسم بالإبداع داخل مناطق سكنية متاخمة للقاهرة التى ارتحل إليها الجيل الأول من سكان الريف.

أول ما نلاحظه أن الرسم يحمل صوراً تعبر عن رموز الحج المتعارف عليها، ولكنها هنا نفذت على يد فنان ملهم ذى خبرة، مما يرسخ لدى الناظر إليه أن واحدا ممن يعرفون واجبهم التعبدى يقف وراء هذا الحائط المزين.





إيضاح

بقلم المصورة آن باركر

ملحوظة توضيحية ربما تساعد القارئ على تفهم مدى افتتانى برسومات الحج التى أبدعها الفنان الشعبى المصرى !! ذلك الإبداع القادر بذاته على أن يفسر أبعاد مثابرتى على استكشاف العديد من المدن والقرى وحتى المجمعات الزراعية المصرية المعزولة على امتداد نهر النيل وعبر أراضى الدلتا وعلى ساحل البحر الأحمر وداخل صحراء سيناء . ففى المرة الأولى التى لمحت فيها عينى بنظرة خاطفة عبر نافذة القطار رسمًا من هذه النوعية، كانت منذ عشر سنوات، نحو عـام ١٩٨٥[١]، عندما كنت مسافرة من القاهرة إلى أسوان بالقطار السريع . لقد بُهتّ بمرأى هذا الجمال البسيط المفعم بالحياة، والذى يتحدى الزمن فوق حائط بيت من بيوت قرى الريف المصرى النائية . وبعدما تعرفت على القوة الدافعة التى تقف وراء هذه الرسومات، لم أقدر على مقاومة نداء تعريف العالم الخارجى بها . لقد اقتنعت بأنها فن تقليدى شعبى له تاريخ استثنائى. رسومات الحج كما يسمونها يقصد من ورائها تخليد شعيرة الحج أو رحلة الزيارة المقدسة إلى مكة المشرفة .

وبعدما توسع البحث الذى أقوم به اكتشفت أن لدى كنزًا من الصور التى طبعتها، يفوق بمراحل كل توقعاتى الأصلية . تسجيل اللوحات التى تعبر عن التقاليد الشعبية يثير شهية الباحث بطبيعته، لذا كلما غاص الدارس فى عمق الموضوع وجد الفن ذاته يواصل تعميق رسالته . بالنسبة لى كلما عدت إلى مصر وجدت حشدا من الرسومات الطازجة التى قام برسمها فنانون مشهورون وفنانون غير معروفين، تلك الحقيقة مكنتنى من أن ألاحظ عبر السنين عددا من الفنانين عديمى التجربة وهم يطورون من أسلوبهم الفردى مع كل موسم حج يمر عليهم. ويحزننى كثيرًا أن واحدا من الرسامين المبدعين الذين كنت أسجل أعمالهم توفى فى مقتبل العمر، قبل أن تتاح لى فرصة اللقاء به مطولا وأنا أعتقد أن فقده مثّل حينئذ خسارة كبيرة للفن الشعبى على مستوى العالم، مما جعلنى أحزن عليه نظرًا لبراعته فى رسم العديد من جداريات الحج المبهرة . إلى جانب ذلك عثرت فى أثناء تجوالى فى محافظات مصر – على بقايا رسومات غاية فى الروعة، جعلتنى أندم أشد الندم أننى لم أبدأ بحثى هذا حول الفن الشعبى القابل للاندثار فى فترة مبكرة .

غنى عن القول أن الترحال عبر الريف المصرى ليس أمرًا سهلاً، هناك دائما، إلى جانب ما يثبط الهمة، معوقات لا حصر لها، درجة حرارة الشمس يمكن أن تكون موجعة . كما أن ذرات التراب وحبيبات الرمال يمكن أن تغطى كل شىء، مما يتطلب توفير أقصى حماية لأجهزة التصوير. بعض الأيام كانت تضيف القليل فيما يتعلق بجدارة الفنانين التى أنقب عنها، أو لا تضيف شيئًا بالمرة . ندرة رسومات الحج على حوائط بعض المنازل التى زرتها فى عدد من أقاليم مصر حيرتنى كثيرًا، حتى أدركت أن بعض هذه القرى يسكنها غالبية من المسيحيين . لذلك إما أن يكون بقية سكانها من المسلمين غير القادرين على مواجهة تكاليف رحلة الحج إلى مكة، أو أن من قاموا بها منهم لم يوفقوا فى العثور على الفنان القادر على أن يسجل لهم رحلتهم العظيمة هذه إلى مكة المكرمة .

على الرغم مما تعرضنا له من تجارب قاسية ومحن كثيرة، كان هناك دائمًا التعويض المفرح، فليس هناك أكثر إثارة للأحاسيس من مشاهدة مجموعة من المنازل التى تزينها رسومات الحج بعد طول بحث، مما يؤكد أن الثراء الإنسانى الممتد على طول نهر النيل لا مثيل له . أما ضيافة المصريين للغرباء فلا تقدر بثمن، خصوصًا عندما تتلاشى بسببها المواقف المحبطة ولحظات الإرهاق التى كادت أن تعوق مسيرة العمل الذى أقوم به .

أذكر عندما اشتدت على، فى يوم من أيام أشهر الصيف، حرارة شمس الصعيد الحارقة، أنى وجدت نفسى مدفوعة دفعًا لأن أجسد لحظة انحسار الشمس شديدة الحمرة وراء الأفق، فنحيت جانبًا كاميرات التصوير وأوراق التدوين واسترخيت متأملة الطبيعة حولى، وبقيت على ذلك حتى اليوم التالى من أيام جدول العمل فى هذه القرية.

مجموعة من أطفال القرية يتلهفون على التقاط صورة لهم فى هذا الوضع الصبيانى أمام نافذة داخلية لمنزل واحد من الحجاج المحليين. وبدلاً من أن يرسم الفنان الشعبى «على عيد ياسين» فوق النافذة الرمز المميز للحج، مكة المكرمة على الخلفية الزرقاء التى طلى بها مساحة الحائط كلها، رسم هذا الشيخ الورع الذى يجلس فى ديوانه الأنيق مرتلاً القرآن الكريم، كما لو أنه منمنمة فارسية صغيرة، ربما فى انتظار سماع صوت المؤذن، الذى تعود أن يسمعه منطلقا من مئذنة الجامع الذى يقع على بعد خطوات من منزله.

الاحتمال الأكبر عندنا أن الرسامين عندما يبدعون لوحة تعبر عن أركان الصلاة بشكل فيه عمق فنى، إنما ينزعون إلى التركيز على السلوكيات التعبدية التى تصاحب تلاوة القرآن الكريم .

---

(١) معلومة تقديرية لتقريب الفترة الزمنية لهذا العمل . (المترجم)



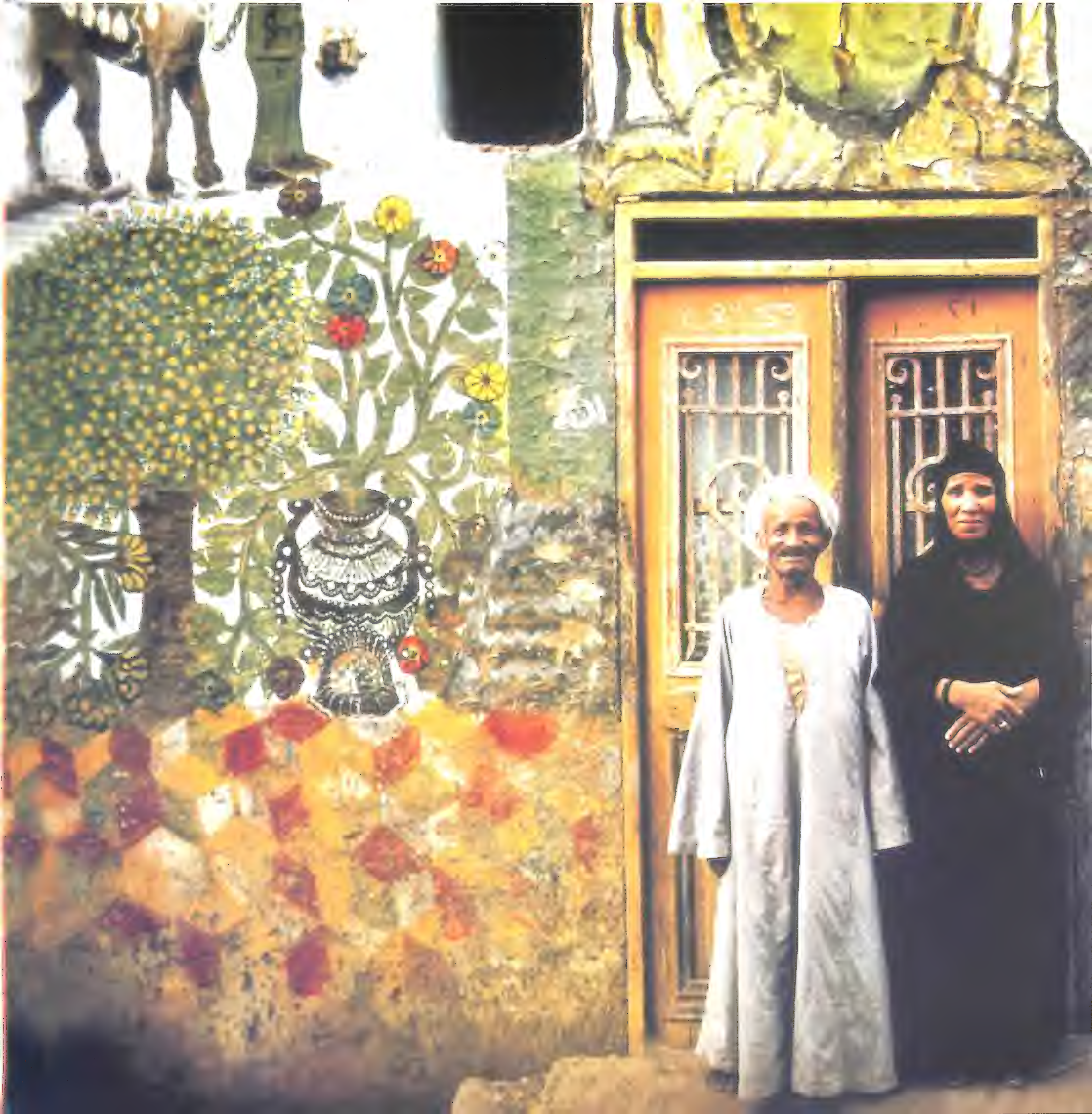
حجاج بيت الله الحرام يأتون إلى مكة من كل أنحاء العالم . فى مصر يمكن تقصى دروبهم حول المدن والبلدات المنتشرة على امتداد وادى النيل والقرى الصغيرة والتجمعات السكانية التى لا تحصى، والتى تتمركز بعيداً عن طرق السفر الرئيسية . من الأمور المعتادة فى الريف المصرى أن تجد الأتقياء من الفلاحين والمزارعين حريصين كل الحرص على أن يدخروا ويوفروا من مكاسبهم المحدودة لفترة طويلة من حياتهم لأجل القيام برحلتهم الموعودة إلى المدينة المقدسة. وعلى الرغم من أن شعيرة الحج تشكل ركناً أساسيا من أركان الإسلام الخمسة، فإن تكليف القيام بها مشروط بإمكانية " من استطاع إليه سبيلا "[٢] . تقول الإحصائيات إن ١ ٪ من بين مليار وأكثر من المسلمين هم القادرون سنويا على تحقيق حلم أداء هذا الركن .

بقرار صارم حوّل الرسام عبد الرازق صاحب الموهبة الفذة، والذى يعيش ويعمل بالقرب من هذا البيت الريفى المتواضع، واجهة المنزل المصنوعة من الطوب النيِّئ (الصورة بالصفحة المقابلة إلى يسار هذا النص) إلى عمل مُبهر من الفن الفطرى، وذلك منذ نحو عشر سنوات . هذا الفنان المبدع الذى تعانى لوحاته فى أيامنا هذه من الندوب التى تنتشر فيها التشققات، لقى وجه ربه بعد أن انتهى منها، وبذلك انقطع عطاؤه المتألق وهو فى سن الأربعين . يقولون عنه إنه كان يقرأ ويكتب بصعوبة، وهذا يفسر بشكل عمومى ابتعاده - إلا فيما ندر - عن تزيين لوحاته بنصوص قرآنية مأخوذة من الكتاب الكريم .

عرفنا من أهالى القرية أن مُلاك البناية كانوا يخططون لترميم واجهتها وطلائها باللون الأبيض، لكن بعد أن أبدى الغرباء الكثير من التقدير لما فى اللوحة من جماليات وقام البعض بتصويرها؛ استشعروا ضرورة الاعتناء بها، ومن ثم قرروا الإبقاء عليها لفترة قادمة، مادامت تجذب إليهم أنظار الأجانب. ومع الأيام أصبح الحاج، الذى تقدم به العمر وزوجته، جزءاً متمماً للوحة الجدارية، وذلك حين يقفان بوقار فى منتصف حديقتهما الخيالية المورقة لكى تلتقط لهم مثل هذه الصورة.

---

(٢) ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ من الآية ٩٧ من سورة آل عمران . (المترجم)



كل مرة كنت أودع فيها مصر تعترينى مظاهر حزن عميق وأنا ذاهبة إلى المطار، بمجرد رجوعى إلى وطنى أعود إلى مهام التحرير الرتيبة الهادئة، ولكى أبعث الحياة فى هذا السكون كنت أقوم بعدد من الاختيارات التمهيدية والعلاقات التبادلية لتحديد صور رسومات الحج المصرية الأكثر إلهاما لمشروع كتابى، وكان وجودى بين السوائل فى حجرة تحميض الصور المظلمة يرجعنى مرات ومرات إلى تجاربى الحية فى مصر.

هذه الرحلة البحثية المفعمة بالحيوية تملؤنى بالغبطة لأنى احترفت مهنة التصوير الفوتوغرافى، فأرشيف موادى المصورة عن مصر يزداد عقب كل رحلة أقوم بها إلى هــذه الأرض التى تثير الفضول، وكلما تضخمت مجموعة الرسومات ذات الألوان المبهجة، زادت قناعتى أن رسومات الحج العفوية التى بين يدى لا تشكل فقط إضافةً مهمة للفن الشعبى الدينى ولكنها تعبر أيضًا عن فن تقليدى فى قمة ازدهاره .

كنت وأنا طفلة صغيرة فى مقاطعة بإنجلترا أفضل لعبة البحث عن الكنز بين شجيرات الحدائق المورقة إبان فصول الصيف، حيث تتناثر علامات الوصول إلى الخبيئة داخل تجاويف الأشجار أو على مسافة من حواف النوافذ أو تحت أوانى النباتات، وربما يكون احترافى لمهنة التصوير الفوتوغرافى - بشكل أو بآخر - قد حول هذه اللعبة البريئة إلى مغامرة حياتية متواصلة للتعرف على كنوز الإنسانية الحقيقية .

لذلك لا عجب أن تصبح غالبية الأوقات ذات التأثير العميق فى حياتى، تلك التى لها صلة بالتنقيب عن ما هو غير معتاد من موروثات الفن الشعبى والبحث فى طيات فن تشييد العمائر، حيث ينصرف جل اهتمامى - بشكل محدد - نحو تسجيل كيف خلد الفنان البدائى اللحظات الأعمق تأثيرًا فى حياة البشر .

وبنفس الدرجة التى أنجذب فيها ناحية كل ما له صلة بالفن التقليدى وهندسة العمارة، تتجه كاميراتى بشكل عفوى نحو السعى للإمساك بما قد يكون أقل أهمية ولكنه يتمتع بقدر كبير من الإبداعات التلقائية. لذلك أجد متعتى فى تسجيل ما قد يراه العالم تجارب لا تدعو للاندهاش ، من هنا لا يضرنى شىء أن أسافر لمسافات طوال لكى أرى السعادة على وجوه مجموعة من البشر استحقوا مكانة رفيعة فى ميدان فنون الزخرفة . أما الجحيم بالنسبة لى فهو أن يَكتشف البعض من الخبراء، الذين تدور حياتهم حول التنقيب، كنزاً متألقًا رفيع الشأن دون أن يتاح للصورة أن تحتل مكانتها ضمن ما تم التوصل إليه .

عند البعض : النتائج العملية هى التى تثرى البحث، أما عندى فهذه المحصلة يجب أن تكون معززة بالعدد الكافى من الصور التسجيلية، التى تحكى القصة الإنسانية التى تقف وراء هذه النتائج . هدفى الأساسى هو أن أجعل كل مجموعات صورى متكاملة على قدر الاستطاعة ، إننى أحرص على تنسيق ساحة العمل وعلى ترتيب ما يحيط بالكشف من عوامل إثارة، وأجدنى أتألق كلما تواصل التحدى الذى يجسده ما يتم العثور عليه من أشياء تثرى بشكل عفوى مشاريعى المتعاقبة .

اليوم النموذجى فى مصر يعنى عندى خروجى ودخولى إلى السيارة عشرات المرات، ويعنى أننى كلما اقتربت من إحدى القرى أحاطت بنا كتل من الزحام آتية من كل مكان . وفجأة أجد الكثير من الأيدى الصغيرة ممدودة لكى تساعدنى على الخروج عبر الطرق الضيقة، وأسمع الصيحات تعلن عن وصول أحد الغرباء . وألمح النسوة الواقفات فى الظل يهمسن موجهات الدعوة لى لكى أقبل منهن كوب الشاى التقليدى شديد الحلاوة شديد السواد !! وسرعان ما أحس أننى داخل عباءة من الود . وفى بعض الأحيان بعدما أنتهى من تصوير جدارية بيت مزدانة برسوم الحج، أفاجأ بدعوة لطيفة من الحاج أو الحاجة (أصحاب البيت) لكى أعاين بعض الرسوم الأخرى داخل الدار، والتى غالبًا ما تكون أكثر براعة مما هو مسجل فوق واجهة البيت الخارجية .

أما الأطفال فإنهم من شدة الخوف من أن يطردوا بعيدًا عن المكان بسبب ما يحدثونه من شغب، ترى جمعهم الغفير المتراص يحلق فى صمت خلف النوافذ المفتوحة حتى لا تفوتهم أية بادرة، خاصة فى وجود مدرسيهم المحليين الذين يحضرون خصيصًا للحد من صخبهم وشيطنتهم، والذين يكونون فى بعض الأحيان من بين الفنانين مبدعى رسومات الحج التى نَجدّ فى أثرها .



قمت خلال زيارتى لبلدة القرنة (محافظة أسوان) بإجراء تحقيق مع الرسام الموهوب أحمد الطيب، الذى يجلس فى الصورة إلى يسارى. وأنا دائما أستعد أثناء سفرياتى لمثل هذا الهدف بكراسة لتسجيل الملاحظات، وبمجموعة من الصور التى ألتقطتها ضمن تجولات سابقة لى فى مصر، لتسهيل التحاور مع فنانى رسومات الحج حول بعض التفاصيل الدقيقة المتعلقة برسوماتهم، وهى وسيلة أيضا للتعريف بهم عند زملائهم من الرسامين الموجودين فى أجزاء أخرى من وطنهم . وقد اكتشفت أننى أنشر السعادة والغبطة كلما أتيح لى أن أترك ورائى بعد زيارة استكشافية لفنان ما مجموعةً من الصور سواء كانت له شخصيا أو لرسوماته أو حتى لبعض أفراد أسرته .

على يمينى يجلس حمدى عبد الشهيد السيد، الذى قام بمهارة بترجمة هذا اللقاء وغيره من اللقاءات على امتداد رحلاتى البحثية فى مصر، أما الصورة فقد التقطتها السيدة سيبولد .



أيقنت أن البحث وراء رسومات الحج يتجدد عندما تتوهج أمام ناظرى إبداعات جديدة كانت خافية . من الطبيعى أن ترى الرسومات التى تزين حوائط البيوت الخارجية، وأن تقوم بتقييمها من مسافات بعيدة، لكن فى بعض الأحيان يحتاج الأمر إلى لمحة خاطفة للتعرف على مدى الإبداع الكامن فى رسومات الفنان المحلى، مثل هذا الرسم الذى يبدو فى أقصى يسار الصورة المقابلة، والذى يضع المرء فى حيرة بالغة، فإما أن تعبر القناة المائية للحصول على رؤية أقرب وتقبل بتحمل مخاطر العطلة التى ستترتب على قبول الضيافة المعتادة وشرب الشاى شديد السواد، أو أن تُقنع نفسك باستهلاك الوقت فى التعرف على لوحات جدارية أخرى على امتداد الطريق !! مع الأخذ فى الاعتبار أن الرضا ولو بجزء يسير من سماحة نفس القرويين المصريين يمكن أن يضاعف الوقت المسموح به لأى مشاريع بحثية أخرى .



بعد عدة دقائق تمضى فى محادثات ودية تعززها المشروبات المنعشة التى تصنعها ربات البيوت، أواصل استفساراتى التى تفرضها علىّ ملابسات الموقع : هل توجد فى الناحية رسومات حج تغرى بتسجيلها لقيمتها؟ هل من المفيد أن نمنح أنفسنا فرصة أكبر للتجول فى القرية؟ أو أن الوقت قد حان للرحيل ؟ هل هناك لوحات أخرى لرسومات الحج لم نشاهدها؟ هل زاوية ميل الشمس الحادة ستعزز من القيمة الجمالية للوحة؟ أو أنها ستفسد اللقطة التالية التى أستعد لها؟ وغير هذه الأسئلة كثير، وذلك لأن برنامج تحركاتى لا يسمح لى بالعودة " للمكان " مرة ثانية ، وفى نفس الوقت أحرص دائما على أن أزن قرارى كما يزن العطار توابله.

أما تحديد الاختيار النهائى لصور هذا الكتاب فكان أمرًا صعبًا بشكل خاص، ذلك لأن وسيلتى المعتادة فى العمل عندما أستنطق فنا من الفنون الشعبية، تعتمد على الجمع بين أمرين : التفتيش عن مواطن الجمال، ومحاولة أن أستحضر بشكل تخيلى لحظات الخلق عندما يتمكن الفنانون من تخطى قدراتهم المألوفة منطلقين نحو مستوى جديد من الإبداع . بعد فترة حيرة، اقتنعت أن هذا الأسلوب التقليدى غير مجدٍ عند تنفيذ مشروع يغطى بلدًا بأكمله ، يضاف إلى ذلك أن هذا الكتاب، لكى يكون دقيقًا فى بنيانه، يجب أن يروى للقارئ رحلة الحجاج المسلمين إلى مكة ، وهذا يعنى حتمية أن أضع يدى على الصور الأكثر مناسبة لعرض تطور الأحداث التى تبدأ من مغادرة الحاج لمنزله متوجهًا إلى المملكة العربية السعودية، والمحطات التى يقف فيها هناك - ورحلة العودة - والاحتفالات المنزلية بعودته سالمًا، ثم حياته اليومية بعد أداء هذه الشعيرة .

لقد ظللت لعدة سنوات أجزم أننى أفتقد بعض الصور التى أحس أنها ضرورية لاستكمال حلقات مشروع هذا الكتاب، وعشت على أمل أننى فى يوم ما سوف أدير وجهى نحو هذه الناحية أو تلك أو سأدخل بيت واحد من الحجاج لأجد نفسى أمام ما أنا فى أشد الحاجة إليه . لقد التقطت كاميرتى آلاف الصور للكعبة وللسفن وللأمكنة التى يزورها الحاج استكمالا لأركان الفريضة، ولكنى لم أعثر إلا على رسم واحد لحاج يرمى الجمرات!! اكتشفته بالصدفة عندما كنت أدقق فى انعكاسات صورة على الشاشة كنت قد التقطتها لسبب مغاير. استذكارًا لهذه الحقيقة أزعم أن فنانًا شعبيا متفردًا نفذ رسمًا يحكى قصة آدم وحواء ولكنى لم أتعرف عليه إلا عرضًا، لأن مثل هذه اللوحات غالبًا ما تُنفذ فوق حوائط البيوت الداخلية بعيدًا عن أعين المارين فى الطرقات أمام مداخلها، لذلك كان من المتعذر علىّ أن أشاهدها من أول وهلة، كما أن من قاموا برسمها لم ينوهوا عنها لى إلا عرضًا .

على عكس مشروعاتى السابقة مثلاً مع الكاتب أفون نيل AVON NEAL حول شواهد القبور فى ولاية نيو إنجلاند New England الأمريكية أو مع المصورين المتجولين من أبناء جواتيمالا، كانت مصر تمثل بالنسبة لى العديد من العقبات : فهى بعيدة جدا، وعندما أسافر إليها يحاصرنى وقتى المحسوب دائما بدقة، بالإضافة إلى تكاليف الرحلة الغالية التى من الصعب توفيرها بسهولة !! وهناك بالطبع حواجز اللغة . وعلى الرغم من ذلك يمكننى القول إن هذه المشاكل جميعها طواها النسيان عندما بدأت أدقق فى أكوام الصور التى التقطتها تمهيدًا لتحديد مسار كتابنا هذا .

المدهش أننى فور دخولى إلى حجرة التحميض المظلمة، سرعان ما أنسى كل هذه المشاكل أمام أسرار مصر الموحية . وكما يمسك المبدع بنغمته الموسيقية الصحيحة، كان علىّ أن أُنحى جانبًا ما لست فى حاجة إليه، حتى يتسنى لى اختيار الصور النهائية التى أعتمد عليها فى رواية ما أريد أن أحكيه .



يصعب على المرء أن يتوقع، حتى من خارج أفضل البيوت التى تزينها رسومات الحج، أن بعضاً من حوائطه الداخلية تزينها رسومات شديدة الإبهار. لذلك تُعد غالبية الدور المنتشرة فى القرى المتواضعة ملجأ للزينات الداخلية التى تلفت الأنظار، لكن هذه القاعدة لا تنفى وجود مصادفات مفرحة. هذه اللوحة (يسار النص) أنجزها المدرس أحمد فرحوت، الذى يقوم بتنفيذ رسومات الحج فى وقت فراغه، تصور مسلماً ورعاً يسبح بلفظ الجلالة[٣] الذى خطه الرسام بشكل حيوى. الرأى لدينا أن هذا الفنان يعتنى برسوماته لأنه يتعمد تصويرها فوق حوائط المنازل الداخلية التى يزداد الاهتمام بها من جانب أهل البيت.

اللافت أن جماعات كثيرة من التلاميذ الفضوليين تتبعوا مدرسهم الفنان وهو يصطحبنا معه فى جولته الإرشادية، التى انتهت عند الحائط الذى كان ينجز عليه أحد أعماله. غالبية هؤلاء المتطفلين يحدقون عبر النوافذ المفتوحة باندهاش ويتساءلون ربما حبا فى المعرفة : لماذا يقوم هؤلاء بتصوير حوائط البيت الداخلية؟



السيدة الشابة التى تبدو فى هذه اللقطة من بنات الصعيد اللاتى يفضلن أن يظهرن دائماً فى ملابس زاهية، حتى تلك التى يرتدينها كل يوم. وعندما تتزين إحداهن بحليها الصغيرة الزجاجية وتكحل عيونها المثيرة تبدو نموذجاً أصيلاً للجمال. هذه اللقطة تعكس جانباً من الوسامة الفطرية خصوصاً وأن صاحبتنا ارتدت ملابس تناسب حالة الفرحة التى هى عليها. المدهش أن هذه السيدة الشابة احتاجت لدقائق معدودة لكى تنفض يديها من ترتيبات عيد الأضحى التى كانت تُعدها لأسرتها، لكى تقف فى هذا الوضع أمام باب بيت أسرتها الذى زينت حوائطه حديثا برسوم الحج قبل أن يفتح على مصراعيه لاستقبال الزائرين والمهنئين من الأقارب والأصدقاء.

---

(٣) فى الأصل الإنجليزى: ...saying his prayer beads and giving utterance to the word "Allah" in forceful script.





يتمتع المصريون بوضعية خاصة بين شعوب العالم، ليس فقط لقدرتهم على جذب الأصدقاء، ولكن أيضا لحسن استضافتهم إياهم . لذلك لم يبدُ عليهم الاندهاش عندما عرفوا أن رسومات الحج التى تزين بيوتهم معبرة عن رحلتهم المقدسة إلى مكة المكرمة، حازت إعجاب الغرباء من خارج مجتمعهم، ولذلك سارعوا بالتعاون معنا لأجل تصويرها . وعلى الرغم من حيائهم الطبيعى فإنهم كانوا يتفاخرون بامتلاكهم لهذه الدور (التى نقوم بتصويرها) حتى من قبل أن تلتقط لهم صورة إلى جوار لوحاتها المرسومة .

من لا يمعن النظر فى كلمة «حج مبرور» المكتوبة باللون الأصفر ويدقق فى النقوش الدينية المكتوبة فوق باب البيت، لا يستطيع أن يتيقن أن الكتابة ذات صلة برحلة الحج . وعلى الرغم من ذلك سنلاحظ أن هذه المكونات وغيرها من الأفكار التى تخص الفنان الشعبى على عيد، متكررة بنفس الكيفية فى رسومات أخرى للحج . أما الرجل الذى يمتطى صهوة جواده ويحمى نفسه بالمظلة البيضاء التى فى يده اليسرى، فربما يعبر عن عودة حاج ينتمى إلى منطقة جغرافية مختلفة . هذا بينما يضيف الرجل الذى يطلق الرصاص من مسدسه فى الهواء إلى مظاهر الاحتفاء بعودة الحجاج مظهراً من نوع آخر .



فى القرى البعيدة عن الطرق الرئيسية غالبًا ما تعكس إبداعات فنانى رسومات الحج أفكارا مختلفة !! يصورونها فوق الحوائط المسيجة، حيث تسمح الإضاءات المصرية الطبيعية بمشاهدتها تقريبًا فى أية ساعة من ساعات النهار ولو لبضع دقائق ممتعة . هذه الحزمة من أشعة شمس منتصف النهار التى تنير اللوحة الموجودة فى أعلى الصفحة، تثرى كل تفصيلة بحيث نجد بين أيدينا مشهداً مسرحيا يعكس واقعية ساحرة قلّ مثيلها .

أزعم أننى أمتلك إحساسًا متّقدًا بالمسئولية، لذلك سُرعان ما أجد حريتى مقيدة عندما أسلم نفسى للمشروع الذى أنا بصدده، فلا أستطيع أن أكون متحدثة رسمية باسم أى من المجموعات الإبداعية التى يقع عليها اختيارى أو باسم النهج التنسيقى الذى أنتويه . ذلك لأن كاميرات التصوير تمنحنى شرعية الغوص فى حياة الناس، وفى نفس الوقت أود أن تعبر لقطاتى الفوتوغرافية عن اعتزازى وشكرى لهم، بسبب الامتياز الذى طوقوا عنقى به، والذى جعلنى ألمس عالمهم الخاص . فإذا أذهل هذا الكتاب القارئ أو بعث فى نفسه السرور أو أرشده إلى معرفة شىء جديد أو حتى جعله يتفهم بعمق أكبر فلسفة فن تزيين بيوت الحجاج، فسأدرك آنذاك أن أهدافى من وراء كشف النقاب عن هذا الكنز قد بلغت غايتها .

إننى أشكر بشدة مبدعى رسومات الحج فى مصر الذين استحقت أعمالهم بامتياز أن تسجل، بالإضافة إلى ذلك هناك ثلاثة أشخاص لهم معزة خاصة عندى، إذ لولاهم لكان أمر هذا المشروع أكثر صعوبة بالنسبة لى، وربما كان من المستحيل أن يرى الكتاب نفسه النور : زوجى أفون نيل AVON NEAL الذى شارك أيضا فى تحرير مادة الكتاب، والذى وقف إلى جانبى منذ عدة سنوات حاميًا ومشجعًا حتى أستكمل الكشف عن كنوزى الثمينة، والذى منحت تعليقاته الواقعية للقطاتى بعدًا جديدًا . والسيدة إيلى سيبول ELLI SEIBOLD التى كانت أول من تحدث معى عن رسومات الحج المصرية، ثم كان لها فضل دعم هذه المغامرة المهنية وفضل المشاركة فى أيامها المثيرة من القاهرة إلى أسوان وما بعدها، كما قامت بعرض الصور فى متحف الفن بمدينتها نيويورك . وأخيرا أقدم شكراً خاصًا لصديقى وزميلى حمدى السيد الذى تمكن من خلال مجهوداته التى لا تعرف الكلل واهتماماته المخلصة وحساسيته الإيجابية تجاه مشروع الكتاب، أن يبنى جسرًا للتواصل بين ثقافته وثقافتى مما زاد من حجم حبى وفهمى لإيقاع الحياة الشعبية على امتداد ضفاف نيل مصر الساحر .

آن باركر

شكر وتقدير

نود أن نقدم الشكر الجزيل لكل شخص فى مصر ساعدنا ولو بقدر ضئيل من أجل استكمال الخطوات التى حولت عملنا إلى كتاب . نحن مدينون بشدة لهم جميعًا، خصوصًا فنانى رسومات الحج الذين أبدوا استعدادًا كبيرًا للتعاون معنا، ونخص منهم بالذكر : أحمد حسن فرحوت و محمد أحمد المالك و أحمد الطيب محمد النجار و أحمد محمد السنوسى وعلى عيد ياسين .

طوال السنوات العشر التى كنا نناضل فيها لإنجاز هذا المشروع كان هناك أيضا العديد من الأصدقاء والزملاء فى أمريكا وفى أوروبا وفى مصر قدموا لنا النصيحة والتشجيع بلا تحفظ، كان من بينهم: منصور أحمد، ليفيا ألكسندر، ودينى دوبلر، وروبرت فيرنيا، وماى فيستا، وهيلموت جيرنشيم، وماتو جودين، ولينا هامنر، وفرانك كوروم، ومارجريت ميللر، وأنور المفتى، وبوب موزر، وتامارا نورثرن، وبوب باركر، وهارى باركر، وكيفين روش، وحمدى شاهد السيد، وإيلى سيبولد، وفريد سيبولد، وروز، ووالتر ستيفين شولزيل . كما لا ننسى سيلفيا ستينر، وفليب ستوتدارد، وجون تايلور، وتيرى والز، وفرانسيس وارد، وجوزيف ويرملينجر .

وفى الختام نقدم الثناء الخالص لكل العاملين فى معهد سميثسونيان للصحافة، الذين بذلوا قصارى جهدهم حتى يؤتى هذا المشروع ثماره، ونود على وجه الخصوص أن نشكر دانيل جود واين، وجاك كريشبوم، وتين سابول، وجانيك ويلر، وبصفة خاصة آمى باستان التى عملت بروح ابتكارية لا تعرف الكسل، لأنها عشقت فكرة المشروع منذ اليوم الذى عقدنا فيه أول جلسة عمل .


FABRIQUE D'-
ALBATRE...
OPERA AIDA

مقدمة

(شرح فريضة الحج)

بقلم المحرر أفون نيل

من المعروف أن دوافع الاتصال التى تستحدث للتعريف بالأحداث المهة التى تمر بنا فى حياتنا، عالمية النزعة، لذلك تعد هذه النشاطات الخلاقة هى المسئول الرئيسى الذى أنقذ الموروث الإنسانى عبر رحلته الطويلة التى نقلته من عصر ما قبل التاريخ إلى سنوات النهضة، ومنها إلى أيامنا هذه . إن ما يمكن أن يدرسه أو يفسره علماء الآثار يمكن أيضا أن يخضع لتقييم الفنانين والتاريخيين، ونقصد بذلك النقوش المسجلة التى شكلت واحدة من أقوى حلقات الماضى التليد الفنية التى أمدتنا بالمعلومات حول من هم أسلافنا وكيف كانوا يعيشون . لقد كونت رسومات الكهف والرسومات الهيروغليفية ونقوش الصخور والمنحوتات وغيرها من النقوش المسجلة فى العصور القديمة، خطًا واحدًا غير منقطع لتجارب الإبداع الإنسانية . نسق متصل يضم محاولات الكتابة المبكرة التى بدأت منذ نحو خمسة آلاف عام وبقيت محفوظة، مثل النقوش المسمارية[٤] التى عُثر عليها داخل فجوات طينية، وكذلك الرسومات الهيروغليفية على الحوائط و المحفورة فوق الأحجار .

لقد اتفق المتخصصون عالميا على أن الأعمال الخلاقة التى تركها الإنسان القديم وراءه، سواء كانت إبداعات تعكس نوعًا من الاستجمام بعد رحلة صيد، أو خيالاً تستجلب معه أجواء الصيد، أو إشراكًا للآلهة فى عملية القنص ذاتها، أو هى نوع من أنواع التواصل البسيط بين الجماعات وبين بعضها البعض، تمثل مقدمات متداخلة للعديد من الأشكال الفنية التى نعرفها اليوم .

أصبح بين أيدينا – فى مرحلة تالية – منذ أن تحول الدين إلى باعث قوى على الإبداع، الكثير من مفردات ما يصفه العالم الحديث بـ " الفن العظيم " الذى نتج عن معتقدات دينية تتراتب بين ما هو شديد البدائية وبين الكلاسيكيات الممزوجة بتأويلات إيمانية . هذا القول يصدق على ما نسميه تحديدًا بالفن " الفطرى " و"البسيط أو الساذج " و " الشائع " و " الشعبى "، والذى يوجد بوفرة على اتساع العالم كله . اللافت للنظر أن أرض مصر المعاصرة تحتضن بين جنباتها واحدًا من أشهر النماذج الحيوية التى يعكسها الفن الشعبى للحياة الدينية، إذ يمكن للمرء أن يشاهد فى طول البلاد وعرضها رسومات بسيطة غاية فى الإبداع تُزين حوائط البيوت الريفية، تعد محصلة للتراكم الذى لحق بقواعد حركة الإبداع التى فتح الباب إليها تداعيات حرص المسلمين المصريين على أداء ركن الحج إلى مكة، والذى يُعد الحدث السنوى الأكبر على مستوى المجتمعات الإسلامية .

واجهة البيت الذى يتضمن ورشة أوبرا عايدة لتشكيل الرخام، المزدحمة بالزخارف (صورته على الصفحة المقابلة) والتى سميت بذلك بعد أن عرض فيردى عمله الأوبرالى الشهير لأول مرة عام ١٨٧١ بمناسبة افتتاح دار الأوبرا المصرية[٥]، تمتد إلى جهة اليمين مكونةً موقعًا أثريا يشد نظر الزائرين إليه !! البناية التى كانت فى الأصل خالية ومهملة لا تلفت نظر المار بالقرب منها، تحولت حديثًا على يد الفنان محمد المالك إلى نقطة جاذبة لعين المارين بجانب الطريق. الخيالات الإبداعية هنا مقسمة بين الرسومات الرعوية التى تحاكى حياة الريف المصرى، وتلك التى تمجد طقوس الحج .

النجاح التجارى الذى حققته ورشة أوبرا عايدة المزدهرة تقع على الضفة الغربية مقابل مدينة الأقصر التى تقوم بتصنيع غالبية مستلزمات تجارة السياحة، ساعد أصحابها على السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج، وبسبب ما فى حوزة أبناء الأسرة من ممتلكات تتكون فى الغالب من ورش ومحلات تجارية ومنازل متجاورة، تحولت واجهة الورشة إلى معرض لأكثر نماذج رسومات الحج توهجا . أما الدليل العائلى على أن أسرة كبيرة متحابة تعيش هنا، فتدل عليه طاولة (أسفل يمين الصورة بجوار مدخل البيت) الأرغفة المصنوعة بالكامل من الحبوب المصرية الشهيرة والموضوعة على هذا المكان لكى تتخمر تحت أشعة الشمس .

عرفنا أن اثنين من أبرع الرسامين المحليين فى منطقة الأقصر وما حولها يتنافسان سنويًا على زخرفة واجهات بيوت الذين تسمح لهم مدخراتهم بالسفر إلى مكة، وفى تقديرنا أن مثل هذه الحالات التى تظللها المنافسات السوية هى التى تحفز وتنمى وتنعش حركة الفن الشعبى دائمة التطور .

(٤) يقصد بذلك حروف اللغتين البابلية والأشورية بصفة خاصة. (المترجم)

(٥) فيردى جوزيبى (١٨١٣ – ١٩٠١) مؤلف موسيقى من أبرز مؤلفى الأوبرا الإيطاليين فى القرن التاسع عشر. أول أعماله المدونة أسماه أوبرتو عام ١٨٣٩، أما أوبرا عايدة فقد ألفها خصيصا لكى تفتتح بها أوبرا القاهرة عام ١٨٧١ بمناسبة بدء تشغيل قناة السويس. (المترجم)

رسومات الزينة الرمزية هذه التى تسجل ذكريات الحج، يطلق عليها " رسومات الحج "، أما البيوت التى تزين بها فتسمى " بيوت الحجاج "، من منطلق أنها تخص المسلمين الأكثر ورعًا الذين سافروا إلى مكة لأداء فريضة الحج . هؤلاء الحجاج موجودون فى كل مكان على أرض مصر فى المدن والواحات والمجمعات الريفية، أما نماذج " الرسومات " الأكثر طرافة فيمكن العثور عليها فى قرى الريف المصرى على امتداد نهر النيل .

هذه الجداريات التى تمتاز بالحيوية والتى أبدعها فى الغالب فنانون علموا أنفسهم بأنفسهم، تؤسس لظاهرة فن شعبى يُعد بكل المقاييس رصيدًا مضافًا لشجرة الفنون فى هذا البلد العظيم، لأنها خاصية يتفرد بها الريف المصرى كما أنها تعكس رؤية الفنان الفاحصة للمجتمع أينما وجد . وعلى الرغم من تواجد رسومات الحج مبعثرة فى عدد من البلدان الإسلامية الأخرى، فإن هذه الرسومات تقع فى مرتبة متأخرة جدا عند مقارنتها بنظيراتها من الرسومات المصرية، مما يبرهن على أن المصريين يهيمنون بقوة على هذه الظاهرة المرتبطة برسومات الحج.

تبدو الدهشة على وجوه السائحين الأجانب المسافرين عبر قرى النيل البسيطة عندما يتابعون مشاهدة الرسومات المبهرة التى تزين جداريات البيوت المتواضعة . هذه اللوحات المرسومة بعناية تَجذب العين كما لو أنها باقة من الزهور اليانعة النابتة بين البيوت المبنية من الطوب النيِّئ، والتى تحيط بها من كل اتجاه، وكثيرًا ما يجد المشاهد المتأمل بنايات متتالية داخل مزرعة أو بيوت تحتل شارعًا بأكمله داخل إحدى القرى، مزدانة – مثل العناقيد – بمثل هذه الرسومات التى توحى بأن عددًا من أفراد عائلة واحدة أو مجموعة من الجيران قاموا معًا أو على فترات متقاربة بأداء فريضة الحج .

الرسومات الرمزية التى ينفذها رسامون ذوو ذوق وحساسية وعلى دراية، غالبًا ما تحكى قصة الحج بأسلوب راقٍ فى الرسم . وإذا أوحت مجموعة من الرسومات – للعين المدققة – فى بعض الأحيان بالتماثل فى المحتوى أو الشكل الخارجى أو اتسمت بنفس أسلوب التصميم وفنية توزيع درجات اللون ومستوى الحرفية، فالاحتمال الأكبر أنها نُفذت بمعرفة فنان واحد، لذلك لاحظنا أن معظم القرى لديها شخص واحد مستعد دائمًا بما لديه من ألوان وأدوات أن يلبى رغبات قاطنيها .

رسامو بيوت الحجاج غالبًا ما يكونون مبجلين بين أبناء المجتمعات التى يعيشون بينها، وإذا ما تحققت لهم السمعة الطيبة، تعاقد معهم الكثيرون لتنفيذ رسومات متنوعة بكلمة ينطقها اللسان . مهنة إبداع رسومات الحج ليست حرفة جوالين، لذلك عادة ما يقيم الفنان فى نفس المنطقة المحلية التى ينفذ فيها إبداعاته . وهذا يفسر ظاهرة أن معظم من وجدناهم متخصصين فى هذا المضمار مدرسون بحكم الوظيفة . وأن بعضهم برع فى تصميم الإعلانات التجارية والبعض الآخر تفوق فى طلاء المنازل بالأسلوب التقليدى المتعارف عليه فى الريف المصرى . وكما فى أى من الحركات الفنية المعروفة، يلاحظ بين فنانى رسومات الحج من يفتقد الأسلوب الفنى المتميز ومن يتعايش مع قدراته التخيلية المحدودة، بينما يتمتع آخرون بالموهبة الفذة . وكلهم من الرجال، على اعتبار أن احتراف المرأة لمثل هذه الفنون أمر غير مستحب .

من الأمور التى استقر عليها الرأى أن الدين كما نفخ روحه فى كثير من فنون العالم العظيمة، منحها للفنانين الشعبيين حول العالم . من هنا نقول إن الإيمان – كما حدده الدين الإسلامى – هو الذى يحمل مسئولية فكرة الرسومات التى تزين بيوت الحجاج فى مصر بشكل مباشر وغير مباشر . وتعد هذه الرسومات البسيطة المساهمة المصرية الأكثر بروزًا فى ميدان الفن الشعبى العالمى المعاصر، فبعد أن مضت سنوات القرن (العشرين) دون أن يسمع بها أحد، ها هو العالم يعترف بها واحدة من أعظم موروثات الفن الشعبى . هذه اللوحات الجدارية التى تُشاهد أحيانًا فوق حوائط بعض منازل المدينة تعد شيئًا أساسيًا بالنسبة لحياة القرية الريفية على الرغم من محدودية نسق الحياة فيها، لذلك لا نعجب عندما نعرف أن قلة نادرة من منازل المدينة الراقية تهتم جزئيًا بمثل هذه الرسومات، أما غالبيتها فلا يهتم بها و لا يعنيهم إذا كانت موجودة أصلاً .

على الرغم من أن الرسومات يقصد بها الاحتفاء بعودة الحاج إلى بيته، فإنها تعمر طويلاً بعد انتهاء الاحتفالات، ولذلك نراها تغطى حوائط المنازل الخارجية برسومات تعكس ذكريات تجربة رحلة دينية يقوم بها المسلم مرة واحدة فى حياته، وفى بعض الأحيان تزين حوائط البيت الداخلية إلى جانب واجهته الخارجية . رسومات الحج، البسيطة كما يَنظر إليها العالم، تعكس التقدير والعرفان الذى تعنيه الرحلة الإيمانية بالنسبة للشخص ولعائلته ومجتمعه . وعندما تحين عودة الحاج سالمًا يتم الترتيب لإقامة وليمة كبيرة تعبيرًا عن المناسبة السعيدة تضم جمعًا غفيرًا من الجيران إلى جانب الفرقة الموسيقية والراقصين، حيث تقدم الكثير من الأطعمة والمشروبات التى تطفئ الظمأ . لِمَ لا وهذا اليوم يُعد من أسعد أيام الحاج؟ لأنه يؤرخ لعودته إلى منزله سالمًا معافًى. هذا الحاج الذى يتمتع فور عودته بالاحترام من الجميع، يتميز بيته عن بيوت الآخرين بالرسومات التى تعلن لكل من يراها أنه قام بأداء ركن مهم من أركان الدين الإسلامى .

ولكى نفهم وسيلة هذا الفن اللافتة للأنظار، علينا أن نتعرف على رحلة الحج إلى مكة . تقول الإحصائيات إن نحو مليونين من بين المسلمين الذين يشكلون ربع سكان العالم، يسافرون سنويًا إلى مكة للقيام بأداء فريضة الركن الخامس من أركان الإسلام . هذان المليونان من المسلمين يأتون إلى مكة من أرجاء العالم كافّة، لكن الغالبية تأتى إليها من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا . ويُعد هذا التجمع الدينى الذى يتكرر سنويا، أكبر حشد من البشر على مستوى العالم يتقابل فى مكان واحد فى وقت واحد لهدف واحد !!

الحج

الحج كلمة تعنى بالعربية زيارة الأماكن المقدسة الإسلامية أو زيارة مكة المكرمة بصفة خاصة، وهى وإن كانت فريضة ترتبط بسنة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، فإنها كانت تُمارس بشكل شديد الاختلاف فى العهد الوثنى السابق على دعوة الإسلام . والأداء التراتبى لطقوس فريضة الحج يتميز بالدقة والعراقة معًا، ويحتاج إلى بضعة أيام لكى يتم القيام به بالكيفية الدينية الواجبة .

الإسلام فى اللغة العربية يعنى " الخضوع لله " وهو نوع من الوصف الدقيق لمعتنق الدين الإسلامى، لأن الورعين من المسلمين " يُسلمون " حياتهم كلها لله . ومن يُلزم نفسه من المسلمين بأركان الإسلام الخمسة : التوحيد والصلاة والزكاة والصوم والحج، يُعد ممن أوفى بعهده مع الله، ويعتبر أداء فريضة الحج البرهان الأسمى على توافر شروط الإيمان لديه .





لا يقطع المسافرون داخل مصر مسافات طويلة دون أن يصادفوا فى طريقهم منازل تغطى جدرانها برسومات بسيطة غاية فى الابداع، وتزينها خطوط لكتابات عربية غاية فى الإتقان. هذه هى منازل الحجاج أو مساكن الأتقياء من المسلمين الذين سافروا إلى مكة المكرمة. الأعداد الكبيرة من هذه الدور تزين سنويا بالصور المرسومة احتفاء بعودة الحجاج. هذه اللوحات لا تعد من قبيل التذكير بالرحلة المقدسة فقط، بل تعكس نماذج ملونة من فن الرسم الشعبى الحديث الأكثر شهرة فى عموم محافظات مصر كلها .

الحوائط الأمامية لهذه البيوت تبعث من حين لآخر ومضات مثل الإضاءات المسرحية التى تعكس أجواء الدراما فى نقطة محددة من خلفية المسرح وتترك ما حولها معتما . وها هو الفنان الذى أبدع اللوحة المنشورة على هذه الصفحة والصفحة المقابلة يضيئها بالطلاء الأبيض الناصع ويتعمد رسم باقتين من الزهور داخل أوعية ذات خاصرة محدبة للإيحاء بالقوة والتواضع أمام الله، ثم يكتب بينها اسم الحاج وتاريخ ١٩٨٤، لتوثيق عام سفره، ثم يضيف إلى كل ذلك كتابات دينية غاية فى الجمال .

أما صورة الطائرة المعلقة فتعطى إيحاء بأن الحاج ربما يكون قد سافر إلى السعودية بهذه الوسيلة. أما الحاج نفسه فقد صوره الفنان بالحجم الطبيعى مرتديا ملابس الإحرام التقليدية التى يلبسها الرجال، وجعله يمد يديه محييا البنيان المربع المغطى بالسواد والذى يمثل الكعبة التى يتوجه إليها المسلمون على امتداد مسيرة حياتهم فى كل أنحاء العالم الإسلامى .

تبرهن الدور التى نراها فى الصورة، بشكل مباشر، للمصريين الذين يمرون بهذه النواحى أن واحدا على الأقل من ساكنيها قد سافر إلى مكة لأداء فريضة الحج. أما الفتحة الحجرية فى جانب التل (إلى يسار الصورة) فتبدو كأنها ممر يقود إلى مقابر قديمة تخص أهالى المنطقة .

اللوحة بإيحاءاتها، تسمح لنا بقليل من الذكاء أن نتخيل أن جدا من جدود الفنان الذى رسم هذه الزخارف التذكارية، ربما يكون قد شارك بعناية فى رسم الصور التى تزين التابوت الفرعونى الذى كشف عن وجوده بالقرب من هذا المكان منذ فترة وجيزة.

أركان الإسلام الخمسة

توفر أركان الإسلام الخمسة التى أرساها الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) منذ القرن السابع الميلادى الإرشادات الدينية لأكثر من بليون مسلم حول العالم، وتمدهم بالغذاء الروحى الذى يضمهم معًا جنبا إلى جنب. الركن الخامس وهو الحج أو زيارة مكة المكرمة حيث ولد الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) وتنزل عليه أول وحى من الله[٦]. وحيث توجد الكعبة أو بيت الله الحرام الذى يشار إليه دائما بالجامع العظيم، والذى يعد المكان الأكثر تقديسًا لدى المسلمين جميعًا والأتقياء منهم بالذات.

كانت العقبات الجسام تكتنف رحلة الحج بصفة عامة حتى أوائل القرن العشرين، فكان يهاجمها قطاع الطرق، أو يتوفى البعض وهم فى طريقهم إلى مكة. على الرغم من ذلك لم يكن الموت بالقضية التى تشير إلى سوء الحظ، حيث يُعد الموت فى الطريق لأداء هذه الشعيرة من قبيل الحظوظ الطيبة التى يستبشر بها المسلم، لأن روح الميت التى تتطهر فى بدء مسيرته للحج، تصعد على حالتها هذه إلى السماء مباشرة.

وبعد أن يُتم المسلم بنجاح طقوس ركن الحج، يتشرف بأن يُطلق عليه لقب لا يزول عنه أبدًا. ونقصد بذلك تسمية " حاج "، أو "حاجة" إذا كانت امرأة (تؤكد الأرقام التى قيلت لنا أن نحو ثلث الحجاج فى أيامنا هذه من السيدات). لهذا السبب تُعد مكة المركز الروحى للإسلام والمصدر الرئيسى لكل الطقوس التى تحكم أداء متطلبات ركن الحج لما تتمتع به من مزارات مقدسة، لذلك لا نتجاوز الحقيقة عندما نقول إن حلم كل مسلم هو أن يؤدى فريضة الحج، لأن القيام بها يعتبر أهم حدث يقع فى حياته الدينية كلها.

يختلف عدد المسلمين الذاهبين للحج من سنة إلى أخرى، أخذًا فى الاعتبار الأحوال الاقتصادية والضغوط السياسية وعددًا من العوامل الأخرى ذات الصلة، على كل حال يمكن القول إن العدد فى وقتنا الراهن يقترب من المليون ونصف المليون[٧]. أما إبان سنوات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فكان الرقم محصورًا بين مائة ومائتى ألف حاج. هذه الأرقام هبطت بشدة فى ثلاثينيات القرن العشرين حيث لم يقم بهذه الرحلة سوى (٢٠٥٠٠) عشرين ألف وخمسمائة حاج عام ١٩٣٤، وظل الأمر على هذا المنوال حتى أوائل الخمسينيات عندما عادت الأرقام إلى سابق عهدها متجاوزة رقم المائة ألف. ومنذ ذلك الوقت تزايدت أعداد الحجاج بشكل لافت للنظر حتى اقترب عددهم من مليونين فى السنوات الأخيرة. وكلما ازداد عدد المسلمين القادرين واتسعت سبل الوصول إلى مكة، تضاعف عدد المسلمين فى كل مكان ممن يؤدون ركن الحج.

الصـــلاة اليـوميــــــة

ينحنى المسلمون فى كل مكان من العالم احترامًا للكعبة عندما يقفون ناحية الاتجاه الذى يؤدى إليها فى كل مرة يقيمون فيها صلواتهم الخمس اليومية، لذلك لا عجب أن يذهب المسلم بتفكيره يوميا إلى المدينة المقدسة، ابتداءً من سماعه للمؤذن ينادى لصلاة الفجر وانتهاءً بآخر الصلوات المسائية المكتوبة. كل أفكار المسلمين حتى لو شردت منهم يُعاد تركيزها حول الكعبة عندما ينحنون فى اتجاه موقعها لأداء صلاة الفجر وبعدها الصوات الثلاث النهارية، صلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب، قبل أن يقوموا لأداء صلاة الليل الأخيرة.

استحضار المسلم فى كل مكان وفى جميع الأوقات لصورة الكعبة بسترتها ذات اللون الأسود التى تزينها حروف الآيات القرآنية المطرزة بالخيوط الذهبية، هو النموذج الأكثر حميمية لديه، وهو أيضا النموذج الأسرع تذكرًا على امتداد العالم الإسلامى. أما الحاج فلديه ذكريات أخرى كثيرة مكتوبة ومرئية، لذلك تعتبر الرسومات المصورة التى تحكى قصة الحج فوق الواجهات الأمامية للبيوت فى قرى مصر، من بين النماذج التى تتمتع بالشهرة والروعة فى الريف المصرى.

---

(٦) أول نداء إلى أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد فى غار حراء ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق...﴾ (العلق/ ١-٥). (المترجم)

(٧) تقول الإحصاءات الرسمية لوزارة الحج السعودية إن أرقام حجاج موسم عام ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٦م كانت كما يلى

أ- من خارج المملكة ١٥٥٧٤٤٧ حاجا. ب- من داخل المملكة ٥٧٣١٤٧ حاجا. جـ- الإجمالى ٢١٣٠٥٩٤ حاجا. (المترجم)

يسمح للمسلمين فقط بزيارة مكة، فترى الأتقياء منهم فى خلال شهرين بعد انتهاء صوم شهر رمضان يتقاطرون إلى هذا المكان الأكثر تقديسًا عندهم بأعداد هائلة، تحكمهم جميعًا شعائر أداء الركن الخامس التى يتبعها بكل دقة القادمون منهم من أرجاء العالم الإسلامى كافة. إنها شعائر تُعيد تأكيد حقيقة إيمانهم وتطهر أرواحهم وتلزمهم بمقام العُباد المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية.

كل مسلم قادر على أداء هذه الشعيرة يهفو قلبه لزيارة مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. لكن من المؤسف أن واحدًا فقط من كل ألف مسلم هو القادر على القيام بهذه الرحلة فى سنة محددة. معظم هؤلاء المسافرين عندما يعقدون نية الحج يعمدون إلى التقتير على أنفسهم لسنوات طويلة من أجل ادخار " النصاب المالى " القادر على أن يحقق لهم الحلم الذى لا يغادر مخيلتهم، أما غيرهم من الورعين ميسورى الحال فيمكن أن يقوموا بهذه الشعيرة أكثر من مرة بغرض الاستزادة من فيوضاتها الروحانية، خصوصًا ما يتعلق منها بالتطهر وتجديد الطاقات الإيمانية.

الجدير بالملاحظة أن الوجود الجغرافى والحالة الاقتصادية يلعبان دورًا مهما فيما يتعلق بقدرة المسلم على القيام بهذه الرحلة الدينية، فالمقيمون فى جدة مثلاً فى استطاعتهم السفر إلى مكة بشكل أكثر سهولة من ذلك المسلم الذى يقتات من فلاحة الأرض فى جنوب شرقى آسيا.

السفر لأداء الحج فى الأيام الماضية

ظلت قوافل الحج لأكثر من ألف عام هى الوسيلة الوحيدة التى تحقق للراغبين فى الحج إلى مكة حلمهم، على الرغم مما تشكله من مصاعب وبما يكتنفها من مخاطر، لذلك كان من المعتاد، وحتى العصر الحديث، أن تستغرق رحلة الذهاب والعودة عدة أشهر وربما سنة أو أكثر للقادمين من بلدان بعيدة. وبعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩[٨] وفرت السفن التجارية سبيلاً جديدًا للنقل الجماعى، سرعان ما أقبل عليه الحجاج الراغبون فى السفر إلى مكة، وما هى إلا سنوات قليلة حتى أصبح السفر بالبحر هو الوسيلة الأفضل لحجاج بيت الله الحرام القادمين إليه من شتى بقاع العالم، لأنها الأسرع والأكثر أمانًا عند مقارنتها بوسيلة الانتقال على ظهور الإبل. والأيسر من حيث السعة والتتابع، وبتقادم استخدامها أصبحت هى الأقل تكلفة و ما زالت السفن - حتى وقتنا الحاضر - تنقل أعدادًا غفيرة من الحجاج إلى موانئ الوصول الممتدة على اتساع الشاطئ السعودى المطل على البحر الأحمر. هذا بينما السعوديون أنفسهم وسكان الدول المجاورة لهم يستطيعون السفر بسياراتهم الخاصة أو بسيارات النقل الجماعى.

شكل خط سكك حديد الحجاز، إلى جانب الطرق البرية والبحرية، والذى كان يمتد نحو ٨٠٠ كيلومتر بين دمشق والمدينة المنورة وسيلة سفر أخرى نقلت أعدادًا هائلة من الحجاج بين عامى ١٩٠٨ و ١٩١٣. وعلى الرغم من أن وسائل النقل البحرية فى أواخر القرن التاسع عشر كانت قادرة على مزاحمة وسائل السفر فوق الأرض لأنها كانت الأرخص والأكثر أمنًا، فإن خطوط السكك الحديدية برهنت على أنها الأكثر ملاءمة للحجاج الهابطين من البلدان الشمالية، أما حجاج دول أوروبا الغربية ودول حوض البحر الأبيض المتوسط و الأمريكتين، فكان ركوب البحر هو الأنسب بالنسبة إليهم.

هذا بينما كانت قوافل الجمال من ناحية أخرى لا تزال، حتى ذاك الوقت، تقلع من بعض مدن الشرق التاريخية محملة بنحو عشرة آلاف حاج قاصدين مكة عبر فيافى الصحراء. تقول وقائع التاريخ إن استخبارات القوات العسكرية البريطانية قامت، إبان اشتعال معارك الحرب العالمية الأولى بمعاونة حلفائها من البدو، بتدمير الجسور الرئيسية وبقطع طرق الإمدادات العسكرية التى كانت تستخدمها الإمبراطورية العثمانية فى الشرق الأوسط ومن بينها خط سكك حديد الحجاز[٩]، الذى أصبح منذ ذلك التاريخ عديم المنفعة بالنسبة للمسافرين إلى مكة بغرض الحج.

لم يفكر أحد فى إصلاح هذا الخط الحديدى بعد انتهاء المعارك؛ مما أدى إلى انكماش استخدام حجاج الشرق الأوسط للطرق البرية، حتى تطورت صناعة السيارات وأصبحت هى الوسيلة الأشهر بين وسائل سفرهم إلى الأماكن المقدسة لأداء الفريضة.

---

(٨) منذ افتتحت قناة السويس للملاحة فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ فى عهد الخديو إسماعيل أصبحت أهم طريق بين الدول الأوروبية ودول الشرقين الأقصى والأدنى. فقد أحدثت تغيرا ملحوظا فى حركة التجارة العالمية. وايضا فى مجال نقل المسافرين. (المترجم)

(٩) تضمنت خطط الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى خطة لتدمير هذا الخط الحديدى. لإضعاف الإمبراطورية العثمانية بسبب تعاونها مع أعدائهم. وتم التدمير بالتعاون بين الضابط البريطانى الشهير اللنبى وقيادات الثورة العربية ضد العثمانيين فى خلال المدة من ١٩١٥ إلى ١٩١٨. (المترجم)

ظلت طرق الجزيرة العربية الملتوية تعيق التواصل بين نقاطها الرئيسية حتى وقت مبكر من سبعينيات القرن العشرين، بسبب وجود طريقين رئيسيين مرصوفين فقط على مستوى المملكة العربية السعودية. لكن بعد تدفق الثروة التى جلبها النفط السعودى، الذى يقف وراء النقلة الحضارية التى شهدتها خارطة الطرق البرية بالمملكة، شيدت شبكة الطرق السريعة التى تربط جدة بالكويت والرياض بالمدينة. كما شقت الطرق الانسيابية التى تتجه شمالاً إلى الحدود مع الأردن وجنوبًا وشرقًا إلى دول الخليج العربى. هذه الطرق التى صممت فى المقام الأول لخدمة حركة النقل التجارى، كثيرًا ما تستخدم للمساعدة فى نقل الحجاج القادمين من خارج البلاد، وكذلك لنقل أبناء البلاد والعاملين فيها الذين يتوجهون لزيارة مكة المكرمة كل عام. شبكة طرق النقل هذه التى تشمل السعودية كلها، والتى تتبعت عند إقامتها دروب السفر القديمة التى كانت تسير فيها قوافل الإبل، سهلت على مئات الآلاف من الحجاج سبل الوصول إلى مكة المكرمة والمسجد الحرام عن طريق البر.

وبينما أصبح طريق النقل الجوى بالتدريج منذ سنوات الحرب العالمية الثانية وسيلة النقل الرئيسية للمسلمين الراغبين فى الحج، ما زالت غالبية لا بأس بها من أبناء الدول المجاورة للسعودية يفضلون السفر إلى الحجاز بالبر و بالبحر. تقول الإحصاءات إن أكثر من نصف القادمين للحج فى زماننا هذا (البعض يقول إن نسبتهم تبلغ نحو ٩٠٪) من خارج السعودية، يختارون وسيلة النقل الجوى باعتبارها الأسرع والأنسب للوصول إلى جدة، ومنها بسيارات النقل الجماعى إلى مكة. لذلك نقول إن عصر الطائرات النفاثة أثر تأثيرًا ملحوظًا فى المتطلعين لاستخدام وسيلة النقل الجوى هذه للسفر إلى مكة بسبب الزيادات الكبيرة التى أضافها إلى تكلفته الأساسية.

أما مطار جدة الحديث الضخم فيعمل على مدار الساعة طوال أيام موسم الحج لاستقبال ما لا يقل عن ٣٠٠ رحلة جوية فى المتوسط على امتداد اليوم والليلة. وتتنوع الطائرات التى تقوم بهذه الرحلات بين الصغيرة الخاصة و الجامبو النفاثة العملاقة. أما الرحلات المكوكية التى تُسيرها العديد من شركات النقل الجوى العالمية فتطير مباشرة إلى جدة من مصر ومن مراكز الإقلاع الموزعة حول العالم الإسلامى.

طوال موسم الحج يقوم مطار جدة بإنهاء إجراءات دخول نحو ٥٠ ألف حاج يوميا، بمعدل ٢٠٠٠ حاج كل ساعة. أى ما يوازى ٣٤٠ حاجا كل دقيقة، بعدها يقوم مندوبو المطوفين بإرشادهم إلى الطريق نحو مكة المكرمة.



بدأت عادة تسجيل ذكريات الحج فى مصر، برسم بعض الرموز قبل نحو مائة عام. وفى ذلك الوقت كانت الرسومات تغطى مساحات صغيرة من أعالى أو مداخل البيوت والطرقات

لاحظ العلامة جى. إبيرز - مؤلف كتاب " مصر: وصفيا وتاريخيا وتصويريا " الذى نشره عام ١٨٧٨- وجود بعض الرسومات البدائية فوق مداخل عدد من البيوت المتواضعة، تصور الجمل أو السفينة البخارية التى استخدمها أصحاب البيت فى السفر إلى مكة مخترقين الصحراء أو عابرين البحر الأحمر لأداء فريضة الحج.



بعد أكثر من خمسين عاماً من هذا التاريخ، علق إميل لودفيج فى كتابه " النيل " الذى صدر عام ١٩٣٠ على هذه الرسومات قائلاً: " هنا قام أحدهم برسم جمل بائس وإلى جانبه خط سكك حديدية، ولكنه ليس ذلك القطار الأبيض الذى يراه أربع مرات كل يوم ماراً بسرعة شديدة بجوار مجرى نهر النيل، لأن الرسم يُعبر عن نموذج قطار بالغ القدم، ربما يكون أبوه قد استقله عندما سافر منذ سنوات طويلة لأداء فريضة الحج".

يمكن القول إن نماذج الرسومات الشعبية المعاصرة بالغة الروعة التى يتتابع ظهورها بأعداد متزايدة كل عام، ترجع فقط إلى أجيال معدودة من الفنانين، لذلك نلاحظ أن بيوت الحجاج التى يمكن التعرف عليها من الرسومات البسيطة التى تميزها لم يعد فيها مكان لا للرسومات المتواضعة

ولا للجمل البائس ولا لغيرهما مما جاد به قلم مؤلف كتاب النيل.

لتخطيط المسبق لأداء الحج

تقوم كل دولة إسلامية وعربية بإعداد خطة أولية لتسفير حجاجها قبل موسم الحج بعدة أشهر، وفى مصر ينتقل المنظمون لهذه الرحلات كل عام من مكان لآخر عبر مجرى النهر وفى البرارى لزيارة أصغر القرى والواحات بهدف تنظيم مجموعات الحجاج للموسم التالى. وفى الوقت المحدد يتجمع المسلمون المرشحون للسفر بالقرب من مراكز التجمع المتفق عليها من قبل، يملؤهم الحماس، وعندما يكتمل عددهم تنقلهم وسائل النقل البرى إلى المطارات الجوية والموانئ البحرية التى سيسافرون منها إلى مدينة جدة، التى تُعد المدخل الرسمى للحجاج القادمين إلى السعودية. يصل الحجاج المصريون إلى مراكز التجمع هذه على أقدامهم أو راكبين الدواب، الجمال والأحصنة والحمير، أو بأية وسيلة نقل برية مناسبة، سواء كانت عربة تجرها الماشية أو سيارة من أحدث طراز.

كما يختلط غيرهم فوق أرصفة محطات السكك الحديدية التى أتوا إليها من مراكز تجمع أخرى، قبل التوجه إلى المطار والموانئ، يحيط بهم أصدقاؤهم وذووهم، وكل يتمنى لهم الخير والقبول، ومن حولهم تتصاعد الدعوات القلبية الجياشة التى تدعو لهم بعودة سالمة رابحة. عندما يصل الحجاج من كل أقطار الدنيا إلى مراكز الوصول السعودية البحرية والجوية التى تفيض بأعدادهم الهائلة، يشعر الجميع بقوة انتمائهم للدين الإسلامى الذى يجمع المؤمنين برسالة محمد (عليه الصلاة والسلام) فى صعيد واحد.

فى أيامنا هذه يصل غالبية الحجاج، ومن بينهم المصريون، إلى الأراضى السعودية منقولين على متن الطائرات النفاثة. أما من يختار السفر بالبحر من المصريين لأسباب اقتصادية أو لغيرها، فغالبًا ما يُبحرون من مدينة السويس فوق سفن حديثة عملاقة تعبر بهم البحر الأحمر إلى جدة التى تعد " بوابة الحجاز" التى ينطلق منها جميع القادمين لأداء فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة.

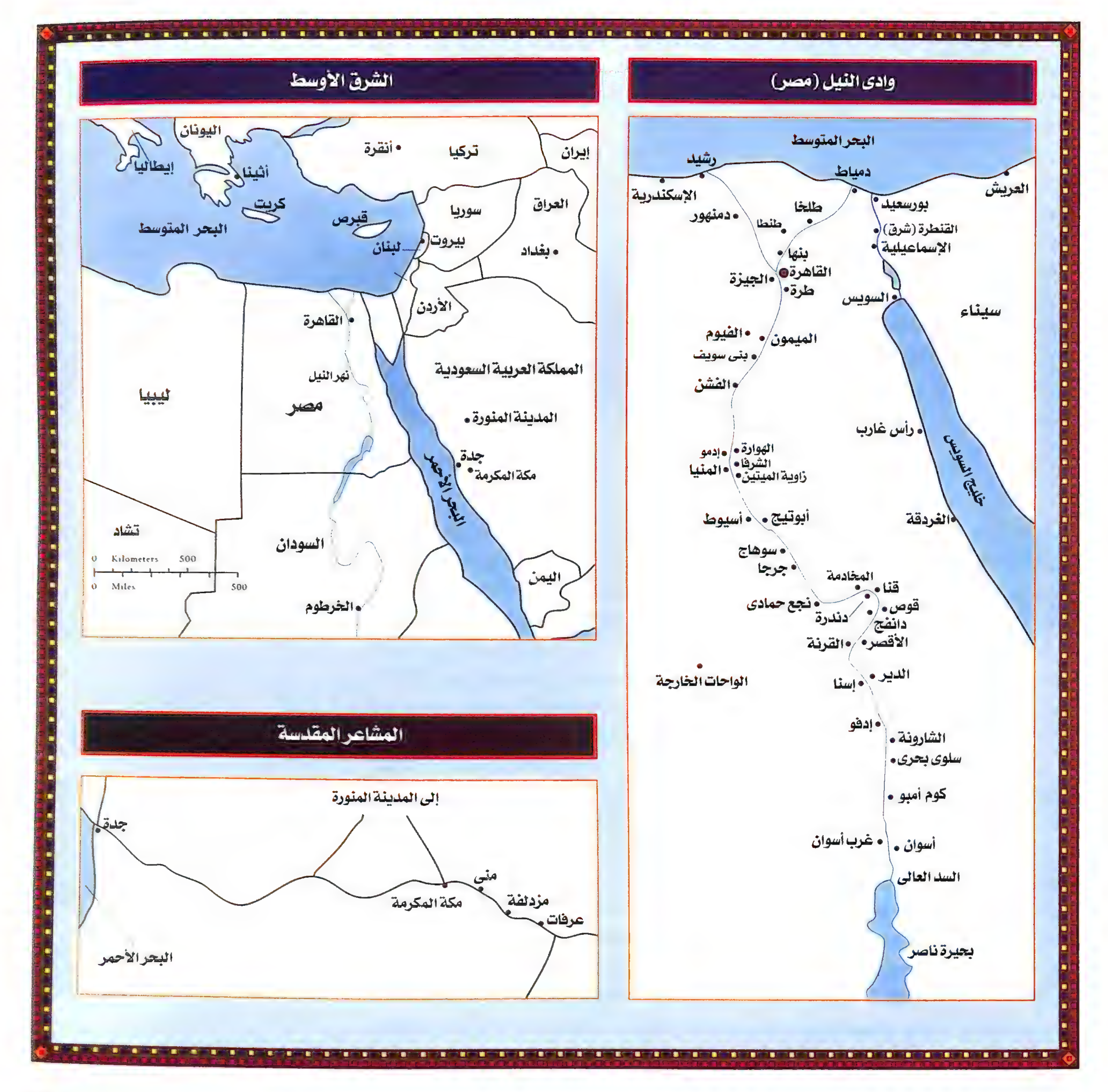
أراضى الحجاز التى تغطى القسم الغربى من المملكة، يطلق عليها " الأراضى المقدس " لأنها تعد مُطهرة منذ أن حقق الرسول (عليه الصلاة والسلام) فوق أراضيها انتصاراته العظيمة، وتضم معظم الأماكن المقدسة التى يحرص الأتقياء من المسلمين على زيارتها مثل : مكة المكرمة والمسجد الحرام و المدينة المنورة و جبل عرفات ومنى ومزدلفة، وكلها تشهد بالجهد الذى بذله الرسول (عليه الصلاة والسلام) لأجل إعلاء كلمة الحق منذ أن كُلف بالرسالة حتى لقى وجه ربه.

إدارة عملية الحج وتنظيمها

بدأت عناية المملكة العربية السعودية بالحجاز منذ عام ١٩٢٠، وحتى وقتنا الراهن ما زال الإقليم يحظى بدعم مالى كبير من جانب حكومتها، لذلك لا نندهش عندما نعرف أن " الأراضى المقدسة " التى تبقى شبه ساكنة طوال العام تتحول إلى خلية نحل تتواصل نشاطاتها طوال موسم الحج.

منذ عدة قرون كانت تلبية احتياجات الحجاج تأتى على رأس مسئوليات أهل مكة، وما كان يُعد فى الماضى البعيد ضغطًا مسببًا للفوضى، أضحى اليوم نظامًا صارمًا تديره مؤسسة حكومية مسئولة، مما ساعد على التخفيف من وطأة الكثير من المشاكل، وأسهم فى حل ما يطرأ من شكاوى. الأمر الذى يدعو للتعجب. أن شعائر الحج تتم بسهولة، على الرغم من أعداد الحجاج الهائلة ونشاطاتهم المتتابعة وتنقلاتهم المتتالية، لكن العجب يختفى عندما نعرف أن أقل التفاصيل شأنًا فى برنامج الحج يجرى تنظيمها بدقة شديدة من جانب السلطات السعودية؛ مما أضفى على " خطوات أداء الشعيرة " ضبطًا استثنائيًا لكل مراحلها بعد أن أسندت المؤسسة الحكومية السعودية مسئولية قيادة الحجيج لمجموعة متخصصة من الوكلاء المهنيين (المطوفين) الذين يتحملون - بالإضافة إلى التنظيم والقيادة - مسئولية إرشاد الحجاج لأهمية الالتزام بما جاء فى القرآن الكريم وسنة الرسول (عليه الصلاة والسلام) فى هذا الخصوص.

هذا إلى جانب التخطيط المسبق على مدار الساعة لمتابعة مئات التفاصيل المتعلقة بأمور عملية مثل توافر أماكن الإقامة، وتوافر المواد الغذائية، وسهولة تقديم المساعدات العلاجية، وكفاية وسائل النقل، ونظافة دورات المياه... إلخ، مع الاستعداد بنفس المستوى لتلبية الحاجات الروحانية لكل مجموعة حجاج على حدة.



وادى النيل (مصر)
البحر المتوسط
رشيد
دمياط
العريش
الإسكندرية
طلخا
بورسعيد
دمنهور
طنطا
القنطرة (شرق)
الإسماعيلية
بنها
القاهرة
الجيزة
طرة
السويس
سيناء
الفيوم
الميمون
بنى سويف
الفشن
رأس غارب
خليج السويس
الهوارة
إدمو
الشرفا
المنيا
زاوية الميتين
أبوتيج
أسيوط
الغردقة
سوهاج
جرجا
المخادمة
قنا
نجع حمادى
قوص
دندرة
دانفج
القرنة
الأقصر
الواحات الخارجة
الدير
إسنا
إدفو
الشارونة
سلوى بحرى
كوم أمبو
غرب أسوان
أسوان
السد العالى
بحيرة ناصر
الشرق الأوسط
اليونان
أنقرة
تركيا
إيران
إيطاليا
أثينا
كريت
العراق
سوريا
قبرص
البحر المتوسط
بيروت
لبنان
بغداد
الأردن
القاهرة
المملكة العربية السعودية
نهر النيل
ليبيا
مصر
المدينة المنورة
جدة
مكة المكرمة
البحر الأحمر
تشاد
Kilometers 500
Miles 500
السودان
اليمن
الخرطوم
المشاعر المقدسة
إلى المدينة المنورة
جدة
منى
مزدلفة
مكة المكرمة
عرفات
البحر الأحمر

الوصول إلى جـــدة

يتجهز الحجاج فور وصولهم إلى مدينة جدة لكى يدخلوا الإقليم المقدس بالإعلان عن نيتهم فى أداء فريضة الحج، إن لم يكونوا قد أعلنوا ذلك وهم فى طريقهم إليها من ديارهم، أيًا كانت الوسيلة التى سافروا بها. هذا الإعلان يتحقق ضمن جو من المشاركة الإيمانية المبهجة التى تبدأ بالتطهر، تمهيدًا للدخول فى حالة "الإحرام " التى تبدأ بالوضوء ثم لبس ملابس الإحرام.

ملابس الإحرام بالنسبة للرجل تتكون من قطعتين غير متصلتين من نسيج القطن الأبيض، إحداهما تغطى الجزء الأسفل من الجسم والثانية تغطى الجزء العلوى منه مع ترك الكتف اليمنى عارية، مما يوحى بالمساواة أمـام الله.

أما ملابس الإحرام بالنسبة للسيدات فهى أكثر تيسيرًا لأن المطلوب منهن أن يغطين رءوسهن طـوال الوقـت دون أن يخفين وجوههن، على أن تكون ثيابهن فضفاضة ومسدلة على الجسم كله وذات أكمام طويلة. وليس هناك لون محدد، وعلى الرغم من ذلك تفضل الكثير من النسوة اللون الأبيض، ربما لاعتبارات شخصية بحتة.

من جدة إلى مكة المكرمة

يسافر الحجاج فى أفواج كبيرة من جدة إلى مكة، ويقطعون مسافة ٥٤ ميـلا التى تفصل بين المدينتين بواسطة وسـائل النقل الجـماعى وسيارات الأجرة. هذه المسافة التى يقطعها الحاج فوق جمله أو حصـانه فـى يوم وليلة، أصبحت تنجز، لو كان الحظ مواتيًا والسائق على معرفة بالطريق، فى أقل من ساعة.

وما زالت ذاكرة الماضى القريب تحمل فى طياتها صورة صفحة الصحراء القاسية التى تغضن وجهها بطوابير طويلة من الإبل ذات الأحمال الثقيلة، تتهادى بتصميم فى اتجاه الأماكن المقدسة، تتبعها هبات التراب الحلزونية التى تتصاعد فى إثر مشية خفافها التى تخترق سكون الصحراء الساخن. وعلى الرغم من استخدام الحجاج لوسائل النقل الحديثة فى الانتقال إلى مكة فإن طرقهم التى يسلكونها إليها ما زالت تتسم بالزحام، لكن حماسهم الدينى يدفعهم دائمًا للتقدم إلى الأمام. وعن طريق الخدمات التى يقدمها المطوفون السعوديون ذوو الخبرة (تدربوا بشكل محدد على إرشاد المجاميع الهائلة من الحجاج إلى كيفية أداء شعائرهم). تتم قيادتهم خطوة خطوة فور إعلان نيتهم فى القيام بأداء الفريضة، إلى الخطوات التالية كافة فى مسيرة الحج.

تتولى وزارة الحج السعودية تنظيم رحلات الحجاج الداخلية بين مكة والأماكن المقدسة الأخرى بشكل صارم، وتلقى بمسئوليتها على عاتق المهندسين المدنيين ومخططى حركة المرور، ويتولى ضباط شرطة مدربون مراقبة تدفق سيارات نقل الركاب والسيارات الخاصة فوق الطرقات ليساعدوا على انسيابها. وعلى الرغم من مجهوداتهم الرائعة من الممكن أن يحدث اختناق يجبر المركبات على مواصلة الرحلة زحفًا، فى شكل حركة لا تكاد تكون محسوسة.

ضرورات الحج هى التى دفعت الحكومة السعودية إلى شق اثنى عشر طريقًا موازيًا عبر الوادى غير المستوى الذى يربط بين مكة وجبل عرفات، لاستيعاب حركة السيارات الخاصة وطوفان سيارات النقل الجماعى متفاوتة القدرات التى تعمل طوال موسم الحج. معضلة المرور العظمى تتداعى فور شروق شمس يوم " وقفة عرفات " حينما تبدأ خطوات تحرك الحجاج نحو جبل الرحمة، ثم تتوالى إلى أن تنتهى " إفاضة الحجاج " إلى مزدلفة إلى مباشرة عقب غروب شمس نفس اليوم، حيث تفرض السنة النبوية على هذه الأعداد الهائلة من الحجاج أن يبادروا مغادرة جبل عرفات بأسرع ما يمكنهم. وعلينا أن نتخيل كيف يمكن لما لا يقل عن ١٢٠ ألف مركبة أن تتسابق فى وقت واحد لأجل الوصول إلى مزدلفة ومدينة الخيام، التى تقيمها السلطات السعودية لإسكان نحو مليونى حاج فى هذا المكان لفترة محددة. الأميال الفاصلة بين جبل الرحمة ومزدلفة تقطعها وسائل النقل فى عدة ساعات، أما فى الأوقات العادية فنفس المسافة تقطع فى أقل من ساعة، لكن لا شىء مؤكدا عندما يكون التعامل مع مليونين من البشر ومئات الألوف من المركبات.

على سبيل المثال أدت الاختناقات المرورية فى موسم حج عام ١٩٨٦ إلى تأخر الحجاج عن استكمال مناسكهم زُهاء ٢٠ ساعة، مما جعل البعض يترحم على الأيام التى كانت فيها الإبل أكثر قدرة على الوصول إلى الأماكن المقدسة فى زمن أقل. الأمر الذى لا خلاف عليه أن تجربة هؤلاء الحجاج الذين أمضوا الساعات متعبدين طوال يوم " وقفة عرفات " تحت أشعة الشمس المحرقة، عندما يصبرون على الارتباك الناجم عن المركبات التى تسير فى شبه دائرة مغلقة تحت سماء صحراوية لا يستطيعون الفكاك منها، تؤكد - بما لا يدع مجالا للشك - أنهم يمرون بتجربة فريدة لاختبار مدى الجَلَد والثبات الذى يمكن أن تتمتع به أكثر الأرواح إيمانًا.

التوجه إلى مكة

يبادر الحجاج القلقون فور قدومهم إلى مكة المكرمة بالتعرف على أماكن إقامتهم، بعدها يتوجهون بأسرع ما فى طاقتهم إلى المسجد الحرام كما يطلق عليه بصفة عامة. وعندما يصل الحجيج إلى هذا المكان المقدس، الذى يتسع لنحو ٣٠٠ ألف حاج[١٠] تشملهم السكينة التى تبعد عنهم الخشية والقلق والترقب. وحالما يصلون إلى ساحته يدخلون بقدمهم اليمنى، كما تقضى بذلك السنة النبوية، لينخرطوا ضمن آلاف غيرهم قبل أن تجرفهم جميعًا الدوامة البشرية التى يشكلها إخوانهم من الحجاج المتحمسين لأداء شعيرة " طواف القدوم " التى تطلب منهم الطواف حول الكعبة سبع مرات[١١]. وهناك إجماع على أن ردة فعل المسلم، الذى يحلم بهذه اللحظة ربما طوال عمره، عندما يلقى النظرة الأولى على الكعبة المشرفة تملأ نفسه بالروعة والسكينة والرضا[١٢].

الكعبة وكسوتها

فى وسط باحة المسجد الحرام تقف الكعبة شامخة ببنائها الأثرى المنفرد، والذى يتكون من حجارة رمادية، ويبلغ طوله وعرضه نحو ٤٠ قدمًا، أما ارتفاعه فيصل إلى ٥٠ قدمًا. تُغطى الكعبة كل عام بغطاء جديد هائل من الأقمشة السوداء يطلق عليه " الكسوة "، مطرز عند جزئه الأعلى بزخارف زاهية الألوان تشاهد فوق واجهات البنيان الأربع، أما الكلمات المنسوجة بخيوط ذهبية فمأخوذة من آيات القرآن الكريم.

كل عام وفى أعقاب احتفال خاص يتم تنظيف هذا البنيان الشامخ وغسله من الداخل، كما يتم غسله من الخارج، على يد أصحاب المنزلة الرفيعة من أبناء المجتمع السعودى، ثم تزاح الكسوة القديمة وتسدل مكانها الكسوة الجديدة التى تغطى جميع حوائط هذا الصرح المقدس.

الكسوة القديمة التى بهت لونها الأسود يحملها بعناية فائقة أبناء عائلة لها مكانة خاصة، إلى حيث تُقطع إلى أجزاء صغيرة، يتم إهداؤها إلى عدد من الحجاج ذوى المكانة السامية تعويذة أو هدية تذكارية بمناسبة قدومهم إلى مكة للحج.

---

(١٠) جرت أول توسعة للمسجد الحرام فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، فقد اشترى الدور الملاصقة للمسجد ثم هدمها وأدخل أرصفها إلى حيز المسجد، وأقام جدارًا حوله كان ارتفاعه دون المقام، وجعل له عدة أبواب. كما أمر بعمل سد لحجز مياه السيول عن الكعبة، وأول توسعة فى العصر الحديث عام ١٩٥٥ فى عهد الملك سعود بن عبدالعزيز، وتواصلت ست سنوات، أزيل خلالها العديد من المبانى والمنشآت، وبنى مسعى من طابقين، بطول ٣٩٤.٥متر وعرض ٢٠ متراً، بالاضافة إلى حاجز لمنع تدافع الحجاج، كما بنى للمسجد طابق ثانٍ، وأصبحت مساحته حوالى ١٩٣ ألف متر مربع، بعد أن كانت لا تتجاوز ٢٩ الف متر مربع، أما التوسعة الثانية فكانت فى عهد الملك فهد بن عبدالعزيز حيث اضاف إلى مساحته الكلية ٧٦ ألف متر مربع، مما جعل طاقته الاستيعابية تصل إلى مليون مصلٍّ. (المترجم)

(١١) ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ (الحج ٢٦). (المترجم)

(١٢) يستحب ترديد ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) «اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة، وزد من شرفه وكرمه ممن حج أو اعتمر تشريف وتعظيما ومهابة». (المترجم)



تعزز المحلات والورش المنتشرة فى المراكز السياحية مثل بلدة " القرنة " مكانة مالكيها من الحجاج، عن طريق الرسومات التى تزين واجهاتها، وتدل على نوع العمل التجارى الذى يمارسونه. كما تشير تذكاريات صور رحلة الحج إلى قيامهم بالرحلة المقدسة إلى مكة. فى الصورة التى إلى اليسار يلاحظ أن اسم المحل واسم صاحبه مكتوبان بالحروف العربية إلى جانب الحروف اللاتينية. وإذا دققنا النظر فسنلاحظ أن الفنان أحمد الطيب مزج بفاعلية بين العناصر التجارية والرسوم التى تعكس مظاهر الاحتفال بعودة الحاج إلى بيته ؛ عازف الموسيقى فى ملابسه ذات الألوان الزاهية يعرض فنه الذى يرقص عليه رجلان بحيوية رقصة العصا التقليدية. وتعترض الحركة شابة متمهلة تحمل فوق رأسها جرة بها ماء. بينما فارس من العربان يمتطى صهوة جواد يتراقص بأرجله. أما مدخل البيت والحائط الذى إلى يمينه فتغلب على رسوماتهما وحدات فرعونية استمدت عبقريتها من الرسومات التى تزين المعبد الذى يقع على مبعدة عدة أميال من المكان نفسه.


انا فتحنا لك
محمد احمد حسن عمار
ALABASTAR

بعد عودة إقليم الحجاز إلى طبيعته إثر انقضاء شعائر الحج، تظل كسوة الكعبة الجديدة فى مكانها حتى حلول موعد الحج التالى، وذلك بهدف توفير الحماية للبناء المقدس ضد عوامل الطبيعة.

وإلى جانب فريضة الحج، يؤدى المسلمون أيضا ما يطلقون عليه " العُمرة " والتى هى زيارة فقط إلى مكة المكرمة (والمسجد الحرام) دون الوقوف بجبل عرفات، وهذه يمكن القيام بها فى أى وقت على مدار العام.

المحمـــــــل

تضاعف الاهتمام بكسوة الكعبة عبر زمن بعيد ساحق هيمنت عليه قناعة صوفية، جمعت بين المعتقدات الدينية والعوامل السياسية. وحتى أوائل القرن العشرين كانت الكسوة تصنع - كما جرت العادة - فى مصر[١٣] وترسل كل عام إلى مكة على ظهر قافلة من الجمال تُحمل معها أغراضًا كثيرة، كانت هذه الرحلة تمثل بالنسبة للمصريين مكانة عالية لا يشاركهم فيها أحد.

المحمل الأسطورة، كما كان يطلق على الجمل الصغير المزدان بالألوان الزاهية، الذى يحمل جزءًا من الكسوة مصحوبة بنسخة من القرآن الكريم، كان يوفر عددًا من المشاهد العاطفية غير الاعتيادية، خاصة وهو يقود الموكب الحلزونى فوق رمال الصحراء الملتهبة. وبسبب قطاع الطرق والمغتصبين من رجال القبائل المتربصين آنذاك بقوافل الجمال وبكل من يعبر أراضيهم لكى يجردوهم من أغلى ما معهم قبل أن يواصلوا سفرهم إلى وجهتهم الأصلية، كان يُصاحب المحمل عدد من الجند المسلحين لتوفير الحماية لقافلة المحمل حتى يصل أفرادها إلى مكة المكرمة بسلام.

وعندما يتقدم الجمل المزركش بالأغطية الوضاءة تحيط به ثُلّة من الجند بملابسهم الرسمية نحو المدينة المقدسة وهم يسيرون باعتزاز يعكس الأبهة اللافتة للنظر والاهتمام، كانت أبصار كل من فى مكة تنجذب إليهم بينما تصدح الموسيقى وتنطلق الرقصات الشعبية، ويزداد الضجيج المحبب إلى النفس كلما واصلت القافلة تقدمها إلى المكان المخصص لإقامة أفرادها.

ظل الوضع على هذه الصفة حتى عام ١٩٢٦ عندما اندلع جدل عظيم حول مشروعية دخول المحمل إلى المدينة المقدسة وسط حراسة مسلحة !! وتطور النقاش إلى عنف راح ضحيته عدة أشخاص. لذلك كان من الطبيعى أن يصدر مرسوم ملكى سعودى بأن تتم صناعة كسوة الكعبة فى مدينة مكة نفسها.

ومنذ هذا التاريخ صار النساجون السعوديون، من خلال مصانعهم التى بدأت المملكة فى تشييدها عام ١٩٢٧، هم المسئولون عن نسج كسوة جديدة للكعبة الشريفة كل عام. الكسوة السنوية التى يبلغ عرضها ٤٠ قدمًا وطولها ١٣٠ قدمًا، تحتاج لملايين الأمتار من خيوط الحرير والكتان والقطن لنسج قماشها وملايين الأمتار من الخيوط الذهبية والفضية لكتابة الآيات القرآنية التى تزين حوافها العلوية[١٤].

مشهد المحمل بأغطيته المزركشة وإن كان قد اختفى تمامًا من الحياة عمليا، فإنه لا يزال يصور ضمن الرسومات التى تزين حوائط الحجاج المصريين. الملاحظ أن الفنان الشعبى المصرى يرسم الجمل العربى مرحًا نابضًا بالحياة ضمن قافلة غالبًا ما تكون فى طريقها إلى مكة المكرمة.

الحجر الأسود

يبدأ الطواف حول الكعبة فى شعيرة لا بد من القيام بها، بأن يقوم الحاج بتقبيل الحجر الأسود المطمور بإحكام داخل كتلة من الفضة فى زاوية الركن الجنوبى الشرقى لصرح الكعبة، أو بلمسة أو بإشارة من يده تحمل معنى التحية إذا تعذر عليه الاقتراب منه بغرض التقبيل على سبيل التوقير. الاعتقاد الذى كان سائدًا قبل الإسلام أن هذا الحجر جزء من نيزك أو شهاب سقط من السماء، لهذا السبب ألّهته بعض القبائل العربية.

---

(١٣) بدأت عادة إرسال «الصرة» إلى الحرمين الشرفيين فى عهد الخليفة العباسى المقتدر (٩٠٨ - ٩٢٣م)، وقلده الخلفاء العثمانيون، وهم الذين أطلقوا على موكب الصرة تسمية «المحمل»، حيث أضيفت إلى مسئولياته حمل الكسوة الشريفة ونقلها إلي مكة المكرمة. ثم انتقل هذا التقليد إلى الشام ومنها إلى مصر التي منحته زخما فائقا، حيث كان يشارك فى مسيرته من ميدان القلعة إلى ما قبل انطلاقه ناحية الحجاز أرباب الطوائف والطرق الصوفية والحرفيون يتقدمهم جند من الجيش ومن الشرطة، تحيط بهم الموسيقى والأنغام. (المترجم)

(١٤) تبلغ تكلفة صنع الكسوة وفق بيانات السعودية حوالى ١٧ مليون ريال سعودى، أى ما يوازى ٥.٤ مليون دولار أمريكى تقريباً (سنة ٢٠٠٦م). (المترجم)

وهناك اعتقاد آخر أن الملاك جبريل أتى به من جبل قريب وكان لونه أبيض، ويرى البعض أن تغير لونه إلى الأسود يرجع إلى ذنوب البشر!!. لذلك افترض الكثيرون منذ زمن سحيق أنه يمتلك خواص خارقة للعادة. وعندما طهر الرسول (عليه الصلاة والسلام) الكعبة الشريفة بعد فتح مكة[١٥] من مئات الأصنام التى كانت داخلها وحولها، أبقى بحكمته على الحجر الأسود الذى أصبح فيما بعد حجر الزاوية فى العقيدة الإسلامية. لذلك يُعد نجاح الحاج فى الاقتراب منه وسط الحشود الهائلة من البشر، من الإنجازات التى تحسب له.

عندما يصل الحاج خصوصًا فى موسم الحج إلى نقطة يتعامد فيها مع موقع الحجر الأسود يبدأ فى الطواف سبعة أشواط حول بناء الكعبة المشرفة، متعمدًا الهدوء وهو يقوم بالأشواط الثلاثة الأولى ثم يزيد من نشاطه وحيويته وهو ينجز الأربعة الأخيرة[١٦]، وعليه بجانب ترديد بعض الأدعية أن يتلو آيات من القرآن الكريم.

أثناء الطواف يمتلئ الأثير حول مكة بطنين هادر تعكسه توسلات الآلاف المؤلفة من الحجيج الذين يتضرعون إلى الله مرددين " لبيك اللهم لبيك "[١٧] وكأنها نابعة من صوت واحد تصدره الكتل البشرية المتلاحمة التى تجرفها موجات الطائفين حول الكعبة.

يكلف الحاج بأداء شعيرة الطواف حول الكعبة ثلاث مرات: المرة الأولى تسمى " طواف القدوم "، ويقوم بها الحاج فور وصوله إلى مكة قادمًا من بلده، والثانية بعد وقوفه فوق جبل عرفات وتسمى " طواف الإفاضة "، والثالثة تسمى " طواف الوداع "، بغرض تقديم التحية قبل عودة الحاج إلى الديار التى أتى منها.

شعيرة السعى وبئر زمزم

بعد أن يُتم الحجاج طوافهم حول الكعبة عليهم أداء شعيرة السعى التى تتطلب منهم الجرى الخفيف بين نتوءين صخريين يطلق عليهما " الصفا والمروة "[١٨]، محاكاة للسيدة هاجر عندما كانت تبحث ملتاعةً جيئةً وذهابًا عن مصدر للماء يطفئ ظمأ ابنها إسماعيل. ويقال إن ملكًا هبط من السماء أرشد الأم المضطربة إلى نبع ماء سمى فيما بعد " بئر زمزم ".

هذا المكان بين النتوءين، والذى لا تزيد المسافة بينهما على ٢٥٠ مترًا تقريبًا، والذى كان على أيام السيدة هاجر صحراء حارقة، أصبح اليوم مسيجًا يعلوه سقف مرتفع يسمح بمرور موجات الهواء والبارد تباعًا. حتى الرمال التى كانت تجرى فوقها تحولت إلى ممر غطيت أرضيته بالرخام.

يذهب الحاج بعد الانتهاء من شعيرة السعى إلى بئر زمزم التى تقع الآن ضمن باحة الكعبة المشرفة لكى يشرب من مائها الذى لا يزال مُبجلا[١٩] منذ أن أذن الله له أن ينفجر لينقذ حياة السيدة هاجر وابنها فى هذه البادية المجدبة.

محاكاة الحجاج عاطفيا وجسمانيا لحادثة هاجر وابنها إسماعيل تجعلهم يطفئون ظمأهم بشرب ماء زمزم المقدس، ويحمل بعض منه عند العودة إلى ديارهم هدية للأصدقاء.

إلى جانب النبع الأصلى لبئر زمزم هناك خزانات صغيرة للمياه منتشرة فى كل مكان داخل المسجد، يتم ملؤها بهذا الماء طوال الوقت لتلبية حاجة الحجاج والمصلين، وتعد هذه الخزانات واحدة من الوسائل الكثيرة التى توفر هذا الماء النابع من البئر المقدسة لكل من يريد أن يتزود منه.

يحكى التراث الإسلامى أنه فى موقع بالقرب من بئر زمزم قام سيدنا إبراهيم يساعده ولده إسماعيل ببناء صرح للعبادة، أتاح للقبائل العربية المتجولة أن تتجمع عنده مرة أو مرات على مدار العام، وكان ذلك أول بيت لله، قام محمد رسول الله (عليه الصلاة والسلام)، بعد ذلك بفترة طويلة، بتطهيره من الأوثان وجعله كعبة المسلمين المقدسة.

المهم أن نبع الماء الذى روى عطش الطفل إسماعيل، جذب بعض القبائل العربية للمكان، وسرعان ما استقر بعضها حوله[٢٠]، ولما تكاثر عددهم ظهرت إلى الوجود مدينة مكة.

ولد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بمكة نحو عام ٥٧٠ ميلادية وتلقى أول رسالة من السماء وهو مقيم فيها، لذلك كان من الطبيعى أن تتحول هذه المدينة بعد بضع سنوات لتصبح المركز الروحى للدين الإسلامى. أما فى بداية الدعوة الإسلامية، فعندما سمع أهلها بدعوته (عليه الصلاة والسلام) إلى التوحيد ونبذ الإشراك بالله، هددوه بالقتل ثم أجبروه على الهجرة منها إلى المدينة التى تعتبر ثانى المدن المقدسة عند المسلمين، والتى عاد منها الرسول وحوله المسلمون الذين دخلوا فى دين الله أفواجًا لكى يفتح مكة قبل وفاته عام ٦٣٢ ميلادية.

---

(١٥) فتح مكة تحقق فى السنة الثامنة من الهجرة، بعد نحو عشرين عامًا من بداية الدعوة الإسلامية. (المترجم)

(١٦) سنة الطواف أن يكون أكثر نشاطًا وحيويةً فى الأشواط الثلاثة الأولى.

(١٧) نص التلبية كاملاً: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، أن الحمد والنعمة لك والملك، لاشريك لك». (المترجم)

(١٨) ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو أعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ (البقرة /١٥٨). (المترجم)

(١٩) تقع البئر شرقى الكعبة المشرفة، محاذية للملتزم، وتقول كتب السيرة إن السيدة هاجر ظلت تواصل السعى اللاهث حتى إذا عادت بعد الشوط السابع وجدت الماء ينبثق من تحت قدم وليدها، وخشية ضياع الماء كانت تقول «زمى... زمى» أى انحصرى. وربما جاءت من هنا تسمية البئر باسم «زمزم». (المترجم)

(٢٠) كانت أشهر هذه القبائل جرهم التي يقال إنها شاركت فى تعمير هذه المنطقة. (المترجم)

يوم الوقوف بعرفات

بعد أداء الحجاج لطواف القدوم وغيره من الشعائر الواجبة بمكة، يذهبون فى جماعات إلى جبل عرفات، تنقلهم سيارات النقل الجماعى والسيارات الخاصة يوم الثامن من شهر ذى الحجة[٢١]، حيث تقع مدينة الخيام التى أقيمت بنظام محدد فوق الجبل وفى باحة مزدلفة، بهدف توفير الراحة والملاذ المؤقت للآلاف المؤلفة من الحجاج الذين سيقضون ليلتهم فى الراحة والتعبد. ولكى تتوافر المساحات اللازمة لإقامة هذا السيل المتدفق من الحجاج، يتحول الجبل بكامله إلى بحر من الخيام البيضاء الممتدة فى كل اتجاه بلا نهاية[٢٢].

تتواصل رحلات نقل الحجاج إلى جبل عرفات طوال الليل وتمتد حتى صباح اليوم التالى، لأن القاعدة الشرعية تحتم على من عزموا الحج أن يكونوا واقفين فوق الجبل قبل انتصاف نهار يوم التاسع من شهر ذى الحجة [٢٣] والذى يسمى يوم الوقفة كما يحدده التقويم القمرى للمسلمين. يسترجع كل واحد من هذا الحشد من الحجاج الذين يصل عددهم إلى نحو مليونى حاج وقفته فوق جبل الرحمة الموقف الذى وقفه الرسول (عليه الصلاة والسلام) فى نفس المكان وهو يلقى على المسلمين آخر وصاياه فيما عرف بعد ذلك باسم." خطبة الوداع "[٢٤].

يقف الحجاج فى مقامهم هذا من منتصف النهار إلى غروب الشمس، الرجال حاسرو الرءوس بينما السيدات يقفن محتشمات، والكل يمدون أيديهم إلى السماء ضارعين متوسلين، وتحمل الأجواء المحيطة بهم ابتهالاتهم وصلواتهم وتلاواتهم لآيات القرآن الكريم إلى عنان السماء.

الوقوف بعرفات وما يحمله من آيات الورع هو قمة شعائر الحج، كما قال الرسول (عليه الصلاة والسلام)، حيث يصل الحاج إلى ذروة تجلياته الروحانية معاهداً الله على إخلاص النية ومؤكداً حقيقة إيمانه وفق مقتضيات الإسلام، لذلك يحرص كل حاج على هذه الشعيرة بالذات، لأنه إن لم يؤدها على وجهها الصحيح أو لم يتمكن من الوقوف بجبل عرفات. فكل ما قام به قبل ذلك لا يُعد حجًا لأنه لم يؤد الشعيرة الأساسية.

يستحق الحجاج فور إتمامهم لشعيرة الوقوف بعرفات عشية أول أيام عيد الأضحى، التسمية الشرفية التى تطلق على كل واحد منهم "حاج أو حاجة " بقية سنين عمرهم، على الرغم من أن التكليفات الدينية لم تنته بعد. ذلك لأن ما بقى من شعائر ليست مُلزمة بنفس الدرجة كالشعائر الأخرى التى ختمت بالوقوف فوق جبل الرحمة.

النفرة إلى مزدلفة

ما إن تغرب شمس يوم التاسع من ذى الحجة إيذانًا بانتهاء شعيرة الوقوف بجبل عرفات، حتى يسارع الحجاج المفعمون بالنشوة الإيمانية بالرحيل إلى مزدلفة[٢٥] التى تقع على مبعدة أربعة أميال من الجبل، تلك المسارعة التى سماها القرآن الكريم " الإفاضة "[٢٦] ويطلق عليها العامة " النفرة "، والتى هى فى حقيقة أمرها اتباع آخر لسنة المصطفى (عليه الصلاة والسلام). مرة أخرى يحتاج هذا الانطلاق المتسارع إلى جيش من مركبات النقل المتنوعة، وسرعان ما تتحول الأرض المنبسطة بين عرفات ومزدلفة إلى ساحة لعبور وسائل النقل الجماعى وسيارات الأجرة والمركبات الخاصة، تحاول كل منها أن تصل إلى مدينة الخيام بمزدلفة فى الوقت المناسب.

لذلك – وكما أشرنا من قبل – وعلى الرغم من الطرق العديدة التى شقتها باقتدار حكومة المملكة العربية السعودية.

المقصود بالكسوة ذلك الغطاء الهائل الضخم المصنوع من القماش الأسود المطرز بالآيات القرآنية المنسوجة من خيوط ذهبية. والذى يغطى بنيان الكعبة الشريفة. كان هذا الثوب يسافر ضمن قافلة من الإبل من مصر ترافقه قوة مسلحة لحمايته. ومنذ عام ١٩٢٦ وفى أعقاب جدل عنيف حول شرعية دخول القوات المسلحة المصرية إلى المدينة المقدسة. تم إيقاف هذه العادة النبيلة.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مصانع الكسوة الشريفة فى مكة نفسها تقوم بنسج كسوة جديدة كل عام.

فى الرسم الموجود على الصفحة المقابلة. صور الفنان عبد الرازق احتفالية موكب المحمل وهو فى طريقه إلى المسجد المكى. نرى الجمل العربى يحمل الكسوة المطرزة بخيوط ذهبية أو جزءا منها. وإلى جانبه تلمع الرايات عالية فى احتفال بهيج. وبينما يتقدم حامل الراية التى ترفرف عاليا ساحبا وراءه الجمل بنوع من الاعتداد بالنفس. نرى مجموعة من الفرسان تتبعه وهم يشهرون أسلحتهم. وعلى الرغم من المظهر العسكرى للرسم فإن النباتات. التى تنتشر بشكل سخى وتملأ المسافة بين العمود الذى يقع إلى يسار الرسم والشباك. تعطى إحساسا بالبهجة. وتؤكد أن الحملة ذات أهداف سلمية بحتة.

(٢١) يطلق عليه يوم التروية أو الخروج إلى منى استعدادا للوقوف على جبل عرفات فى اليوم التالى، ويقال إن هذه التسمية أطلقت إما بسبب اضطرار الحجاج إلى حمل ما يستطيعون من ماء قبل صعودهم إلى الجبل. أو لأنهم كانوا يروون ظمأ قرابينهم التى سيضحون بها. (المترجم)

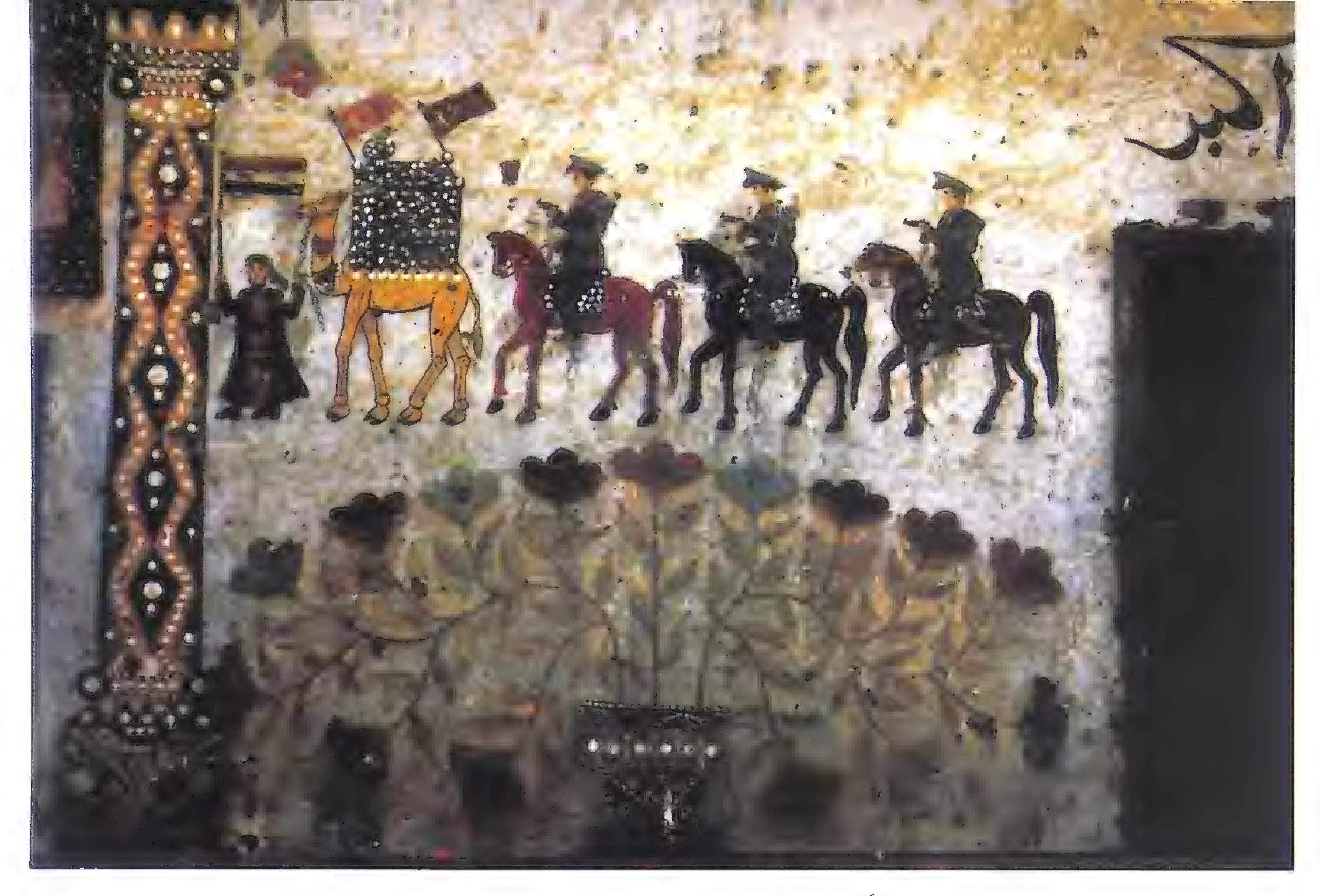
(٢٢) جبل الرحمة جزء من جبل عرفات، وهو عبارة عن قرن جبلى يمتد نحو وسط أرض الموقف بعرفات يبلغ ارتفاعه نحو ٣٣٥ مترا فوق سطح البحر، أما جبل عرفات فيصل ارتفاعه إلى حوالى ٧١ مترًا. وتقول الأساطير إن آدم وحواء تقابلا عنده بعد مائتى عام من طردهما من الجنة. (المترجم)

(٢٣) قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : «الحج عرفة». وقال (صلى الله عليه وسلم) فى وصف اليوم نفسه : «ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل الله تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا يباهى بأهل الأرض أهل السماء، يقول : انظروا إلى عبادى جاءونى شعثا غبرًا ضاحين، جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتى ولم يروا عذابى. فلم ير يوم أكثر عتقا من النار كيوم عرفة». (المترجم)

(٢٤) خروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) للحج فى السنة العاشرة من الهجرة على رأس نحو تسعين ألفاً من المسلمين، ومن فوق جبل عرفات خطب فيهم، وكان مما قاله (صلى الله عليه وسلم): أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم. فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. (المترجم)

(٢٥) مزدلفة واد يقع بين منى وعرفات، حيث مدينة الحجاج، وكلها تقع إلى جهة الشرق من مكة المكرمة. (المترجم)

(٢٦) ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم﴾ (البقرة/ ١٩٨). (المترجم)



فكثيرًا ما تحدث اختناقات مرورية كالتى شهدتها المنطقة عام ١٩٨٦ حيث احتاج رجال المرور السعوديون إلى نحو ٢٠ ساعة لإعادة النظام إلى ما يجب أن يكون عليه. وعندما تصل الموجات المتتالية من الحجاج إلى خيامهم فى مزدلفة، يقضى الجميع ليلتهم فى راحة وتأمل وشكر لما أسبغه الله عليهم من خير وفضل، ويؤدون صلاتهم فى مسجد نمرة[٢٧] وما حوله، وفى نفس الوقت يقومون بجمع الحصى الذى سيرجمون به النصب الثلاثة "الجمرات" فى منى القريبة من المكان، والتى تمثل الشيطان أو إبليس.

رمى الجمرات بمنى

هذه الشعيرة العاطفية التى تتشكل من عدة خطوات متتالية، لتعبر عن رفض الإنسان للغواية، وترمز لصراع الحياة بين البشر والشيطان، حيث يقوم الحاج برمى النصب التى ترمز إلى إبليس بـ ٤٩ حصاة[٢٨] على دفعات تمتد إلى ثلاثة أيام بعد يوم وقوفهم بجبل عرفات. ويجب على الحاج أن يرفع دعواته لله فى كل مرة يرمى فيها حصاة على واحد من النصب، وعلى الرغم من الترتيبات التى تسعى عن طريقها السلطات السعودية للحد من مظاهر الازدحام والتلاحم بين الحجاج عند منطقة الجمرات فى منى، فإن الأعداد المتزايدة من الوافدين منهم إلى المكان فى توقيتات محددة غالبًا ما تُخرج الموقف عن دائرة السيطرة، لأن حالة الإثارة التى تتولد عند قيام الحجاج بأداء هذه الشعيرة تعكس رغبتهم القوية فى قطع كل صلة لهم بالشر وتعبر عن استعداد أقوى لفتح صفحة جديدة مع الله.

---

(٢٧) مسجد نمرة يلاصق عرفات، وهو الذى يصلى فيه الظهر والعصر يوم عرفة، أما هذا الذى فى مزدلفة فهو المشعر الحرام، وهو الذى يجمعون الحصى مما حوله.

(٢٨) عدد الحصوات التى يرميها الحاج إما ٤٩ حصاة للمتعجل وإما ٧٠ حصاة للمتأخر. ﴿فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ (البقرة /٢٠٣)



يبدأ النسيم العليل، فى وقت متأخر من بعد ظهيرة أيام الصيف، فى مداعبة شواشى النخيل الشاهقة على امتداد نهر النيل. هذا الطقس الذى يستمر حتى هبوط الليل ينفذ من كل جهة حاملاً معه النسائم التى تنشرها تموجات سعف النخيل الهائمة فى شرود يمنح الانتعاش أينما حل.

من بين الظلال ونقاط الضوء المنتشرة عند جذوع الأشجار والمزروعات الناضجة، يجذب نظر المسافرين لمحات من قصة خيالية تشكلها الرسومات التى تزين واجهات منازل الفلاحين المبنية بالطوب النيئ.

إنه لأمر محير!! كيف يتسنى لهذه الرسومات أن تتكامل مع بعضها البعض فى عين من تجذب انتباهه إليها، على الرغم من العوائق التى تقف فى طريقها كأكوام الأسمدة وتلال الحطب والزراعات المخالفة للقانون والشجيرات القصيرة ومجموعات أشجار الموز العشوائية ؟

العديد من مبدعى رسومات الحج من المصريين علموا أنفسهم بأنفسهم من الألف إلى الياء، دون أن يكون لهم سابق معرفة بعالم الفن ونظرياته !! وهذا ربما يفسر الرؤية العامة المشتركة التى تمنحهم حرية ملء أية فراغات فى لوحاتهم برسومات تأتى طفولية ساذجة فى بعض الأحيان، حيث نلاحظ انتشار مختلف رموز الحج المصورة فوق الكثير من حوائط البيوت الخارجية، التى تحملها بشكل عفوى النقوش التى تعبر عن حركة الحياة اليومية. أما المستوى المادى لساكن البيت الذى وفر له أسباب السفر إلى مكة، فيعكسه بناؤه للدور الثانى وقربه من أسلاك الكهرباء التى استفاد منها بكل تأكيد. ولا يهم هنا التضاد البادى فى الصورة بين الفلاح الذى يركب الدابة وسيارة النقل حديثة الطراز.



وليمة عيد الأضحية

اليوم الثالث من أيام الحج وهو اليوم العاشر من شهر ذى الحجة، يخصص لاحتفال الأضحية[٢٩]. تلك الشعيرة التى تعود جذورها إلى أيام سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام)[٣٠] والتى يجرى الاحتفال بها فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فى نفس الوقت كل عام، فعندما يهل أول أيام عيد الأضحى يتجمع أفراد العائلة وأصدقاؤهم فى بيت كبير العائلة، للمشاركة فى الترويح عن أنفسهم وتبادل الهدايا، وأيضا لأداء صلاة العيد المقررة فى هذا اليوم فى المساجد القريبة.

فى هذا اليوم يُفترض أن يقوم رب كل أسرة مسلمة فى جميع أنحاء العالم بذبح أى نوع من الحيوانات أو الطيور بشرط أن لا يكون به عيب، وفى الغالب يقع الاختيار على خروف أو شاة، لكن القاعدة الشرعية توسع من هذا التكليف حيث يمكن لجماعة من المسلمين الميسورين أن يذبحوا جملاً، ويمكن لمحدود الدخل أن يذبح دجاجة، الأمر كله يرتبط بقدرات الأسرة المالية.

لهذا السبب تستورد المملكة العربية السعودية أعداداً هائلة من هذه الحيوانات خصيصا لهذا الغرض، كما تُوفر أعداد الجزارين الذين يتولون عملية الذبح لمن لا يرغبون فى القيام بها بأنفسهم. فى نفس الوقت يمكن التبرع بثمن الأضحية لواحدة من الجمعيات الخيرية، بدلاً من القيام بذبحها.

فى سالف الأيام كان الحاج يقوم بتجفيف جزء من الأضحية فى الشمس لكى يصطحبه معه فى رحلة العودة بعد أن يوزع الجزء الأكبر منه على الفقراء، أما فى الوقت الراهن وبعد التزايد الهائل فى أعداد الحجاج، فقد أصبح من مسئولية الحكومة السعودية أن تتعامل مع لحوم الأضاحى التى يخلفها الحجاج وراء هم، لذلك أقيمت الثلاجات الكبيرة لحفظ تلال اللحوم الفائضة بهدف تجميدها استعداداً لإرسالها فيما بعد إلى المجتمعات الإسلامية الفقيرة حول العالم أو تقديمها مشاركة فى نجدة وإغاثة المجتمعات التى تتعرض لكوارث طبيعية.

المدينـــــة المنورة

زيارة المدينة المنورة التى تبعد مائتى ميل شمال مكة ليست شعيرة مُلزمة من شعائر الحج، وعلى الرغم من ذلك يحرص معظم حجاج بيت الله الحرام على أن يرتبوا سفرهم إليها ضمن برنامجهم، سواء تحقق لهم ذلك قبل أداء الفريضة أو بعدها، وفق الترتيبات التى تضعها وزارة الحج السعودية ؛ إذ لا بد فى ظل تزايد أعداد الراغبين فى زيارة مسجد الرسول (عليه الصلاة و السلام) وغيره من الأماكن التى يوقرها المسلمون، من الإعداد الجيد لهذه الرحلة، مثلها فى ذلك مثل غيرها من الأنشطة التى يتضمنها برنامج أداء فريضة الحج، وبينما يطلب من الحجاج العاديين، أن يحدد كل منهم زمن رغبته فى زيارة المدينة، تستثنى السلطات السعودية الوفود الرسمية من هذا التحديد بأن تمنحهم تصاريح سفر تحقق لهم حرية التنقل دون التقيد بتوقيتات السفر بين مكة والمدينة المنورة.

زوار المدينة المنورة لا يُطلب منهم ارتداء ملابس الإحرام، حيث المناخ العام يبتعد عن التوتر ويدعو للتأمل والاغتباط. فهناك العديد مما يمكن القيام به ومشاهدته فى هذه المدينة التاريخية، وفى حين يتخلص الرجال من ملابس الإحرام ويعودون إلى ارتداء ملابسهم التقليدية، تميل أغلب النسوة إلى مواصلة ارتداء الملابس التى كن يرتدينها أيام الحج، لأنها فى معظم الأحيان تماثل ثيابهن العادية.

---

(٢٩) ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ (الحج / ٣٦). (المترجم)

(٣٠) انظر الآيات من ١٠٢ إلى ١٠٧ من سورة الصافات. (المترجم)

روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "من حج ولم يزرنى فقد جفانى". لهذا السبب أضحى من أهم معالم السفر إلى المدينة المنورة زيارة مسجد الرسول (عليه السلام) حيث يرقد جثمانه الطاهر فى البقعة التى يطلق عليها "روضة الجنة" أو "الروضة الشريفة". بالقرب من قبره (عليه السلام) يوجد قبر ابنته الغالية فاطمة وقبر صاحبيه أبى بكر الصديق خليفة المسلمين الأول وعمر بن الخطاب ثانى هؤلاء الخلفاء، وبينما لا يصرح للمسلمين بالصلاة أو الانبطاح عند قبر الرسول (عليه السلام)، يسمح لهم بالصلاة فى أى مكان آخر بالمسجد وبالروضة الشريفة[٣١].

المدينة المنورة جنة المشترين، محلاتها ودكاكينها ممتلئة بوفرة من البضائع ذات أسعار قابلة للمساومة، تتنوع بين أدوات كهربائية معفاة من الجمارك وأجهزة تليفزيون وراديو وساعات وروائح عطرية ومجوهرات وكتب وحقائب سفر وملابس رجالية حديثة، بالإضافة إلى سجاجيد الصلاة ونسخ من القرآن الكريم من كل الأحجام، من المنمنمات إلى المجلدات فاخرة التجليد، وصور الكعبة وغيرها من أنواع الهدايا التى تناسب تذكارات الرحلة المقدسة التى يمكن أن يقدمها الحاج هدايا عندما يرجع إلى بيته ويستقبله أهله وأصدقاؤه.

فيما بين أوقات الصلاة بالمسجد النبوى يقوم الحجاج أثناء تجوالهم لزيارة معالم المدينة المنورة بغزو المحلات التجارية لإشباع رغبتهم فى شراء الهدايا التى سيصطحبونها معهم عند عودتهم إلى ديارهم، لذلك دائما ما تمتلئ حقائب الحجاج العائدين بالهدايا التى قاموا بشرائها لتقديمها لذويهم وأصدقائهم.

من المستحب أن يقضى الحاج ثمانية أيام بالمدينة حتى يتاح له أداء أربعين صلاة فى المسجد النبوى، تعد نوعًا من المبايعة للرسول (عليه الصلاة والسلام). لكن ليس فى مقدور كل زائر أن يفعل ذلك، فبينما يستطيع المحظوظون من الحجاج أن يطيلوا فترة إقامتهم بالمدينة تضطر الغالبية منهم للعودة من حيث أتوا بعد قضاء يوم أو يومين بالمدينة.

يرتدى الحجاج ملابس الإحرام للمرة الأخيرة قبل مغادرتهم المملكة العربية السعودية، لأجل القيام بتحية الكعبة، وذلك بأداء طواف الوداع الذى يتطلب منهم الطواف حولها سبع مرات لآخر مرة قبل العودة إلى ديارهم، وبذلك يكون الحاج قد أتم شعائر الحج، وعند هذه المرحلة يشعرون بأنهم قد تطهروا روحيا وجددوا عهدهم مع الله وأصبحوا مستعدين لبدء حياة جديدة.

يعود الحجاج المصريون إلى ديارهم بنفس الطريقة التى أتوا بها إلى المملكة العربية السعودية مسترجعين خطوات ذهابهم بروح إيمانية عالية. الحافلات التى يسافرون عليها، ترفرف حولها رايات بيضاء تعلن عن عودة ميمونة لحاج، تمتلئ عن آخرها بلفافات الهدايا والمتعلقات الشخصية. رحلة العودة للبيت تُعد نوعًا من الفرحة الدافئة، حيث ينعم الحاج بسيل من التهانى حين يجذب موكبه انتباه الناس على طول الطريق، فيرفعون له أيديهم بتحية أخوية محببة إلى النفس.

رسـومات الحـج

تُعد رسومات الجداريات المتعلقة بالدين وتلك التى تصور رموز الحج فوق واجهات بيوت العائدين من هذه الرحلة المقدسة من الإبداعات الحديثة إلى حد ما، فلا يستطيع أحد أن يحدد بالضبط متى ولا من أين أتى هذا العرف لأول مرة. لكن من المؤكد أن أحدهم أعجبته الفكرة فعمل على تطويرها ومن ثم تحولت إلى فن شعبى مزدهر، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك بعض الآراء التى ترى أن هذا الفن غير المعتاد قد حفز عليه الأتراك إبان وقوع مصر تحت حكم إمبراطوريتهم العثمانية[٣٢]. يقابلها وجهة نظر تاريخية ترجح أن تزيين بيوت مصر بالرسومات فن تمتد جذوره فى حلقات تاريخها الممتدة إلى ما قبل التاريخ.

---

(٣١) شهد المسجد النبوى عدة توسعات، آخرها التى قام بها الملك فهد بن عبدالعزيز عام ١٩٨٥م حيث أصبح يتسع لنحو مليون مصلٍّ فى وقت واحد. (المترجم)

(٣٢) بعد انتصار السلطان سليم الأول العثمانى على السلطان الغورى فى مرج دابق ١٥١٧ دخل دمشق ودعى له على المنابر، ثم سار إلى مصر، وانتصر على بقية القوات التى كانت بقيادة طومان باى فى غزة ثم فى الريدانية. وبذلك دخلت مصر فى حكم العثمانين حتى سقوط الخلافة العثمانية فى نوفمبر عام ١٩٢٣ على يد الزعيم كمال آتاتورك. (المترجم)

في البداية كانت هناك رسومات الكهوف ونقوش الصخور والعديد من الأدلة الأثرية التي تشير إلى بعض الرسوم الدينية المتقنة، والتي وجدت فوق واجهات عدد محدود للغاية من التراث المعماري الفرعوني، أما خلال فترة حكم الممالك المصرية المبكرة فقد امتازت المقابر الملكية بغزارة الرسومات الداخلية التي تزينها بالأشكال الهيروغليفية وبالمناظر التي تعبر عن الحياة اليومية. إلى جانب ذلك حرص النوبيون من سكان جنوب الوادي منذ القدم على زخرفة بيوتهم بصور الزهور البرية والأشكال الهندسية.

مصر القديمة والحديثة تشتهر بفنها المتميز، ورسومات الحج التي نراها حولنا اليوم تحمل في طياتها مؤشرات ودلائل هذه الشهرة، ومن المدهش أن إعادة نسخ فنون المقابر الفرعونية التي انتشرت على نطاق واسع في كل أنحاء مصر عبر الصور المطبوعة على البطاقات البريدية وعلى مغلفات كتيبات أدلة السائحين الفخمة المزخرفة، ومؤخراً على ورق البردي، كان لها تأثير مباشر وغير مباشر على رسومات الحج. يضاف إلى ذلك أن قيام التلفزيون المصري بتغطية مراسم الحج من مكة والمشاعر المقدسة الأخرى لعدة ساعات يوميا طوال فترة الحج، ساعد على جعل صورة الكعبة المشرفة ومظاهر مناسك أداء الفريضة الأخرى، أمرا مألوفًا وملموسًا لدى الكافة.

يؤكد كبار السن من المصريين أنهم شاهدوا رسومات الحج التي تزين البيوت في مقتبل عمرهم، ويرون أنها تكاثرت منذ ذلك الحين بشكل كبير، وفي هذا الخصوص تميل المراجع غير الموثقة مثل سجلات السفر خلال القرن التاسع عشر وكتب الصور الوصفية ودفاتر الرسم وصور المناسبات، إلى القول بأن رسومات الحج كانت شائعة في السنوات الأخيرة من القرن المذكور ولكن ليس بنفس المستوى الذي هي عليه اليوم. بعض كتيبات أدلة السائحين الحديثة تتخذ من رسومات الحج علامة مميزة لها دون أن تدرك أو تفهم المغزى من ورائها، حيث غالبًا ما يشار إليها باعتبارها " خربشة " جدارية أو رسومات " صبيانية " غير متقنة تعكس فنًا شعبيا فطريا.

في البداية اقتصرت رسومات الحج على نقوش بسيطة لا تتعدى اسم الحاج وتاريخ أدائه للفريضة، وفي بعض الأحيان كان الرسام يضيف آيات قرآنية مناسبة يخطها بأحرف كبيرة في مساحة خالية من أية رسومات فوق واجهة البيت، وهذا كان يكفي في حد ذاته لإعلام العامة أن " حاجًا " يسكن هذه البناية، ومن المحتمل أن يكون بعض أفراد أسرة واحد من الحجاج المجهولين قد أضاف أول رسم بدائي إلى الزخرفة السطحية بقصد الإشارة إلى رحلة مكة المقدسة، باعتبار أن الصور توفر المعلومات لمن لا يستطيع قراءة النقوش المكتوبة. لذلك يرى البعض أن إضافة الصور الزيتية لرسومات الحج بغرض تعزيز فكرة السفر إلى مكة، تمثل البداية الجادة لفن رسومات الحج، لذلك يقولون إن تزايد الرسومات بهذه الكيفية أسهم في انتشارها حتى أصبح من غير المعتاد أن نرى مجموعة من البيوت في أية قرية تقف جرداء بمفردها دون أن تغطي رسومات الحج واجهة واحدة أو أكثر منها.

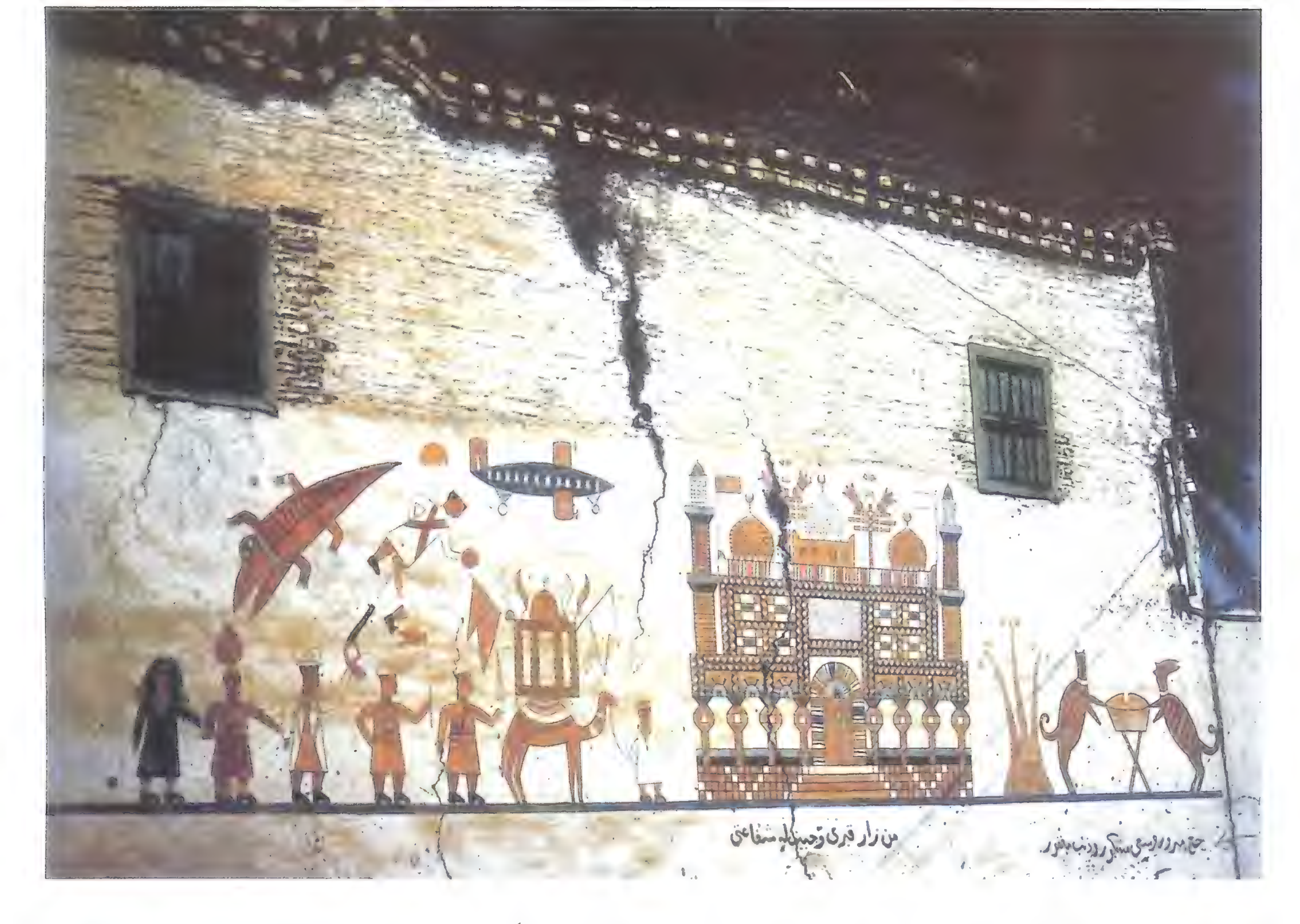
من اللافت للنظر أن أفضل جداريات رسومات الحج المبهرة، والتي ترجع إلى سنوات السبعينيات (من القرن العشرين) وتوجد بجوار مدينة الأقصر. نفذت ويا للدهشة إزاء الأسلوب الذي يتميز به الفنان السويسري الشهير بول كلي الذي يحظى بمكانة عالمية متميزة، كانت كثيرا ما تدفعه للتفاخر بما تخطه ريشته على الرغم من غرابة أطواره الابداعية المتعارضة مع الحقائق[٣٣].

في يقيننا أن الفنان الذي أبدع هذه الصورة التي إلى يسار هذا الكلام، لابد أن يكون هو أيضا فخورا بنفسه. أولا بعد أن أنجز صورة مسجد وقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذه الكيفية وعلى هذه الدرجة من الحساسية والإبداع، وثانيا بتصميم لوحة الموكب المسافر إلى مكة مرافقا لمحمل كسوة الكعبة الشريفة، والتي شوهها التصدع الذي لحق بواجهة المبنى من أعلاه مؤثرا بشكل سلبي على واحدة من إبداعات رسومات الحج المبهرة.

صورة التمساح الذي يظهر في الصورة وكأنه منقول بالجو، يبدو أنها رسمت للإيحاء بأنه من الزواحف الحقيقية التي كانت تحنط وتعلق فوق مداخل بنايات يؤمن أصحابها بالخرافات التي يقال إنها قادرة على طرد الشياطين عنهم. أما الرسم الساذج للطائرة منتفخة البطن التي لا يمكنها تصميمها بهذه الكيفية من الطيران فيأتي متناسقا مع المظلي الذي تركها هابطا إلى الأرض لكي تتلقاه رصاصات واحد من المرافقين للمحمل الشريف!!

أما الأسطر المكتوبة باللغة العربية فتتمنى إحداها للحاج "حجا مبرورا، وسعيا مشكورا، وذنبا مغفورا" وتذكر الأخرى المارين بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): "من زار قبري وجبت له شفاعتي".

(٣٣) فنان سويسري (١٨٧٩ - ١٩٤٠) ولد لأب ألماني كان مدرسًا للموسيقى في مدينة ميونيخ، تعلم في صغره الفن والموسيقى، ثم مال في شبابه إلى الفن، واتجه إلى دراسته في أكاديمية ميونيخ. زار دولاً كثيرة منها مصر عام ١٩٢٨ استخدام الألوان المائية وألوان الزيت والحبر، وله أعمال كثيرة في عدد من المتاحف العالمية. (المترجم)



فى نهاية المطاف لا بد أن نعترف أن الفنان يقوم بتصميم لوحات رسومات الحج، لكى تلعب دورًا ضمن احتفالات عائلة " الحاج " بعودته سالمًا، لذلك أصبح أمرًا ضروريا، عندما تبدأ موهبة الفنان فى التفتح، أن يشبع الصور التى يستوحيها بالكثير من الخيال والعديد من التفاصيل التى غالبًا ما تزدهر فى ضوء مهارات وإبداعات كل فنان على حدة. لذلك نقول عن ثقة إن هذا الفن تطور ككل الحركات الفنية الأخرى مستفيدًا من الأعمال المتطورة التى سبقته، مما يؤكد قدرة الفنانين على المثابرة لتحقيق أفكارهم الخاصة القائمة على المنافسة.

فى بداية مرحلة التطور هذه، كانت رسومات الحج التى تنفذ فى المقام الأول احتفالاً بعودة الحجيج سريعة الزوال، لأنها لم تكن مصممة لكى تواصل البقاء وسط ظروف بيئية غير مواتية. هذه الهشاشة غير المقصودة بالإضافة إلى مواقع اللوحات النائية، تركت فرصة محدودة للغاية أمام " اللوحات " لكى تعمر وتبقى كما بقيت الأشكال الفنية التى تعد امتدادًا لها، وعلى الرغم من ذلك يمكن للمرء أن يضع يده، من ناحية، على حلقات تطور هذا الفن المتواصلة التى بدأت برسومات بدائية للكعبة الشريفة، وبلغت مؤخرًا مستوى مبهرًا من الصور التى أصبح الفنانون يحرصون على تنفيذها، وأن يتعرف، من ناحية ثانية، على الرمزية الرئيسية ذات اللون الواحد التى يعبر عنها، وأن يفهم، من ناحية ثالثة، مفردات رسومات الجداريات شديدة الإتقان التى تزين بيوت الحجاج فى أيامنا هذه.

قلة من مبدعى رسومات الحج يمكن اعتبارهم رسامين طوال الوقت، أما الأكثرية فلديهم أعمال منتظمة يقومون بها، لأن رسم الجداريات يعد بالنسبة لهم وسيلة لكسب مزيد من الدخل يقومون بها حرفة إضافية فى موسم الحج الذى يمتد فى المتوسط إلى ثلاثة أسابيع تكفى لسفر الحجاج من منافذ مصر المختلفة، وعودتهم إليها مرة أخرى. بعض هؤلاء الفنانين يعملون بمهنة التدريس ويتخذون من تزيين بيوت الحجاج وسيلة لرفع دخولهم المتواضعة، مجموعة من هؤلاء المدرسين علم الحرفة لغيره من الرسامين الأصغر سنا، المهم أن كل هؤلاء موظفون فى محيط قراهم وبلداتهم، وكلهم يركزون اهتمامهم بعزيمة ومثابرة قوية لكى ينتهوا من الأعمال التى يتفقون عليها قبل عودة الحجاج إلى ديارهم.

يحتكر الرجال فن رسومات الحج، وكلهم من المسلمين بطبيعة الحال. الفنان النموذج بين هؤلاء غالبًا ما يكون ناظر مدرسة القرية، الذى يحرص دائمًا على أن يضع توقيعه على اللوحات التى ينفذها. أحد هؤلاء الفنانين يحترف العزف ضمن فرقة موسيقية محلية، وآخر عمل سنوات طويلة فى مصلحة التليفونات، وهناك من لا يزال يعمل رسامًا لواحد من المعماريين.

أعمار غالبية الرسامين تتراوح بين ٢٥ عامًا و ٥٠ عامًا، قلة محدودة منهم درسوا أصول الرسم، أو إن شئت فقل اكتسبوا الخبرة من فنانين لهم قدم راسخة فى المهنة، أما غالبيتهم فلم تُمكنهم ظروفهم من التدرب بشكل عملى على فنون الرسم، ولكنهم على معرفة واسعة بأمور الدين وعلى دراية عملية بتقاليد وشعائر الحج. أما بالنسبة لمعلمى المدارس الطموحين، فيجب أن نلاحظ أن تزيين واجهات البيوت برسومات الحج لا يُعد بالنسبة لهم سبيلاً لدخل إضافى فقط، ولكنه يعتبر فى نفس الوقت عملاً يساعدهم على إنجاز تقليد مجتمعى يحظى باحترام كبير.

يخصص هؤلاء الفنانون أسبوعين أو ثلاثة من الجهد المضنى كل عام للوفاء بتعهداتهم، التى قطعوها على أنفسهم لكى يزينوا برسوماتهم الواجهات التى تعاقدوا عليها، حيث من التقاليد المرعية أن يبدأوا فى تخطيط لوحاتهم بعد أن يترك الحاج بيته متوجهًا إلى رحلته المقدسة، حتى يتاح لهم الوقت المناسب لكى ينتهوا من أعمالهم قبل أن يعود من مكة المشرفة.

وبينما يرضى بعض فنانى رسومات الحج بالحد الأدنى من الإبداع، حيث يكررون أعمالهم المرة تلو المرة، يعمد البعض الآخر إلى تحسين أدائهم عبر السنين عن طريق شحذ مهاراتهم الأساسية وتطوير أسلوبهم الإبداعى فى التعبير بالألوان حتى يقدموا الرسومات التى تُطلب منهم بأفضل شكل يقدرون عليه. الغالبية منهم تشعر داخليا أن رسومات الحج واجب وطنى، لذلك يدفعهم ضميرهم إلى إبداع رسومات كبيرة وجيدة. هناك – كما فى كل حرفة خلاقة – فنانون فى ميدان رسومات الحج موهوبون بشكل خاص، وتقف جدارياتهم شامخة بما يميزها من إبداع وحرفية تنفيذ وتلوين وتشكيلات، مثل هذه الأعمال هى التى تضع المعايير التى يمكن فى ضوئها تقييم عمل الآخرين والحكم عليها وعليهم.

غالبية فنانى رسومات الحج أتوا من خلفيات متواضعة إلى جانب صغر سنهم، وبسبب محاولاتهم الفنية الدءوبة أصبحوا مشهورين فى مجتمعاتهم بأنهم قادرون على تزيين لافتات المحلات وحوائط المدارس وأى شىء يُطلب منهم تجميله برسوماتهم، وحالما يتعلم هؤلاء الفنانون أساسيات فن رسم " اللافتات " تجدهم ينطلقون كل فى طريقه الخاص، وسرعان ما تتحول الخطوات التى تدربوا عليها إلى تجارب عملية تزيد من مستويات إتقانهم لحرفتهم من خلال الممارسة.

تكلفة رسومات الحج غالبًا ما تتواءم مع الإمكانيات المادية التى تتوافر للمتعاقدين مع الرسام، وهى فى المتوسط تماثل قيمة استئجار بعض العمال للقيام بطلاء بيت بالكامل، لأنه ليس من المعقول أن يقوم فنان متخصص فى رسومات الحج بتزيين منزل دون مقابل.

يبدأ الفنانون عملهم فى الصباح مبكرين قبل أن تهبط عليهم أشعة الشمس الحامية، ويعمدون إلى تجهيز سطح الحائط لاستقبال ألوانهم عن طريق إضافة طبقة رقيقة من الجص حتى يصير ناعمًا، ثم يتركونه ليجف. بعضهم يشمر عن ساعديه فورًا ويقوم برسم اللوحة التى يريدها، والبعض الآخر يحدد أولاً الإطار الخارجى لما سوف يرسمونه. فى منتصف النهار يخلدون إلى الراحة، وبعد أن تخف حرارة الشمس يعاودون العمل.

غالبيتهم يعمل بيديه، وبعضهم يستعين بمساعدين " صبيان " لتسوية أسطح الحوائط، وإذا كان الوقت ضيقا شاركوا فى الأعمال التجهيزية حتى ينتهوا منها على وجه السرعة. الصبيان هم الذين يحملون السلم و يضعونه فى المكان المناسب، وهم الذين ينظفون فُرشات الرسم ويمزجون الألوان ويحضرون الماء كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وغالبيتهم يفضلون العمل دون أن يكون حولهم جمهور يتابعهم؛ باعتبار أن الكلام أو الهمس الذى يصدر من هذا الجمهور من أسباب تشتيت تركيزهم.

فى بعض الأحيان يحرص الفنان على تنفيذ طلبات أسرة الحاج أو الحاج نفسه، وفى حالات كثيرة تضطره أبعاد وتضاريس الحائط أن يقوم برسم لوحة لا يملك حيال محدودية ما بين يديه إلا أن يبقى داخل إطارها !! الفنانون يفضلون فى أغلب الأحيان تنفيذ الرسومات التى برعوا فى إتقانها، وبعضهم يستهويه ابتكار رسومات جديدة تبعًا لمساحة الحائط ومجال الرؤية، واحد من هؤلاء رسم الفرس القائم على قائميه الخلفيين فى أوضاع مختلفة لكى يبين التنوع فى الفكرة، لكن الأمر المثير أن تفكر بصفة متخصص فى كيفية تناول مجموعة من الرسامين للموضوع الواحد : مثل فكرة الأضحية أو وسائل النقل كالطائرات والبواخر، الأكثر من ذلك أن لكل منهم رؤيته الفردية لشكل الكعبة المشرفة !!

بعض الفنانين ينحو نحو الخيال، بينما الآخرون يبذلون محاولات جسورة للتعبير عن الواقعية التى تجعل المشاهدين يعيشون فى دنيا خاصة من الفن الشعبى. الخيال الساذج وعدم تناسب الأحجام والأبعاد والمساحات الفسيحة الخالية والألوان الفجة والأشكال الكاريكاتورية والشخوص ذات البعد الواحد وانعدام التوازن.. إلخ، كلها أمور تستحق الإطراء فى بعض الأحيان، خاصة إذا عرفنا أن هذه النوعية من الفنانين محجوزة دائمًا لإنجاز عمل ما.

نماذج رسومات الحج

غالبية فنانى رسومات الحج يدركون أهمية صورة الكعبة المشرفة فى رسوماتهم، فهى وحدها تعبر عن مفهوم أداء الفريضة، وحينما يضعونها فى بؤرة لوحاتهم يوفرون لأنفسهم الفرصة لإحاطتها بغيرها من رموز الحج، وأيضا بالصور المنقولة من المجلات والصحف والكتب، أما الصور الخيالية والمناظر التى يشاهدونها على شاشة التلفزيون فتصبح إضافة إلى الرمز الأصلى. القلة من الفنانين، إذا كان ذلك صحيحًا، أدوا فريضة الحج، وغيرهم ممن لم يؤدوها يتطلعون لليوم الذى يحولون فيه هذا الحلم إلى حقيقة فى المستقبل، على الرغم من كون بعضهم يرى الأمر غير قابل للتحقيق.

بعض فنانى رسومات الحج يتلبسهم الحياء الفطرى بعد إنجازهم أعمالاً تلقى الاستحسان، لدرجة أنهم يصبحون غير مهيئين لعرضها على الأغراب ضمن أعمالهم الأخرى. من المعتاد أن يَستخدم هؤلاء الفنانون الألوان المائية، وبعضهم يفضل ألوان الزيت التى يعرفون أنها ستبقى لفترة أطول ولكنها مكلفة، ألوان الزيت غالبا ما تستخدم لطلاء أخر النوافذ وأخشاب الأبواب.



تتميز رسومات الحج فى المدن والبلدات الكبيرة، عند مقارنتها بمثيلاتها المنتشرة فى القرى الريفية، بأنها محدودة الحجم وتتميز بالبساطة، وقادرة فى الوقت نفسه على جذب الانتباه وسط منافسة شديدة من جانب الإعلانات التجارية التى تحيط بها من كل جانب. هذا الرسم المنشور على اليسار المحشور كإسفين بين ورشة صنع المفاتيح ودكان تصوير المستندات من ناحية ومطعم الكباب من الناحية الأخرى فى واحد من شوارع مدينة المنيا، والذى يغلب عليه اللون اللازوردى، يعلن بشكل فورى أن ساكن البيت سافر إلى مكة. فى أعلى المدخل نرى، على الرغم من أغصان الشجرة التى تحجب المنظر، اسم الحاج وتاريخ سفره إلى المدينة المقدسة، وعلى يمين الداخل نرى نموذج الكعبة المشرفة والحرم المكى الذى تطير فوق مآذنه العالية ثلاث حمامات.


١٨٠٥
١٩٨٧

رسومات هذه البيوت تنفذ باستخدام ألوان رخيصة للغاية، وربما مصنوعة محليا، مما يجعلها قابلة للتلاشى بأقل قدر من المحاولة، الأمر الذى لا تتعرض له لوحات رسومات حج أخرى.

عندما يطلى بيت مصرى بلون مائل للزرقة فمعنى ذلك أن واحدًا على الأقل من قاطنيه أدى فريضة الحج، فى بعض الأحيان يُكتب اسم الحاج وتاريخ رحلته إلى مكة المكرمة فى أعلى الباب الرئيسى أو على أحد جانبيه، وغالبًا ما يرمز المكعب المرسوم باللون الأسود فى مكان واضح من البيت إلى الكعبة الشريفة، وهذا النموذج وحده يكفى للدلالة على قيام بعضهم بأداء الشعيرة المقدسة. بكلمة أخرى هذه البيوت المطلية باللون الأزرق الناعم يمكن وصفها بأنها منازل حجاج، أما البنايات التى تعكس إبداعات وتجليات هذا الفن الشعبى فهى تلك التى تنبض زخارفها بالحياة، وتنيرها كلمات عربية متقنة الخط ونماذج من رسومات الرحلة العظيمة.

أهم الرموز بين نماذج الحج كافة هى، كما أشرنا سابقًا، الكعبة المشرفة التى ترسم بشكل مكعب أسود فردى يحتوى على العديد من التفاصيل، وفى أحيان أخرى فى صورة نصب مغمور فى بحر من البشر الذين يطوفون حول قاعدته مرتدين ملابس الإحرام البيضاء بغرض أداء شعيرة الطواف.

الفنانون الطموحون ذوو الخيال الواسع يتخذون من إعجابهم بقصة إقدام سيدنا إبراهيم على ذبح ابنه إسماعيل فرصة للتعبير عن رؤيتهم لها إما بالرسم أو بالكلمات، وآخرون يركزون جهدهم حول تصوير وسائل السفر المتنوعة، مما يدل على أنهم مبهورون بها إلى حد بعيد. لذلك نراهم يتفننون فى التعبير عن تطورها من خلال رؤيتهم الخاصة للإبل وللأحصنة التى تقف على قوائمها الخلفية، وكذا السفن الخيالية والقطارات وسيارات النقل الجماعى والطائرات والمركبات والشاحنات، وغيرها من وسائل التنقل التى يمكن أن تسهم، من وجهة نظرهم، فى الإسراع بإتمام الرحلة المقدسة إلى مكة.

تزيين واجهات بيوت الحجاج ليست " مطلبًا إجباريًا " على من قام بأداء الفريضة، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك دائمًا من يقترح أن رسم لوحة بالزيت سيخلد الرحلة نفسها، خصوصًا إذا نجحت الرسومات بعد تنفيذها فى منافسة الحوائط الأخرى، من باب التفاخر المنتشر بين العائلات فى هذه المجتمعات. لذلك الرأى عندنا أن تنامى وازدهار مهارات الفنانين هو الذى أسهم فى تشجيع تقليد تزيين البيوت برسومات الحج، حتى أصبح اليوم صناعة مهمة. الأمر الجدير بالتأكيد أن رسومات الحج أمدت مبدعيها بجزء مهم من مجمل مواردهم المالية، بالتوازى مع ذلك ركزت الضوء على هذه الجداريات باعتبارها مصرية الأصل والمنبع.

من المؤكد أيضا أن رسومات الحج فى الماضى كانت عمليا أقل فخامة مما هى عليه اليوم، قديمًا كان يقوم بهذه المهنة ابن من أسرة أصحاب البيت، أعنى فردًا لديه طموح يقوم برسم انطباعاته التى جاءت فى صورتها الأولى على شكل زهور وطيور أو حيوانات، يضيف إليها بعض العبارات المأخوذة من النصوص الدينية. بعض هذه النماذج ما زالت تُرى فوق بنايات القرى النائية، يتوسطها نقش كتب على عجَل فوق مدخل الباب يسمى الحاج وتاريخ سفره إلى مكة المكرمة.

أما فى أيامنا هذه فقد أضحى الرسامون خبراء فى ممارسة فنهم، كما أن زبائنهم أصبحوا يطالبونهم برسومات " ذات مستوى "، لذلك لم يعد ممكنًا أن تصادف بيوتًا مزينة بمثل هذه الرسومات الساذجة، ويتباهى أصحابها بخطوط مبعثرة على واجهاتها الخارجية، أقل ما توصف به أنها " شخبطة صغار "، مصرين على أنها رسومات لها صلة برحلة الحج المقدسة.

عندما يصل الحاج المصرى إلى داره، يجد فى استقباله حفلاً كبيرًا يقام بمناسبة عودته سالما، وعلى الرغم من أن المشاركة فى هذه البهجة ليست إلزامية، فإنها أصبحت عادة تمارس فى جو من الانشراح، لأن المناسبة دائمًا تكون ذات فرحة جماعية، تضم الأصدقاء والأهل الذين يحرصون على التعبير عن شكرهم لله أن أعاد صاحبهم الحاج إلى داره سالمًا معافى.

بهذه المناسبة تقدم العائلة أشهى وأطيب المأكولات والمشروبات، بينما يرقص البعض على أنغام الموسيقى المحلية التى تصدح من حولهم، وقد ينتهز الحاج الفرصة لتوزيع هداياه التى أحضرها معه من " الحجاز ". إنه طقس يفتح أبواب المرح أمام الجميع، يشجعهم على ذلك الزينة التى تشع حول المكان والألوان النابضة بالحياة واللوحة التى رسمت خصيصًا للترحيب بالحاج العائد.

ركز الفن الإسلامى منذ زمن بعيد على فن الزخرفة العربى المتأنق وعلى التصميمات الهندسية المزخرفة: الكتابة العربية (بالمناسبة كلمة " قرآن " تعنى القراءة أو الترتيل) تتصدر الحضور المجازى فى هذه الفنون. لذلك ليس غريبًا أن نعرف أن الكتابة اليدوية صانت " الكلمة المكتوبة " عبر مسيرة تطورها، ونقلتها من مجرد كونها خطوطًا مقروءة إلى مستوى الفن الراقى. أنتج فنانو العصور الوسطى نماذج من الكتابة العربية شديدة الحسن، لا زالت تحظى بإعجاب هائل وتعد من الكنوز الإنسانية. فن كتابة المخطوطات العربية بحروف متصلة أصبح يمثل تجارب النقش التى احتوتها الحضارة الإسلامية فى ذاك الزمن البعيد، واليوم تنتشر فى مصر الكتابات التى تشير إلى مأثورات أو آيات قرآنية، والتى تزين الواجهات الخارجية لكثير من البنايات.

باختصار علينا أن نعترف أن فن زخرفة الكتابة العربية والخيالات البدائية التى تغطى رسوماتها واجهات بيوت الحجاج تعد فى ذاتها تعبيرًا عصريًا عن الإيمان الدينى الذى ينفرد به المصريون.

رسومات الحج بطبيعتها سريعة الزوال لأنها تتعرض، فور أدائها الغرض الأساسى منها، للإهمال وغيره من عوامل الإتلاف خاصة أنه لا يوجد من يعتنى بها. فمن أشعة الشمس الملتهبة إلى حبيبات الرمال المتربة إلى رياح الناحية والأمطار التى تهطل عليها من وقت لآخر. كلها مؤثرات تقوم بعملها التخريبى المهلك لهذا الإنتاج الفنى العظيم بالتدريج.

حتى اللوحات التى بذل فيها جهد كبير، سرعان ما تذبل وتتعرض للتلف، وعلى الرغم من ذلك فإن هناك بعض اللوحات التى صمدت لكل هذه العوامل على مر السنين وما زالت تثير الإعجاب لدى عابرى السبيل وتبعث الدهشة لدى الفضوليين من الغرباء، وعندما تزول هذه اللوحات النادرة نهائيا بفعل الزمن أو لعدم اعتناء المجتمعات بها، فسوف تترك تأثيرات وجدانية مفعمة بالحيوية فى ذاكرة الإنسان الجمالية.

فى نهاية الأمر نقول إنه حتى ولو كان الإطار الروحى لهذه الرسومات لا يعدو أن يكون لمحة ضمن الاحتفالات المتألقة التى تصاحب عودة الحجاج إلى ديارهم، فإن الحزن يعتصر القلب عندما نتخيل كم من اللوحات التى زينت بها واجهات بيوت الحجاج قد فقدت على مر السنين، أو كم منها سيختفى فى قابل الأيام دون أن يترك وراءه أثرًا يذكر.

وعلى الرغم من قناعتنا أنه لا توجد وسيلة عملية لتجميع هذا التراث الاستثنائى وعرضه ضمن متحف للمقتنيات البشرية، فإننا نرى أن الطريق الأسهل والأكثر ملاءمة للحفاظ على ما بقى من هذا التراث الإنسانى الذى لا تعيش بعض لوحاته إلا لفترة قصيرة، هو تسجيلها بالصور الإلكترونية التى تجمعها معًا فى كيان مرئى، لأنها فى مجملها تشكل سجلاً آسرًا لفن شعبى شديد الخصوصية، يمثل حركة فنية ذات جذور ضاربة فى عمق التربة، اعترف بها العالم وجهًا مشرقًا من أوجه الميراث الفنى للأمة المصرية.

آفون نيل

الـــرحـلـــــة

هذه السيدة البدوية شديدة الاحتشام (فى الصفحة المقابلة)، التى ترتدى عباءتها التقليدية و تستر وجهها ببرقع تتلألأ دلاياته الذهبية، تجلس بوقار تحت لوحة جدارية تحمل، رغم فقر زخرفتها، معالم تذكارية لرحلتها التى قامت بها إلى مكة عام ١٩٨٠، ويبدو واضحًا أن الفنان ركز اهتمامه سواء بناء على طلب صاحبة اللوحة أو استجابة لخاطر ألح عليه، على وسيلة النقل التى ركبتها إلى السعودية، ونقصد بذلك السفينة التى جاءت صورتها غير متناسبة مع حجم مرساتها الضخمة، وإن كانت تشبه – إلى حد كبير – تلك السفن التى تذرع البحر الأحمر جيئة وذهابًا حاملة الحجاج من السويس إلى جدة وغيرها من موانئ الأراضى المقدسة. أما السمكة الضخمة ذات الحرافيش الكبيرة، فيبدو أنها تقوم – فى الصورة هنا – بتعزيز تجربة رحلة الحاجة البحرية الفريدة.

عرفنا أن سكان الصحراء المصرية يقومون فى بعض الأحيان بتغيير نمط معيشتهم البدوية القائمة على الترحال إلى أسلوب الحياة المستقرة، وفى هذه الحالة يكون ريع تشغيل محل لبيع الأدوات المنزلية كافيًا لدعم احتياجات رحلة الحج إلى مكة و الأراضى المقدسة.


١٩٨٠

كان الحجاج فى الأزمنة التى لم تعد تعيها الذاكرة يعتمدون بصفة عامة على الإبل القوية المسرجة وسيلة سفر، تطوى المسافة بين قرى نهر النيل والأراضى السعودية، أما فى أيامنا هذه فأصحاب الجمال يستخدمونها فقط فى التنقل بين منازلهم ومحطات السكك الحديدية. هذا الرسم إلى الأسفل، صورة معبرة تعكس لحظة الرحيل، حيث نرى الحاج يطمئن بنفسه أن الأحمال التى وضعت فوق ظهر البعير مربوطة جيدا أو مؤمنة، وذلك قبل أن تستقيم دابته فى وقفتها الكاملة. ويمكن للقارئ أن يلاحظ كيف يتعامل الرجل مع حقيبتى السفر حديثتى الطراز المربوطتين معا !! وكيف طرحهما بهذه الكيفية فوق سنام الجمل. الفنان على عيد ياسين من أبناء بلدة سلوى بحرى، الذى رسم هذه اللوحة، يعتنى بالتفاصيل الدقيقة. لذلك تُعد رسوماته من الفنون التصويرية المتألقة، مصدراً مهما لمشاهد الحياة اليومية التى تعيشها القرى المصرية من حوله.



غالبا ما تبدأ رحلة الحج إلى مكة من المدن الكبرى فى صعيد مصر بتوصيلة إلى محطة السكك الحديدية القريبة، وصورة هذه المحطة (المنشورة على الصفحة المقابلة) ذات الطراز الفيكتورى[٣٤] تبدو كما لو أنها مستوردة من خارج المكان. السكك الحديدية فى مصر تنقل السائحين إلى المناطق الأثرية بتكلفة مخفضة، وفى نفس الوقت توفر أسعار انتقال زهيدة للرحلات القصيرة التى يقوم بها أبناء القرى والمدن[٣٥].

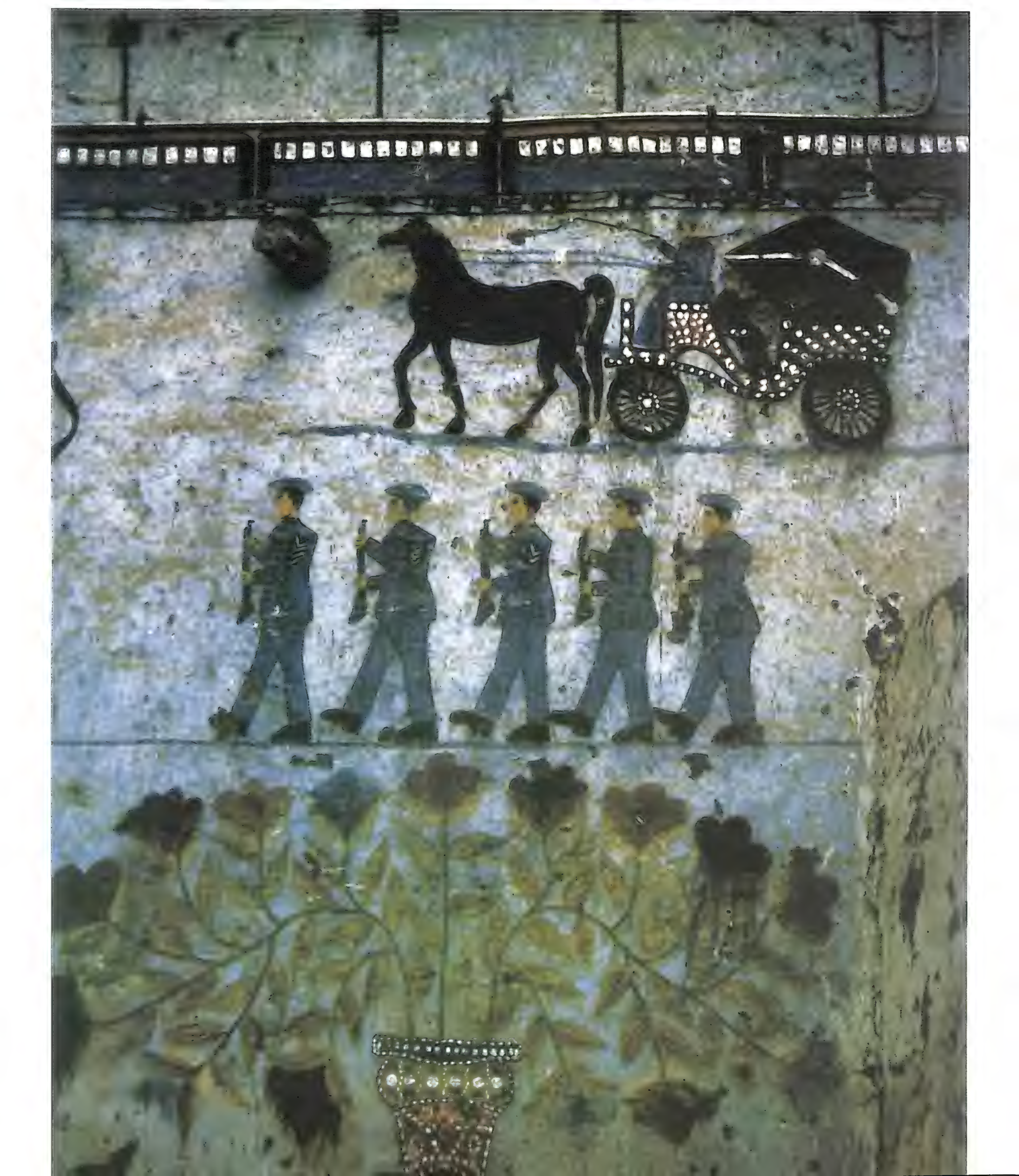
ما إن يصل الحاج إلى محطة السكك الحديدية حتى تصبح هذه الوسيلة، التى تسير بمحاذاة نهر النيل من شمال البلاد إلى أقصى جنوبها، هى خطوة الربط الثانية التى لا بد منها لمواصلة رحلته إلى مكة.

هذا الرسم هو الدليل الفنى الوحيد المتبقى من لوحة رسمت قبل نحو عشر سنوات، بعد وفاة الطرفين اللذين كانا السبب فى وجودها، الحاج والفنان الذى رسمها. أما البيت الذى رسمت فوق واجهته فقد انتقل إلى أكثر من مالك؛ مما أدى إلى تعرض اللوحة الجدارية النادرة إما إلى دمار أصاب البناية نفسها أو إلى إزالة جزء منها بسبب توسعة ألحقت به!!

ولكى يصور الفنان جانبًا من الحياة المصرية إبان فترة الاضطرابات التى شهدتها البلاد فى عقد السبعينيات، قام برسم آنية ضخمة من الزهور السامقة لتخفيف وقع الحضور العسكرى لطابور الجنود الذين يبدون وكأنهم دمى مرصوصة لكل منها رتبتها الخاصة بها!!

(٣٤) نسبة إلى فيكتور يا ملكة بريطانيا العظمى (١٨١٩ - ١٩٠١)، كانت أول من أصول ألمانية، تولت العرش فى ٢٠ يونية ١٨٣٧، وكانت إمبراطورة للهند منذ مايو ١٨٧٦ . تواصل حكمها حوالى ٦٣ سنة، اشتهرت فى التاريخ باسم «الحقبة الفيكتورية»، شهدت الثورة الصناعية، وعرفت التوسع الاستعمارى. (المترجم)

(٣٥) كان ذلك حتى نهاية عقد الثمانينيات من القرن الماضى ثم ارتفعت أسعار السفر بالسكك الحديدية للسائحين وأبناء البلاد بشكل ملحوظ، لمواجهة التكلفة الحقيقية لاستخدام هذه الوسيلة. (المترجم)





من بين الجوانب الفاتنة التى تتعلق بلوحات رسومات الحج الجدارية، أنها توفر الفرصة للاستدلال على أسلوب حياة قاطنى البيوت، التى تغطى هذه اللوحات واجهاتها. هذه المناظر القائمة على خليط من التفاصيل المتنافرة (اللوحة المقابلة) تشكل وحدة فنية ملهمة تدلل بوضوح على أن مهندس هذا العمل ليس من أبناء قرية ريفية فى مصر، فهذه الدار تنتمى إلى مدينة من مدن البحر المتوسط التى كان لها ماض معتبر ثم أصبح يسكنها مجموعة من الأسر الأقل حظًا من الناحية الاقتصادية، وعلى الرغم من ذلك يؤكد موقعها ضمن مبانى هذا الشارع النائى من شوارع مدينة بورسعيد المزدحمة مدى اهتمام أهل المدينة بالفنون التى من شأنها أن تميز مكانتها على مستوى الخط الملاحى العالمى الذى تقع على مدخله الشمالى، مما يجعل فنانها المحلى على دراية بمعنى حركة السفن العالمية التى تمر بقناة السويس[٣٦].

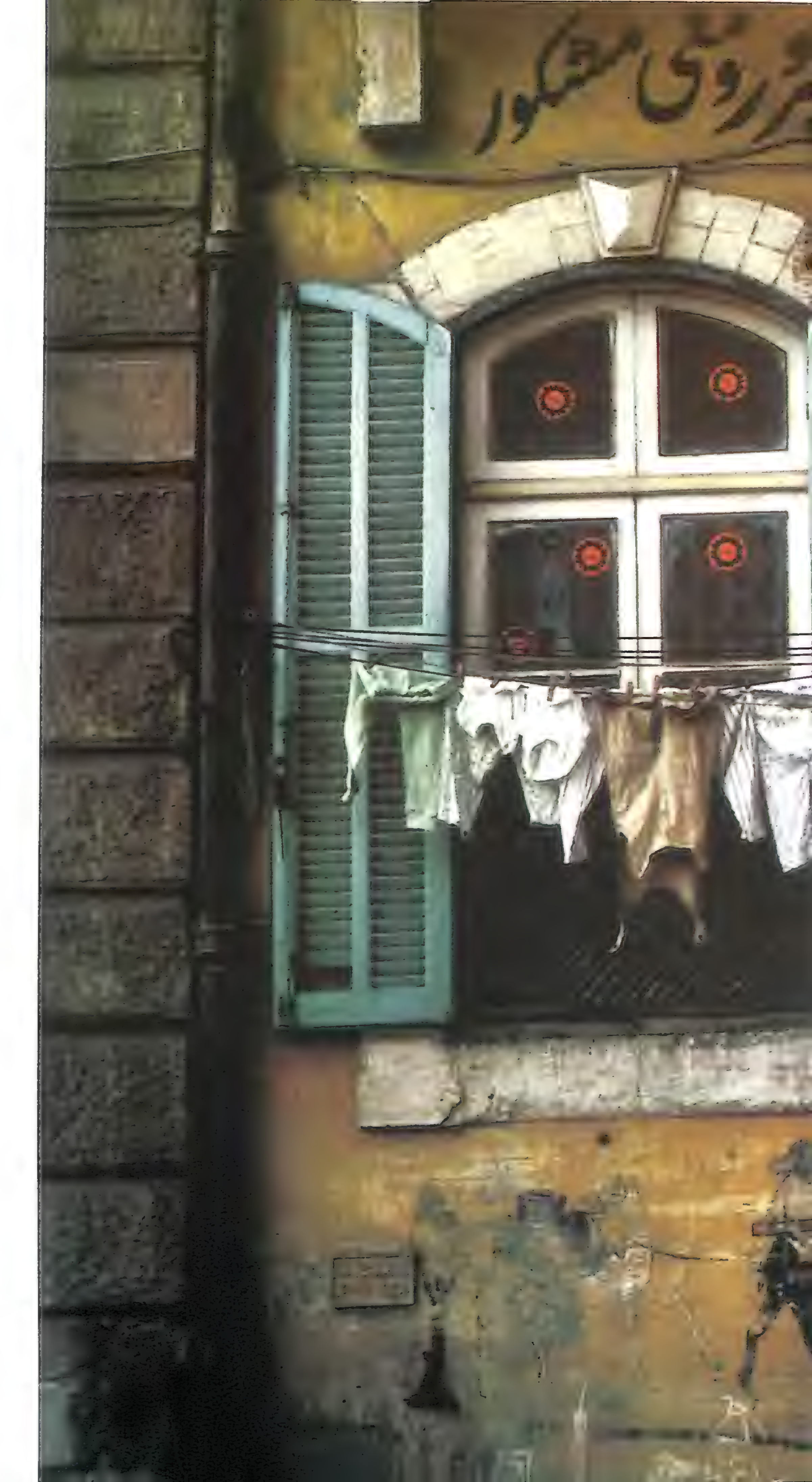
فهذه السفينة التى رسمها الفنان فى مكان علوى بين ضلفتى الشباكين تمخر عباب الماء وهى تنفث دخانها، تدل على أنه يعرف تفاصيل ما يرسمه، ففى مقدمتها علم متناهى الصغر معدوم الهوية وفى مؤخرتها علم مصر واضح المعالم، وقوارب إنقاذها تبدو جاهزة لأى طارئ وتحمل خطافًا مستعدًا لبلوغ القاع عند ميناء الوصول. أسفلها بحر من الأمواج كسرته سمكة عابثة، قصد بها الفنان موازنة أكثر ما فى لوحته من إثارة، ونعنى بذلك حورية البحر الممتلئة ذات الثديين البارزين، والتى تقبض يدها اليمنى بحزم على "حمامة" رمزا للسلام والمحبة، وتحت إطار النافذة التى على يمين الصورة رسم الفنان جملين يقودهما الحادى فى اتجاه مكة، أحدهما عليه راكب والثانى يحمل أمتعته، وكلاهما نحل جسده ربما بفعل طول الرحلة !! رسم الفنان أسفل إطار النافذة الثانية طائرة يبدو على متنها ثلاثة أشخاص : قائدها وشخصان يغطيان رأسيهما بالعقال والغطرة العربية.

الفنان هنا على معرفة جيدة بما رسمت يداه، حيث نراه قد وصف نفسه بأنه "فنان شعبى " فى جملة موجزة كتبها بخط جميل فى منتصف المسافة بين جناح الطائرة وذيلها، ليجذب إلى لوحته أقصى درجة من الانتباه.

وفى حين نجت الأجزاء غير الحصينة من اللوحة بأعجوبة من هجمات التشويه ومن عوامل الاهمال ومن تخريب عمال الكهرباء وأيضا من عوامل التدهور والتعرية، أحاطت بالجدارية مظاهر القبح : علب مسحوق اللبن المجفف الفارغة التى أضحت آنية للنباتات، وملابس الأطفال التى علقت على الحبال لكى تجف، مضافًا إليها التنافر البادى بين ألوان ضلف الشباكين حيث نرى ضلفتين منهما تحول لونها الأزرق إلى اللون الفاروزى المخضر، أما الضلفتان الأخريان فقد طلى إطارهما باللون البنى الغامق، وطليت مساحتهما الداخلية بلون أقرب إلى الأصفر الفاتح، وكلها مؤشرات تلقى الضوء على مستوى الجانب الإنسانى الذى يتعايش معه قاطنو هذا المكان.

---

(٣٦) قناة السويس طولها حوالى ٦٣كيلو مترا، وأقل عمق يصل إلى حوالى ٦٠ مترًا، مما يمكن السفن التى يبلغ وزنها وهى فارغة نحو ١٥٠ ألف طن من العبور بسهولة ويسر. تتميز القناة بتساوى مستوييها الجنوبى عند مدخل البحر الأحمر والشمالى عند مدخل مدخل البحر المتوسط، بدأ العمل فى شقها يوم ٢٥ أبريل ١٨٥٩ وافتتحت رسميا للملاحة يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٦، وبلغت تكلفة شقها حوالى ١٠٠ مليون دولار. (المترجم)

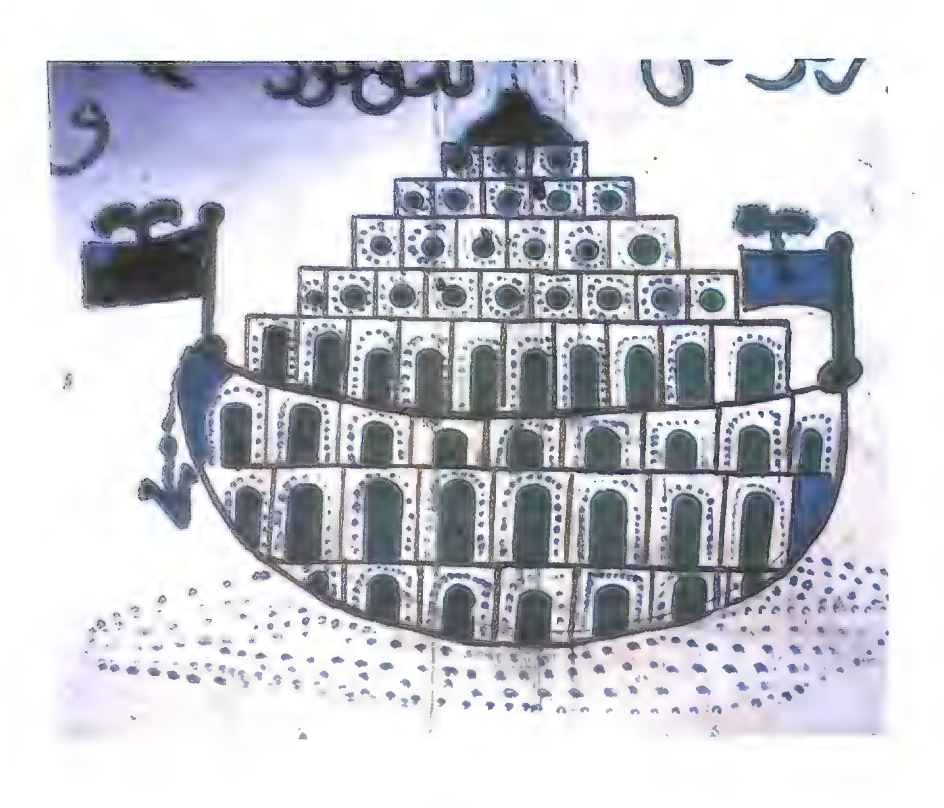




على الرغم من تعدد وسائل النقل المتاحة أمام المصريين للاختيار فيما بينها، ما زالت وسيلة النقل البحرية هى البديل الأكثر شعبية بالنسبة لحجاج بيت الله الحرام ذوى الميزانية المحدودة، لذلك تقوم السفن التجارية كل عام بنقل الآلاف منهم من الموانئ المصرية عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة الأقرب إلى مكة المكرمة، وإلى ميناء ينبع الأقرب إلى المدينة المنورة.

ميزانية الحج المحدودة هذه تبدو مفهومة ومتوقعة، عندما نشاهد مئات المسافرين وهم ينزلون من سيارات النقل الجماعى ليستقروا فوق سطح السفن شديدة الازدحام. ولأن هذه التجربة بالنسبة للكثيرين منهم غير قابلة مستقبلا للتكرار (لأسباب مادية بحتة)، سرعان ما تتحول مشاهدها إلى عناصر قصصية ضمن مسيرة الحج الطويلة. أما مناظر الصحراء القاحلة البعيدة كل البعد عن أعين الذين يعيشون بالقرب من نهر أو مجرى مائى أو قناة، فمن شأنها أن تخفف من رتابة السفينة التى تعبر بنعومة جدارية هذا البيت المنعزل (الصورة إلى أعلى) الذى يقطنه الشيخ الجالس أمامه.

السفينة تحمل تفاصيل ريشة يعرف صاحبها الكثير من حقائقها، حتى قوارب النجاة عندما نفذها حرص على التنسيق بينها من ناحية المكان والحجم آخذاً فى الاعتبار المدخنة التى تتوسطها. أما أكثر ما يحظى بالانتباه فهو نماذج السفن التى تتمتع بقسط وافر من إبداع الخيال المتألق الذى أبدعه فنانون موهوبون، لديهم معلومات محدودة عن السفن التجارية وأحجامها، أو فنانون لا يعرفون شيئًا البتة عن هندستها، ولدينا (إلى اليسار) صورة منها وفى الصفحتين التاليتين سبعة نماذج أخرى توضح بجلاء ما نقصد إليه.





رحلة السفر بالبحر لها جاذبية خاصة عند فناني رسومات الحج، على الرغم من أن غالبيتهم ربما لم ير في حياته سفينة عملاقة تنقل الحجاج القاصدين مكة. ويبدو أن فكرة وسائل النقل الجماعي هذه تدفع الفنانين لاستنباط صور جمالية يزينون بها أعمالهم الخيالية، حتى عندما يسافر بعض الحجاج إلى المملكة العربية السعودية بطريق الجو تجد أن الرسام يستخدم صورة السفن البحرية نماذج للإشارة إلى الرحلة في مجملها.

من سوء حظ المتحمسين للفن الشعبي عدم وجود كتب استرشادية تحتوي على نماذج للسفن يمكن أن يستفيد منها الرسامون لتنمية قدراتهم الإبداعية، لذلك يلاحظ أن فناني رسومات الحج يرتكزون في المقام الأول على قدراتهم التخيلية النابعة من معارفهم المحدودة، وغالبا ما تأتي النتائج مفرطة في الخيال، كما نرى في رسومات السفن على هذه الصفحة والصفحة المجاورة، وهذا يدل على أن الفنانين ليست لديهم الفرصة أو المقدرة لإمعان النظر في الأعمال الفنية التي أبدعها غيرهم.





71 - 72







لو تيسر لرسامى هذا الفن الشعبى الجسورين ذوى الخيال الخصب اقتناء مثل هذه الكتيبات، وأتيحت لهم فرص متابعة إنتاج غيرهم، لأمكن لرسومهم أن تنتشر بشكل أوسع فوق واجهات بيوت عدد أكبر من محافظات مصر، لأنه فى كثير من الأحيان لا يتحقق الإحساس بدفء وحيوية إبداعات أى فن إلا من خلال المقارنة البصرية، التى توفر فرص المفاضلة بين عدد من لوحاته !!



استخدام الحجاج المصريين لوسيلة النقل الجوى أصبح مرادفًا لرحلة الحج إلى مكة المكرمة، لذلك أصبحت غالبية واجهات بيوتهم تزين بنموذجين من رسومات الحج، أحدهما للكعبة المشرفة والآخر للطائرة، الطائرة باعتبارها وسيلة للسفر ورمزًا لأداء فريضة الحج، لم تصبح منتشرة على المستوى الشعبى إلا منذ بضعة عقود فقط. قبل ذلك الانتشار كانت وسائل الانتقال إلى مكة المكرمة التى يعبر عنها ويرسمها الفنانون على جداريات الحج هى الجمال والسفن والقطارات، وعلى الرغم من أن نماذج هذه الوسائل ما زالت تتضمنها اللوحات الفنية، فإن نماذج الطائرات بمختلف طرزها وأحجامها هى التى أصبحت أكثر الرسومات انتشاراً أو الأكثر جذباً لعين المدقق فى هذه اللوحات.

منذ منتصف الستينيات أصبح العدد الأكبر من حجاج العالم الإسلامى يستخدمون الطائرة فى سفرهم إلى مكة أكثر من استخدامهم للطريقين البرى والبحرى، وإليها يرجع السبب المباشر فى التزايد الضخم لعدد الحجاج عاماً بعد عام. قلة من فنانى رسومات الحج دأبت على إمعان النظر فى صور الطائرات الفوتوغرافية التى تنشرها المجلات وغيرها من المطبوعات، لأجل أن تأتى رسوماتهم مطابقة لها قدر الاستطاعة. والكثير من هؤلاء يعتمد فى رسوماته على خيالات قريبة من الواقع، لكى يترجم إبداعاته الفردية بأسلوبه الخاص، والنتيجة غالباً ما تكون مبهرة ونابضة بالحياة.

هذه المجموعة من رسومات الطائرات التى تتضمنها اللوحات المنشورة على الصفحات التالية تبين بجلاء طرفى التناقض عند عدد من الفنانين.


ولله الحمد
الله اكبر


EGYPT AIR









الطائرات النفاثة ملأت رسومات الحج فى كل محافظات مصر، لقد عمد فنانو رسومات الحج إلى إثراء إبداعاتهم بأنواع غريبة من الطائرات، جاء بعضها نتاجاً لخيال غير عملى، أقل ما توصف به أنها ماكينات طائرة غير صالحة للطيران !! مادام غالبية هؤلاء الفنانين لم يقتربوا من أية طائرة ركاب عملاقة، فإن إبداعاتهم ستظل دائماً نتاج خيالات لا صلة لها بالواقع. وكما هو متوقع تتربع طائرات شركة مصر للطيران على قائمة الطائرات التى تزين جداريات الحج، سواء عكست الملامح الحقيقية للطائرة أم جاءت أقرب إلى رسومات الأطفال. وكما فى رسومات السفن وغيرها من وسائل التنقل، لا يوجد حد يمكن أن تقف عنده طموحات هؤلاء الفنانين لحظة اختيارهم للأسلوب الذى يعبرون به عن خيالاتهم. إنها القيمة الجمالية التى تجعل رسومات الحج فنا شعبيا يتميز بالخيال. ويؤكد رأينا هذا تلك النماذج القليلة التى نشرناها هنا.


الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة
الكعبة المشرفة
عودا حميدا



دخول الحجاج إلى المنطقة التى يطلق عليها "الحرم" داخل المسجد المكى يُعد بمثابة إعلان عن "نيتهم" الخالصة فى استكمال شعائر الحج[٣٧]، تلك النية التى يسبقها عملية "اغتسال" تهيئ الحاج للبدء فى خطوات أداء الشعيرة التى تتطلب منه أن يُطهر جسمه كله. الرجال يحلقون رءوسهم ويزيلون الشعر من أماكن معينة، وكذلك تفعل السيدات ولكن دون حلاقة. وفى الحالات شديدة الاستثناء، عندما لا يتوافر مصدر للمياه يمكن للمرء أن يتيمم بتراب الأرض وفق ما تقضى به قواعد الفقه عوضاً عن استخدام الماء. وبعد شعيرة الاغتسال هذه يصبح المرء متطهراً ومستحقاً لارتداء ملابس الإحرام.

فى هذا الرسم غير التقليدى بين رسومات الحج، عمد الفنان السنوسى إلى التعبير عن عملية الاغتسال التى يقوم بها المسلم بأن رسم عند مدخل بيت حاج من سكان القرية شكل إبريق وهمى متمدد. وكما اهتم الفنان بكتابة اسمه، حرص أيضا على نقش آية من القرآن الكريم تقول ﴿ وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾[٣٨] قاصداً إما الإشارة إلى ماء الابريق أو إلى ماء زمزم المقدس.

وإلى يمين مدخل البيت نلاحظ رسما أكثر واقعية للكعبة المشرفة بأستارها المطوية[٣٩] أما الحاج الشاب الذى تجثم حمامة على كتفه بسلام، فنراه يقف خاشعاً أمام الكعبة المقدسة ماداً ذراعيه متضرعاً. هذا بالإضافة إلى بعض النصوص الدينية التى نقشت بمهارة، بحيث تبدو مندمجة مع الخليط الفنى الذى أبدعه الفنان.

---

(٣٧) الحرم أو المنطقة الحرام تحيط بالمسجد الحرام وليست بداخله، وهى التى اصطلحوا على تسمية حدودها «المواقيت» مقابل كل ناحية «الميقات» الخاص بها، كميقات المدينة المنورة وميقات مصر وميقات اليمن، وهى المواضع التى يبدأ منها «الإحرام».

(٣٨) من الآية ٢١ من سورة الإنسان. (المترجم)

(٣٩) تصوير الكعبة بهذه الكيفية يعنى عند العامة أنها أيضا مُحّرمة مثلهم، وخاصة فى موسم الحج. (المترجم)



يطلب من السيدات المسافرات لأداء فريضة الحج الالتزام بأمرين: تغطية رءوسهن طوال الوقت، وعدم وضع النقاب على وجوههن. وبينما تفضل النسوة من دول إسلامية أخرى ارتداء طرز الملابس المتألقة، تفضل المصريات اختيار الجلابية البيضاء الطويلة غير المزينة بأية رسومات.

هذه الحاجة التى يفيض وجهها بالرضا، والتى تبدو فى الصورة (أعلى هذا الكلام) جالسة بشكل متأدب أمام المصور الفوتوغرافى شارحة كيف كانت تصلى فى مسجد الرسول (عليه والصلاة السلام)، تقول إنها قررت بعد رجوعها من مكة الالتزام - ربما إلى آخر عمرها - بالملابس المحتشمة ذات اللون الأسود، والتى غالبا ما تفضلها السيدات المتمسكات بالتقاليد الأسرية.

الرضا البادى على وجه الحاجة ووضع صورتها داخل الرسم الذى على الحائط من جهة اليمين، يوضحان بجلاء مدى روعة تجربة الحج وقداستها بالنسبة لها وللكثيرات غيرها من أخواتها المؤمنات، اللاتى يعتبرن أن حياتهن بالكامل تدور حول التقاليد الموروثة.

التقاليد التى تحدد ملابس الحج بالنسبة للرجال أكثر صرامة مما هى بالنسبة للنساء، فهم مطالبون بلبس أردية معينة تتفق مع السنة النبوية، ونعنى بذلك ملابس الإحرام التى تتكون من جزأين غير مخيطين وغير مطرزين من القماش الأبيض الذى يفضل أن يكون من القطن. الجزء الأول "الإزار" يلفه الحاج حول وسطه بحيث يغطى جسمه من مستوى السرة إلى ما تحت الركبة، أما الثانى "الرداء" فيلفه الحاج حول نصف جسمه الأعلى بحيث يغطى كتفه وذراعه اليسرى تاركا كتفه وذراعه اليمنى حرة طليقة.[٤٠] فى نفس الوقت يصرح للحاج بأن يتمنطق بحزام، شريطة أن يكون غير مخيط، الأمر الذى ينطبق أيضًا على ما يضعه الحاج فى قدميه. أما رءوسهم فيجب أن لا تغطى طوال قيامهم بأداء شعائر فريضة الحج، ويستعاض عن غطاء الرأس بالمظلات لتوفير الحماية من أشعة الشمس الحارقة.

هذا الحاج ابن المدينة الذى يقف بافتخار إلى جوار الرسم الباهت (فى الصفحة المقابلة) شديد الصلة به، والذى يمثله وهو فى ملابس الإحرام، يعكس وجودا كليا داخل اللوحة التى يظهر فيها الرجل، ضمن لحظة تأملية دينية، ممسكا برشاقة بمسبحته فى يده اليمنى. أما ملامحه المتميزة والظلال التى تتوزع على صورته الفوتوغرافية والبقعة الداكنة فوق جبهته " الزبيبة " - كما نلاحظها فى الرسم - فتؤكد الصفة التعبدية التى تتمتع بها وجوه الأتقياء من المسلمين، والتى تجلب لهم المزيد من الاحترام والتقدير. قالوا لنا إن هذه البقعة الداكنة تتكون على مر السنين من كثرة السجود خمس مرات فى اليوم والليلة فى اتجاه الكعبة المشرفة.

(٤٠) فى الأصل الإنجليزى استخدم «الرداء» للجزء الأسفل و«الإزار» للجزء الأعلى من جسم الإنسان خطأً.


حج مبرور
وذنب مغفور

السفر إلى مكة

يجمع غالبية الحجاج أن نظرتهم الأولى الخاطفة للكعبة فى أول وصول لهم إلى مكة تعد واحدة من أسعد لحظات حياتهم الوجدانية...! ولم لا، وهم يتوجهون إليها فى صلاتهم مذ تعودوا على أداء الصلاة؟ لذلك لا نندهش حين نجد الفنان مالك الذى أبدع هذه اللوحة المثيرة يحرص – منذ بدأ ممارسة فن رسم جداريات عن رسومات الحج – على تطعيم لوحاته التى رسمها فوق واجهات بيوت الحجاج بنماذج من الكعبة، وبينما كان فى باكورة أعماله يركز على رسم الحاج مواجهًا للكعبة وهو فى ملابس الإحرام، أصبح يستبدل به حاجا ملتحيًا يلبس الجلابية.

هذا الرسم الذى يبدو فيه وجه الحاج مفعمًا بالرضا والحبور يعكس جوهر المسلم الذى يتوجه أثناء صلاته خمس مرات ناحية بيت الله المغطى فى الصورة بالستائر داكنة اللون، لذلك يعد الفنان مالك زعيم فنانى رسم لوحات الحج فوق واجهات البيوت، بسبب إحساسه المرهف عندما يقوم بالتصميم، وأيضا بسبب خطوطه الانسيابية وعنايته برسوماته وأسلوبه المبتكر فى التعبير عن خيالاته. الرسم الذى إلى يسار الصفحة جزء من جدارية هائلة الحجم (نشرت بالكامل صفحة ٣٢)، يحتوى على ثلاثة ابتهالات غاية فى الروعة، تقول على لسان الحاج " يا رب يا كريم " و " الله جل جلاله " و ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[٤١].

(٤١) من الآية ٣٥ من سورة النور.

ABI
-ER

الله
جل جلاله

يا رب يا كريم

الله
نور السموات والأرض



فنانو رسومات الحج مؤهلون دائما لحل أية مشاكل غير اعتيادية تعترض طريق تنفيذ رسوماتهم، خصوصاً الأسطح الخشنة التى يعالجونها بطبقة رقيقة من الجص تجعلها ملساء، بالإضافة إلى ذلك هناك واجهات تمثل لهم تحدياً لا بد من قهره : المداخل التى تعترضها الأبواب والنوافذ والعيوب الإنشائية، والتوسعات العشوائية، والنتوءات الغليظة، والفجوات.. إلخ، وكلها تمثل صعوبات من شأنها أن تربك المشروع الإبداعى لأى فنان، وأن تصيبه بالإحباط.

لكن هناك من الفنانين من يتغاضى عن هذه المصاعب وما تمثله من معوقات بأن يقوم برسم لوحته حولها أو يحتويها داخلها إذا كان ذلك ممكناً. ورسم الكعبة التى إلى اليسار جاء نتيجة اضطرارية لجأ إليها الفنان، عندما أصر على إيجاد مخرج لعدد من العوائق التى واجهته؛ فهذه الزخارف الحديدية المقوسة التى تمثل حِلية بديعة لأعلى باب مدخل البيت تخطاها الفنان بأن أجرى تعديلا طفيفا فى مشروعه الفنى فجلعها فى خلفية الطائفين حول الكعبة من الحجاج. ولأن العنصر الأساسى فى لوحته هو الكعبة، لذلك رسمها محاذية لقمة القوس الحديدى فى المكان الأكثر جذبا للعين، حتى تغدو مرئية لكل من ينظر إليها. ويُعد حرصه على ملء الفراغ الواقع بين الكعبة وجدران المسجد المكى بالأعداد الغفيرة من الحجاج المُحرمين، تعبيراً صادقاً عن أسمى رسالة دينية فى هذا الخصوص.

أصحاب البيت شوهوا اللوحة بهذا السلك الكهربائى الهابط من أعلى، والنافذ إلى داخل البيت من بين زخارف القوس الحديدى، لقد كان من الأفضل لهم أن يبحثوا له عن منفذ آخر حتى لا يخرب منظر اللوحة، التى لا زالت تحتفظ بالكثير من سحرها الذى يشد الناظرين إلى عبقرية الزحام حول الكعبة المشرفة.


الله
محمد رسول الله
محمد
علي





تعد الكعبة - بكل المقاييس - الرمز الأشهر الذى رسم بكثافة فوق جداريات رسومات الحج، حتى لو لم يرسم الفنان سواها، لأنها تمثل أوثق دليل على تمام الرحلة المقدسة. ولو أخذنا فى الاعتبار سهولة ويسر تحديد أبعاد هذا النموذج الأساسية، لأدهشنا تنوع نماذجه التى عبر عنها الفنانون بكثرة لا تحصى !! كل واحد منهم لديه تصور خاص ينقل به أحاسيسه تجاه هذا البناء المقدس عندما يرسمه فوق حائط البيت الذى سيقوم بزخرفته. هذه الرؤية تتراوح بين رسم المكعبات التقليدية البسيطة التى تغطيها بالكامل الكسوة سوداء اللون ذات الإطار المذهب فى أعلاها، وبين الرسم المركب الذى يضم العديد من تفاصيل البناء، مضافاً إليه آلاف الحجاج فى رداء الإحرام الأبيض، وهم يؤدون شعيرة الطواف حول قواعدها.







هذه النماذج لرسومات الكعبة التى نشرنا صورها، والتى يمكن العثور عليها فى أماكن متفرقة على امتداد وادى النيل وعلى ساحل البحر الأحمر ومنطقة قناة السويس وحتى فى شبه جزيرة سيناء، تبرهن على كيفية استطاعة كل واحد من الفنانين الستة أن يقدم أسلوباً مختلفاً للتعبير بشكل فردى عن إحساسه الفطرى تجاه الكعبة. الأمر المؤكد لدينا أن أيًا من هؤلاء الذين نعرض لوحاتهم لم يزر مكة، وبالتالى لم ير الكعبة رأى العين، لكنهم جميعا منذ أيام الصبا المبكر على معرفة متعمقة بصورتها الفوتوغرافية والتلفزيونية.

قام عدد من فنانى رسومات الحج برسم امرأة تجلب الماء من «طلمبة» القرية، وإذا كانت مثل هذه الرسومات تعمد إلى تسجيل وجه من أوجه الحياة الريفية فى مصر، فإنها فى نفس الوقت تجلب للذهن مشاهد الحج المرتبطة بأسطورة بئر زمزم، التى تحكى قصة بحث السيدة هاجر عن الماء، بعد أن تركها سيدنا إبراهيم وراءه، لكى تسقى وليدها فى هذه البقعة الصحراوية المعزولة التى أصبحت فيما بعد مكة المكرمة. لما أدرك الابن العطش ولم تجد الأم معها ماء، بدأت تجرى جيئة وذهابا بالقرب من الكعبة المشرفة بحثا عن الماء الذى يُطفئ ظمأ وليدها الباكى إسماعيل. تقول الأسطورة إنها بعد تعب وكد، وفى أثناء رجوعها فى إحدى المرات ناحية ابنها، وجدت الماء ينبع من تحت قدمه. هذا الينبوع الذى سمى فيما بعد " بئر زمزم "يشرب منه الحجاج الذين يسافرون إلى مكة كل عام لأداء فريضة الحج.

أما الزمزمى أو السقاء فهو واحد من فريق منظم كان يعمل على إمداد المصلين فى المسجد والطائفين حول الكعبة بماء زمزم المجلوب لهم خصيصا من البئر[٤٢]، وهذا التقليد يعود إلى ما قبل انتشار دعوة الإسلام فى مكة، حيث كانت قريش تحرص على إمداد المارين ببيت الله الحرام من مختلف الدروب بحاجتهم من الماء. وعلى الرغم من أن شرب ماء زمزم ليس من شعائر أداء فريضة الحج، فإن المسلمين يشربونه اتباعا لسنة الرسول (عليه الصلاة والسلام)[٤٣]، لذلك نراهم يملأون به الزجاجات والقوارير التى سيحملونها معهم إلى أوطانهم هدية، يعتقد من يشرب منها أنها تساعد على تحقيق بعض الأمنيات التى تجيش فى قلبه وروحه.





وسواء كنا فى مكة أو فى واحد من منازل الريف المصرى الممتدة على نهر النيل، فإن السقاء بقربته المصنوعة من الجلد الحيوانى التى يحملها فوق ظهره كان معروفا لجيل المصريين الذى عاش فى أربعينيات وخمسينيات هذا القرن (العشرين)، وكان يعد شخصية لها شعبيتها. هنا نرى الفنان أحمد فرحوت يعبر بالريشة عن إحساسة المرهف بأسطورة بئر زمزم، حيث رسم سقاء يصب الماء فى إناء لكى يقدمه لمن يريد. إلى جانب تذكيره المشاهد بهذه الحرفة التى انقرضت، أبدع فوق الحائط منظرا يصعب مقاومة إغرائه الفنى والجمالى على مستوى العالم كله. يؤكد هذه الحقيقة الرسم الكاريكاتورى الذى أضافه أحدهم، فى وقت لاحق، بين رجلى السقاء على سبيل التفكه.

إلى جانب نماذج صورة الكعبة المشرفة، هناك العديد من المواقع المهمة ضمن الحرم المكى التى يرسمها فنانو رسومات الحج، وإن كانت لا ترقى إلى مكانتها، مثل مقام إبراهيم الذى يحظى باحترام خاص لدى المسلمين، حيث يحتوى داخل قفصه الذهبى على قطعة من الحجر يقال إنها تحمل آثار أقدام سيدنا إبراهيم الذى كان يقف عليها عندما كان يبنى جدران الكعبة المشرفة.

هذا الأثر الزجاجى المحاط بأعمدة مطلية بالذهب، نادرا ما نراه مرسوما فوق واجهات بيوت الحجاج، لكن الفنان العبقرى على عيد ياسين صاحب الخيالات العظيمة وجد فيه مادة جعلته يعبر بالرسم المنشور على الصفحة المقابلة عن مدى قدرته على تحدى قدراته الابداعية، فبدلا من أن يرسمه مجردا رسم حوله ثمانية شخوص، وجعلهم يتحلقون حول المقام؛ أربعة منهم بلباس الإحرام التقليدى، أما الآخرون فألبس واحدا منهم الطاقية وأحاطها بالعمامة وألبس الثلاثة الاخرين الزى السعودى المكون من العباءة وغطاء الرأس (الغترة والعقال)، وكأنما أراد أن يجمع بين أداء شعائر فريضة الحج ودور المطوفين السعوديين فى إرشاد الحجاج إلى كيفية أداء مناسكهم.

تؤكد المعلومات أن الحكومة السعودية تدرب موظفين لمساعدة الحجاج على كيفية أداء الشعائر خطوة خطوة بشكل شرعى، بالإضافة إلى إكسابهم مهارات المعاونة فى الإشراف على بعض المسائل الإجرائية المهمة، مثل التنقل بين المشاعر المقدسة وتوفير أماكن الإيواء والخدمات العلاجية. هذا النظام يقضى بتكليف كل مطوف بمجموعة من الحجاج، ربما قصد إلى ذلك الفنان على عيد حين ركز على واحد منهم موحيا أنه يقوم بدوره الإرشادى، بينما ينصت الآخرون إليه باهتمام.

(٤٢) اختفى هذا النظام الذي ربما كان متعارفا عليه فى خمسينيات القرن الماضى وأوائل ستينياته، وحلت محله الخزانات البلاستكية المتناثرة فى كل مكان داخل المسجد الحرام وحول منطقة الطواف والسعى، والتى توفر الماء بلا انقطاع لكل من يدخل المسجد فى أى وقت وفى أى يوم من أيام العام. (المترجم)

(٤٣) يروى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) انه قال «ماء زمزم لما شرب له». (المترجم)


مقام ابراهيم



هذه السيدة العجوز (أعلى هذا النص) التى تعيش فى هدوء مع ذكرياتها فى إحدى القرى القريبة من نهر النيل جنوب محافظة المنيا، أدت فريضة الحج لأول مرة عندما كان عمرها يقترب من الستين، أما صورة الطائرة التى أقلتها إلى السعودية ثم أعادتها إلى مصر وكذا مشهد الكعبة محاطة بآلاف الطائفين فى ملابسهم البيضاء، فتعتبرهما من مقتنياتها الخاصة التى تذكرها برحلتها إلى الأراضى المقدسة.

لم يكتف الرسام بهذين النموذجين، بل أضاف إلى هذه الذكريات المفعمة بالحيوية بعض آيات القرآن الكريم التى تبعث برسالة واضحة للمسلمين ﴿ وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً ﴾[٤٤]. كما حرص على تدوين اسمها بشكل شخصى فوق مدخل البيت وإلى جواره عام ١٩٨٣ الذى قامت فيه بأداء الفريضة.

قبول هذه السيدة لدعوتنا أن نلتقط لها صورة فوتوغرافية، أضفى بعداً إنسانيا لهذه الجدارية المبهرة، خاصة عندما وقفت بصفاء فى هذا المكان أمام باب بيتها الضخم ويداها المعروقتان متقاطعتان فى محاولة منها للابتسام أمام الكاميرا

يهمنا فى هذا المقام أن نؤكد أن لوحة رسومات الحج بصفة عامة إذا كانت بسيطة أو مركبة، تحمل فى طياتها رسالة تقول إن الرحلة إلى مكة المُكلف بها المسلم قد تمت. لذلك ثبت لدينا أن بساطة الرسم الذى فى أعلى هذا النص تختفى تماما عندما نقارن بينها وبين هذا الرسم البديع الذى يتضمن رسومات عن الحج ودستة من رسومات أخرى تعكس صورة المحل التجارى الناجح. لوحة تجمع بين صور تفصيلية لشعيرة الحج، وصور للحياة اليومية فى الريف المصرى

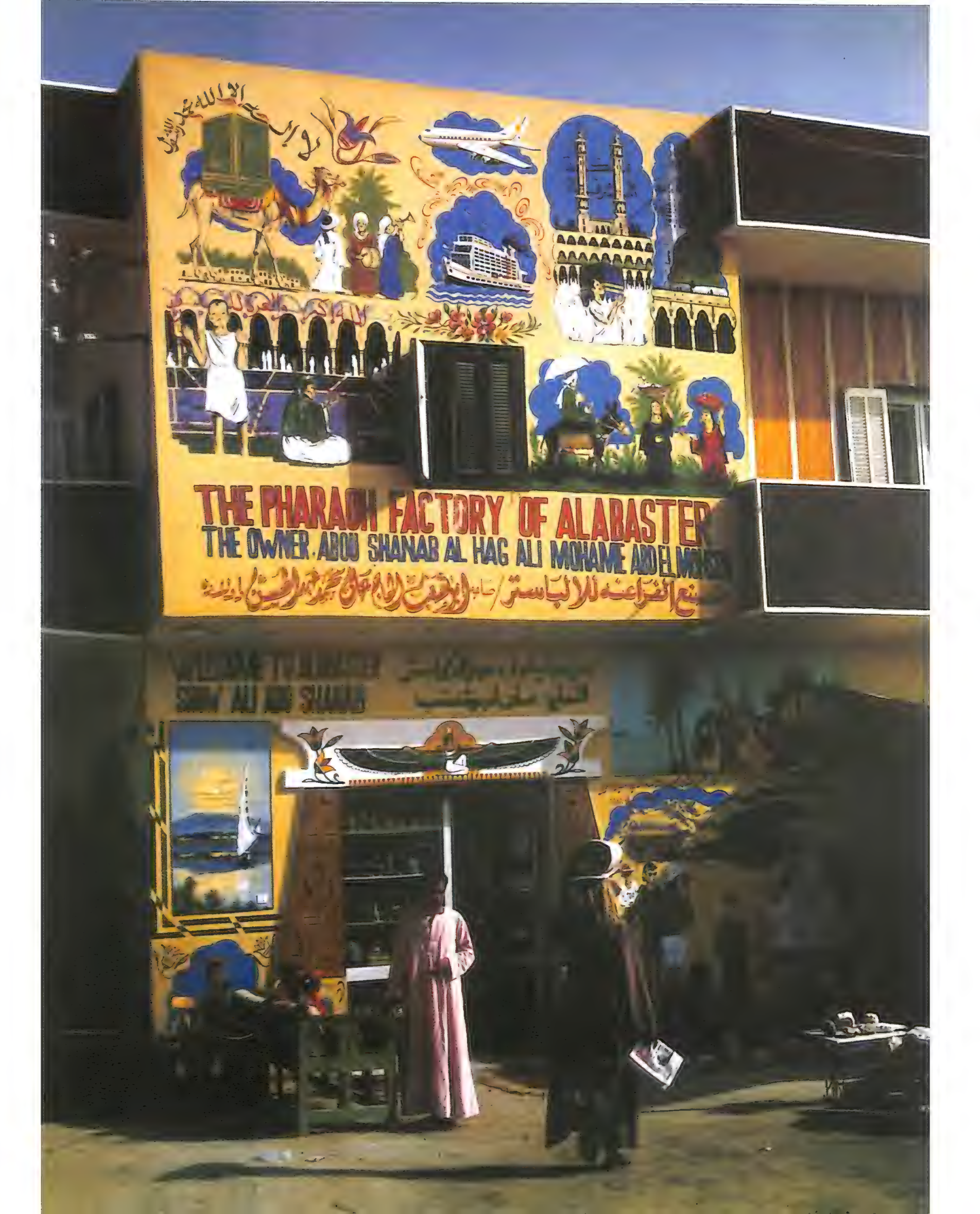
صورة اللوحة المنشورة على الصفحة المقابلة تعكس ظهوراً طاغياً لا يمكن أن تخطئه عين. إنها بلا شك عمل تم الترتيب له بطريقة نمطية مباشرة؛ واجهة غرفة المعيشة العلوية تحولت إلى لوحة خصصت لمشاهد الحج، باحتوائها على الجمل المتوقع والفرقة الموسيقية والطائرة والسفينة والكعبة وقبر الرسول (عليه الصلاة والسلام). أما واجهة المنزل الموازية للمحل التجارى المطلة على الشارع فقد زينت بأعداد كبيرة من الزهور وبتعويذة معدلة لجلب الحظ، رسمت فوق الباب، بهدف الدعاية التجارية، على أمل أن واجهة محل تحمل هذا القدر من الرسومات لا بد أن تجذب أنظار الزبائن.

إضافة إلى ذلك رسم الفنان على يسار مدخل المحل شخصا يدخن الشيشة، يبدو أنه صاحب الدكان. وفى الخلف ظهرت سيارة نقل سياح يقوم بعضهم بتصوير الرجل بكاميرا حديثة.

ربما للمكانة التى يتمتع بها الحاج اجتماعيا أو ماليا، كتب الرسام اسمه فوق هذه اللوحة المزدوجة المتكاملة ثلاث مرات (هناك احتمال أن ذلك جاء بناء على طلب شخصى من الحاج نفسه)، مرة فوق مدخل المحل واصفا إياه بأنه يرحب بزبائنه، والثانية على الحافة السفلية للوحة التى تزين الدور العلوى، أما الثالثة فجاءت مختلفة بعض الشىء لأن الفنان، وإن سجلها فوق صورته وهو يدخن الشيشة سعيدا بالصورة التى تلتقط له، أضاف إلى اسمه اسم والدته التى أدت معه الفريضة فى نفس العام (١٩٨٨).

ما يهمنا هنا أن اللوحة الخاصة برسومات الحج وما تضمنته من نماذج، تقص على المارين بالمكان من أبناء البلدة وغيرهم أن الرجل ميسور الحال صاحب المحل التجارى، أدى فريضة الحج مصطحبا معه أمه، وبذلك يكون كلاهما قد أقام الركن الخامس من أركان الإسلام ومن ثم أصبحا متساويين أمام الله.

(٤٤) من الآية رقم ٢٧ من سورة الحج، والتكليف هنا كان لسيدنا إبراهيم عليه السلام. (المترجم)


THE PHARAOH FACTORY OF ALABASTER
THE OWNER. ABOU SHANAB AL HAG ALI MOHAME ABD EL





عدد من لوحات الحج المرسومة فوق حوائط البيوت فى قرية الدير، مزينة (كما نرى فى الصورة العلوية لهذه للصفحة) برسم غير تقليدى لحمامتين ترقدان على عش للبيض فى مدخل كهف مغلق بشبكة من خيوط العنكبوت. هذه المشاهد المصورة تعتمد فى الأساس على قصة هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة فى ليلة مليئة بالأحداث الجسام يقال إنها وقعت مساء يوم ١٦ يولية عام ٦٢٢ ميلادية عندما خطط الكفار لقتله (عليه الصلاة والسلام)[٤٥].

شق (عليه الصلاة والسلام) ومعه أبو بكر - الذى يعد أقرب أصدقائه ومحبيه، طريقهما إلى الجنوب من مكة عبر الصحراء حتى بلغا غاراً (غار ثور) فى جانب الجبل حيث اختبآ فيه ممن كانوا يتبعونهما، وسرعان ما نسجت العنكبوت خيوطها حول فتحة الغار بينما بنت حمامتان عشاً لهما بجوار النسيج ووضعتا فيه بيضهما.

تقول سيرة الهجرة إن الكفار الذين خرجوا بحثا عن الرسول (عليه الصلاة والسلام) وصاحبه عندما بلغوا مكان الغار وشاهدوا عش الحمامتين ونسيج العنكبوت، تأكدوا أن أحداً لم ينفذ إلى الداخل[٤٦]. وهكذا نجا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مطاردة الكفار بحماية من ربه الكريم. من هنا أصبح العام الذى تمت فيه هذه الرحلة بداية التقويم الهجرى للمسلمين الذى يعتمد على الحساب القمرى لأشهر السنة، لأجل التفرقة بينه وبين التقويم المسيحى القائم على الحسابات الشمسية.

هذه الحادثة وغيرها من الوقائع المشابهة عبر عنها الفنان محمود العربى، الذى يعيش فى قرية إسنا بالقرب من نهر النيل، فى رسوماته، مع أننا لاحظنا أنها وعدداً غيرها من الأحداث التى ورد ذكرها فى السيرة النبوية المطهرة ليست من الموضوعات التى تشغل خيالات فنانى رسومات الحج. وعلى الرغم من ذلك فإنه يهمنا أن نشير إلى أن كثيراً من الوقائع التى تعيش فى وجدان المسلمين خصوصاً فى مصر وجدت طريقها إلى رسومات الحج فى أماكن أخرى من محافظات مصر، وبالذات تلك اللوحات التى رسمها الأخوان محمد وأحمد بشير فى بلدة ميناء غريب المطلة على البحر الأحمر.

الصورة السفلى (المنشورة على هذه الصفحة نفسها) التى نفذها الفنان ببساطة متناهية، مستخدماً اللونين الأبيض والأسود على خلفية بهت لونها الأزرق ثم أضاف اللون الأصفر ليجذب الانتباه إلى سقف الكعبة وديباجتها، وكذلك الإطار الذى تخيله للحرم المكى، يهيمن عليها خمسة عمالقة ذوو همة عالية يلبسون ملابس الاحرام، ثلاثة منهم يقفون فى ناحية والحاج (صاحب البيت) وربما زوجته يقفان فى الناحية الأخرى. يعكسون فى وقفتهم الجليلة الصورة القزمية لزحام الآلاف من الشخوص متناهى الصغر الذين يطوفون حول الكعبة. الشخوص الخمسة يرون الكعبة من زاوية فردية مائلة وشاهقة، لم تلتزم بقواعد النسبة والتناسب عند تنفيذ اللوحة. كما عرفنا قد يسافر بعض الجيران إلى مكة فى موسم الحج معاً، لذلك لما وضع فنانو رسومات الحج هذا الاعتبار فى أذهانهم، رأيناهم - أحيانا - يتعمدون رسم الحاج الذى تعاقد معهم أو تعاقدت معهم عائلته، مصحوباً بعدد من رفاقه وهم يؤدون جميعا شعائر الفريضة. والرأى عندنا أن الفنان عبد البارى خالد، المدرس الشاب المتميز، عندما انتهى من رسم هذه اللوحة المتألقة، أثبت أنه يملك مقومات تحويل جدار بيت يتسم بالخشونة إلى جدارية حج رائعة من الطراز الأول. أما الزوجان اللذان يظهر رسمهما ضمن العمالقة الخمسة على يسار اللوحة، ونراهما فى الصفحة المقابلة يجلسان هادئين لالتقاط صورة فوتوغرافية لهما داخل بيتهما، يبدو فيها الرجل مرتديا الصديرى الريفى الشهير، والمرأة متشحة - كما هى العادة - بالسواد، فتذكرنا بالصور التى كانت تنشرها كتب السفر والرحلات إبان القرن التاسع عشر الميلادى.

الأمر الجدير بالتنبيه، أن المقارنة العادلة بين جدارية واجهة البيت الخارجية وبين اللوحة التى تشكل خلفية الزوجين فى حجرة الدار الداخلية، تبين بشكل قاطع أن أشعة شمس صعيد مصر الحارقة حولت اللون الأزرق الذى كان يمثل خلفية الجدارية الخارجية إلى لون شبيه بالأبيض. أما اللوحة الداخلية فما زالت تحتفظ بألوانها. وخصوصا السيدة التى تغطى رأسها بالغطاء الأبيض وترفع يديها بالدعاء. أما من يدقق النظر فى الجدارية الخارجية فسيلاحظ بلا عناء أن العوامل البيئية وربما كثرة احتكاك المارة بالجزء الأسفل منها، أعادتها إلى لونها الأصلى الترابى الخشن.

---

(٤٥) أعلم الله (عز وجل) نبيه (صلى الله عليه وسلم) بمكر الكفار وكيدهم ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (الأنفال/٣٠) وأمره بالهجرة، فأطلع صديقه أبا بكر على الأمر. ورتب معه لاستئجار دليل يأخذ راحلتيهما الى غار ثور جنوب مكة، على أن يلقاهما هناك بعد ثلاث ليال. (المترجم)

(٤٦) تقول كتب السيرة إن بعض المطاردين لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) اقتربوا من فتحة الغار إلى درجة أن قال أبوبكر للنبى : «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا». ويروى القرآن الكريم أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) رد عليه قائلا : ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ (التوبة/ ٤٠). (المترجم)


بسم الله


الإمام
على بن أبى طالب
كرم
الله وجه

هذه اللوحة المثالية التى عثرنا عليها من إبداع الفنان أحمد فرحوت، مرسومة فوق واجهة أحد منازل قرية الشرفا التى تقع على الجانب الآخر من نهر النيل فى مواجهة محافظة المنيا. تعد من التحف النادرة، لأننا لم نعثر على نموذج حيوى يحاكيها ضمن رسومات الحج الأخرى، ربما توجد تنويعات محدودة لنفس الفكرة فى بعض قرى الريف المصرى، لكن بتصميمها هكذا نؤكد أنها مفردة. الشخص الذى يحتل منتصف اللوحة بنظرته الثاقبة التى تشع من عينيه السوداوين وشاربه الغليظ الذى يوحى بالسطوة، هو أحد مؤسسى الدولة الإسلامية العظام. إنه على بن أبى طالب ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وزوج ابنته فاطمة (رضى الله عنها).

سيدنا على يظهر فى الصورة مرتديا ملابسه المتأنقة، بينما زبيبة الصلاة التى يعتبرها المسلمون برهان التقوى والورع والصلاح تبدو فى مقدمة جبهته، يقف إلى جانبيه ولداه الحسن والحسين متحفزين وأيديهما على سيفيهما مستعدين للدفاع عن عقيدتهم ضد أى خطر يتهددها. الجدير بالذكر أننا عثرنا على صورة مطبوعة تشبه تلك المرسومة فى هذه اللوحة معروضة للبيع على الأرصفة بسعر رخيص فى سوق القرية القريب، مما يشير إلى أن الورقة المطبوعة ربما تكون هى المصدر الذى أوحى برسم الجدارية.

حكوا لنا أن حادثة مهمة جعلت شخصية الإمام على راسخة فى مخيلة فنانى رسومات الحج المصريين، وذلك عندما نام مكان الرسول ليلة أن خطط كفار مكة لقتله (صلى الله عليه وسلم)، قبل أن يهاجر مع أبى بكر إلى المدينة [٤٧]. المهم أن الله أنقذ عليا من القتل المحقق ليكون رابع الخلفاء الراشدين، وليؤسس أنصار ولديه الحسن والحسين فيما بعد المذهب الشيعى الإسلامى.



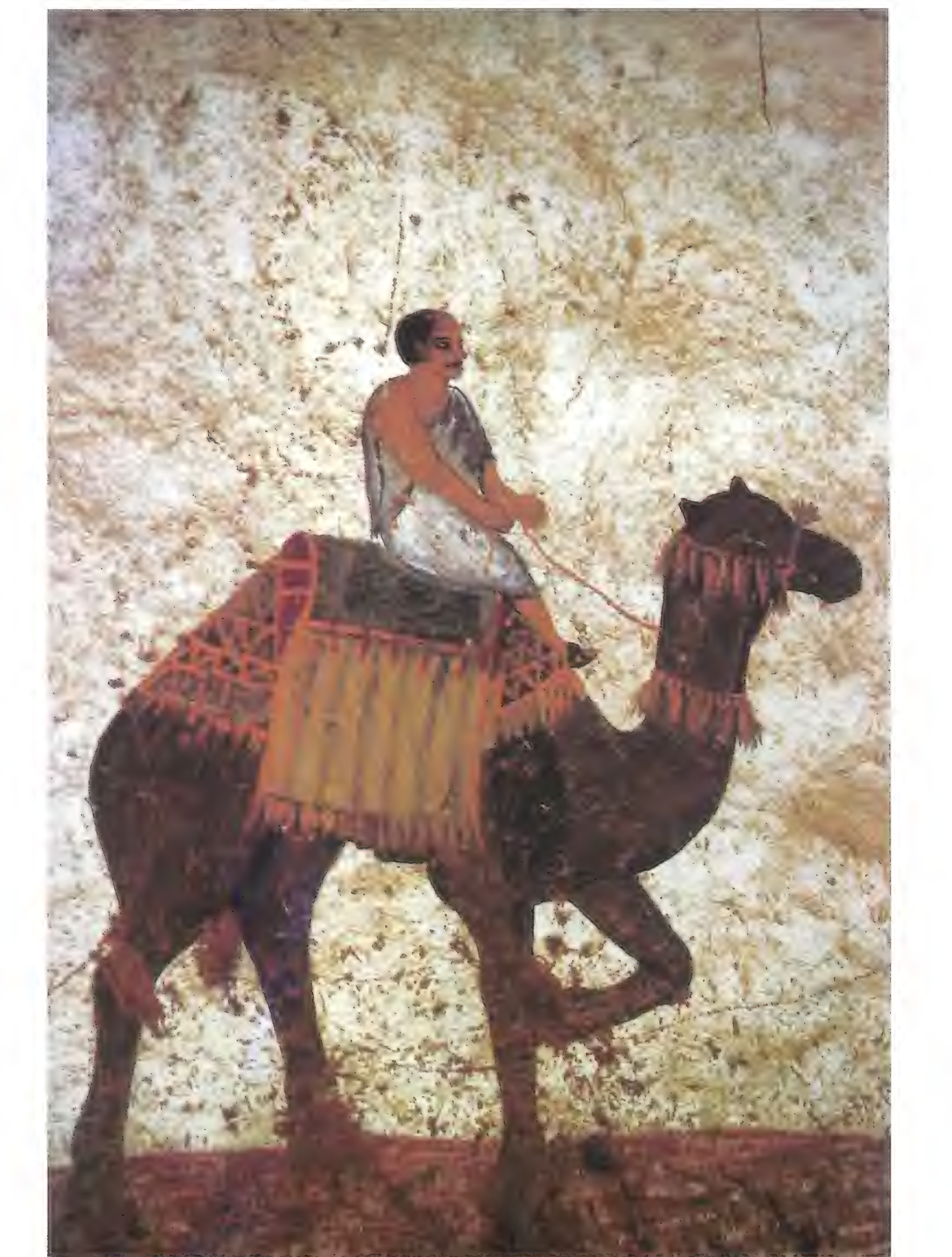
(٤٧) تقول كتب السيرة إنه لما حان موعد خروج الرسول (صلى الله عليه وسلم) لملاقاة صاحبه أبى بكر أمر ابن عمه على بن أبى طالب بالمبيت مكانه. فلم يقع الشك فى وجوده أثناء الليل من جانب الكفار المحيطين بالدار، وقد سجاه ببردته. وخرج (صلى الله عليه وسلم) على القوم وهو يقرأ قوله تعالى ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ (يس/٩). (المترجم)

جبل عرفات

ذروة الحج تنعقد كل عام عشية عيد الأضحى عندما يقف نحو مليونى حاج معًا فى صعيد واحد، أمام جبل الرحمة فى عرفات، متجهين إلى الكعبة المشرفة رافعين أكف الضراعة إلى الله سبحانه وتعالى. فى نفس هذا المكان وقف الرسول (عليه الصلاة والسلام) وألقى آخر خطبه، مؤكدًا بقوة على حقيقة الأخوة بين بنى الإنسان، تلك الأخوة التى تعكسها شعيرة الحج التى يؤديها المسلمون فى هذا المكان منذ ذاك الحين وحتى يومنا هذا. كل مشارك فى هذا التجمع يجد نفسه مُتَشربًا بالعاطفة الروحية التى تشمل الجمع كله فى نفس الوقت الذى يخلد فيه إلى مشاعره الخاصة ودعواته الشخصية الخالصة لله. القوة الجبرية التى تفرض على الحاج أن يخلو بنفسه وسط هذا المحيط الهادر من الرفاق، تلخصها الأبعاد الروحية التى يفرضها هذا المشهد غير المعتاد.

نلاحظ فى هذا الرسم المنشور على الصفحة المقابلة للرجل العملاق الملتحى الذى يلبس ملابس الإحرام ويتوجه إلى جبل الرحمة، أن الفنان تعمد أن يرسم " الحاج " فى عزلة تأملية، لذلك جعله يقف برشاقة على صخرة ملساء وزرع عند قدميه مجموعات مبعثرة من الحجاج المتعبدين الذين امتلأت بهم خيام الوادى الذى يفصل بين عرفة ومزدلفة.







اللوحات الأربع المنشورة على هذه الصفحات عثرنا عليها فوق واجهات عدة منازل للحجاج مبعثرة فى قرية سلوى بحرى قام برسمها فنان واحد هو على عيد ياسين، وكلها ذات صلة، وفق الطراز الشعبى البسيط الذى تمثله، باللحظة الأكثر عاطفية فى الرحلة إلى مكة، والتى يعتبرها غالبية المسلمين قمة شعيرة الحج، ونعنى بها الوقوف بعرفات.

يتجه كل مسلم قصد السفر إلى مكة لغرض أداء فريضة الحج، فى اليوم الثامن من الشهر الثانى عشر (ذى الحجة) وفق التقويم القمرى للمسلمين إلى جبل عرفات الذى يبعد عن مكة حوالى ١٢ كيلو متراً ناحية الشرق. وإذا لم يتمكن أحدهم من الوصول إلى هناك قبل ظهر اليوم التاسع[٤٨]، فإن عمله غير مقبول وعليه أن يعيد الكرة فى عام قابل.

فى زماننا الحالى يشاهد المرء مواكب لا نهاية لها من السيارات ووسائل النقل العامة، تزدحم بها الطرق الموازية التى شقتها المملكة السعودية خصيصاً بهدف تيسير وصول الحجاج من مكة إلى عرفات فى هذا اليوم بالذات. أما فى الأيام الخوالى عندما كان القادمون للحج إلى مكة يحسبون بعشرات الألوف، وليس بالملايين كما فى الوقت الراهن، فقد كانت رحلتهم إلى عرفات تتم سيراً على الأقدام أو فوق ظهور الإبل والخيول.

صورة اللوحة المنشورة على الصفحة السابقة تذكرنا بالماضى البعيد، فها هو الجمل العربى ذو الغطاء المزركش يتهادى نحو نهاية رحلته حاملا فوق سنامه هذا الحاج الذى يجلس باطمئنان مرتديا ملابس الإحرام.

يحرص الحجاج بعد أدائهم صلاة الفجر فى جامع نمرة فرادى أو فى شكل جماعات صغيرة من الأصدقاء والمعارف، على التعبد والذكر وهم فى مواجهة جبل الرحمة ليتذكروا خطبة الوداع التى ألقاها الرسول عليه السلام فى مثل هذا اليوم منذ مئات السنين، ويقضون بقية يومهم فى صلاة ودعاء حتى تغرب الشمس.

ويقصد الفنان بالخيام الثلاث التى رسمها فى سفح جبل الرحمة ضمن اللوحة المنشورة أعلى هذه الصفحة، التعبير عن مدينة الحجاج الهائلة الاتساع التى تغطى كل شبر بين الجبل والوادى على امتداد النظر.

---

(٤٨) إذا أدرك الحاج عرفة قبل الشمس فى اليوم التاسع من ذى الحجة فحجه صحيح على أرجح الأقوال.


لبيك اللهم لبيك



الحاج الذى لا يستطيع تحمل لهيب أشعة الشمس خلال وقوفه بجبل عرفات يمكنه أن يتخذ مجلساً فى ظل أى شىء، أو أن يستعين بمظلة لحماية نفسه من قسوتها، وعلى الرغم من ذلك يمكن أن تتحول الطاقة التعبدية إلى دافع للوقوف هكذا، كما فى الرسم المنشور على الصفحة السابقة، طوال فترة أداء الشعيرة. اللوحة توحى بأن الحاج المستغرق فى تعبده يمد يديه إلى الله متضرعاً، بينما الابتسامة تملأ وجهه. تأكيداً لهذا الشعور أحاط الفنان رأسه (الحاج) بالكلمات التى تتكرر مئات المرات على مدار الساعة طوال أيام الحج " لبيك اللهم لبيك".

تعبيرا عن قيمة الأخوة والمحبة التى تبلغ ذروتها بين الواقفين على جبل عرفات فى هذا اليوم العظيم، قام الفنان على عيد برسم اثنين من الحجاج يحتضن كل منهما الآخر، فى الرسم المنشور على هذه الصفحة، أحدهما شديد السمسرة، والآخر يميل لون وجهه إلى البياض، للبرهنة على المساواة الإنسانية المرتكزة على وصايا الرسول (صلى الله عليه وسلم). ولم يكتف الفنان المبدع بهذا، بل عمد إلى توسيع هذا المفهوم المفعم بالحيوية، حيث نراه قد أحاط الرجلين بكلمة "حج " التى كتبها على شكل دائرة ضخمة، قاصداً القول إن احتضان الحاجين لبعضهما البعض بهذه الكيفية تُعد اعترافاً منهما بقوة الرابطة التى أصبحت تجمع بينهما، يجعل الآخرين يدركون المضمون الروحى للعلاقة الأخوية التى نراها فى اللوحة حيث تقول الرسالة الكاملة " حج مبرور وذنب مغفور ".



على الرغم من أن الوقوف بعرفات يُعد أهم شعائر فريضة الحج، فإنه لم يحظ بنفس القدر من الأهمية لدى فنانى رسومات الجداريات على بيوت الحجاج. لذلك يمكن القول إن ما نراه متناثراً منها بين الحين والآخر فوق قلة من بيوت محافظات مصر التى تتزين بهذه الرسومات، إنما يُنفذ بناء على رغبة عائلة الحاج صاحب البيت.

ويعد الفنانان على عيد ياسين وأحمد حسن فرحوت استثناءً بين أقرانهما من هذه القاعدة، حيث أبدى كل منهما من خلال ما نفذه من رسومات (بعيداً عن ساحة الآخر) اهتماماً برسم هذه المشاهد، تميزاً عن نظيره خاصة فى أسلوب التناول، على الرغم من وحدة المنبع الذى يستقيان منه خطوات أداء الشعيرة.

وبينما يتميز فرحوت وفق أسلوبه فى التعبير " بالجسارة " سواء فيما يتعلق بحجم شخوصه واختياره لألوانه التى يصبغها عليهم، يميل عيد عند تصميم لوحاته إلى"الشاعرية". من هنا يمكن أن نصنف فرحوت بأنه أحد فنانى المدرسة الطبيعية من ناحية الطراز والقدرة على الإنجاز؛ وهو هنا فى هذا المثال المفعم بالحيوية، فى الرسم المقابل على اليسار، يعرض رسمين يكمل أحدهما الآخر، واستغل نافذة البيت التى تطل على الشارع ليفصل بينهما؛ فى أولهما (إلى اليسار) رسم رجلاً يجلس فوق سجادة صلاته فى ثوبه القرمزى، متضرعاً إلى الله دون أن يوضح لنا ما إذا كان صاحب هذه الجلسة المتعبدة يسأل الله، أن ييسر له زيارة الكعبة أم أنه يشكره لأنه عاد منها سالما. وعلى الجانب الآخر من النافذة، التى لونها الفنان باللون الأزرق، رسم شخصاً رافعاً يديه إلى الله وهو فى ملابس الإحرام - ربما قصد به التركيز على حالة التطهر التى يكون عليها الحاج - وعلى مبعدة منه رسم ما يمكن وصفه بجبل الرحمة، وحول سفحه عدد من الخيام.

الجدير بالإشارة أن الفنان توج الرسمين المنفصلين المتكاملين فى نفس الوقت، بجمل تعبدية شديدة التأثير فى كل من ينظر إلى هذه اللوحة المبهرة كتب بجوار رأس الجالس فوق سجادة صلاته دعاء كأنما يجرى على لسانه "يارب سترك ورضاك "، أما فوق رأس الحاج القريب من جبل عرفات، فكتب الجملة التى لا يمل الحجاج من ترديدها " لبيك اللهم لبيك "، وحرص على كتابة الكلمات بأسلوب فعال مستخدما ثلاثة ألوان نافذة التأثير هى الأبيض والأسود والأحمر.


يارب

منى

عيد الأضحى، الذى شرعت العقيدة الإسلامية لحجاج بيت الله الحرام الاحتفاء به فى منى، له جذور عميقة فى القصص الدينية التى جاء ذكرها فى الإنجيل[٤٩] ونعنى بذلك قصة نجاة إسماعيل[٥٠] من الذبح على يد أبيه إبراهيم. فى جانب من مدينة إسنا داخل شارع صغير يسير موازيًا لنهر النيل عثرنا على مجموعة رائعة من رسومات الحج التى عمرت أكثر مما عاش الفنان عبد الرازق الذى أبدعها.

رسم هذا الفنان، فوق حائط نافذة مسيجة بالحديد، واحدة من أحب تخيلاته، وهى قصة سيدنا إسماعيل مع أبيه سيدنا إبراهيم. على الصفحة المقابلة نرى الأب يستعد لتنفيذ مشيئة ربه، بينما الابن يبدو وهو معصوب العينين مستسلمًا غير متذمر فى انتظار اللحظة الحاسمة. وقبل أن تمتد السكين إلى نحره يمد الملاك جبريل، الذى رسمه الفنان فى هيئة أنثوية، رغم مخالفة ذلك للنص القرآنى[٥١]، ليسحب السكين من يد الأب ويقدم له كبش الأضحية ليذبحه بدلاً من ابنه. ولم يكتف الفنان بذلك بل كتب فى مساحة من اللوحة تقع بين رسمى إبراهيم وجبريل كلمات القرآن التى تقول: ﴿ وفديناه بذبح عظيم﴾[٥٢].

من المحزن أن مثل هذا الرسم الفنى البارع بزخارفه المتألقة، لن يحتفظ بنضارته إلا لفترة محدودة فقط، وبعدها ستتعرض ألوانه للذبول ثم تمحى كلية بفعل عوامل الطقس والإهمال. غالبية هذه الأعمال التى عثرنا عليها، بعيدًا عن الطرق المألوفة والتى تخص الفنان عبد الرازق، نادرًا ما يشاهدها أحد من خارج التجمعات الريفية القريبة منها.

نشرنا على الصفحتين ١٧٦- ١٧٧، عملاً آخر للفنان عبد الرازق شبيهًا بهذا العمل ولكنه أكثر ثراءً فى تفاصيله وألونه، عثرنا عليه مرسومًا على واجهة منزل يبعد عدة أميال عن موقع الجدارية المنشور صورتها فوق الصفحة المقابلة.

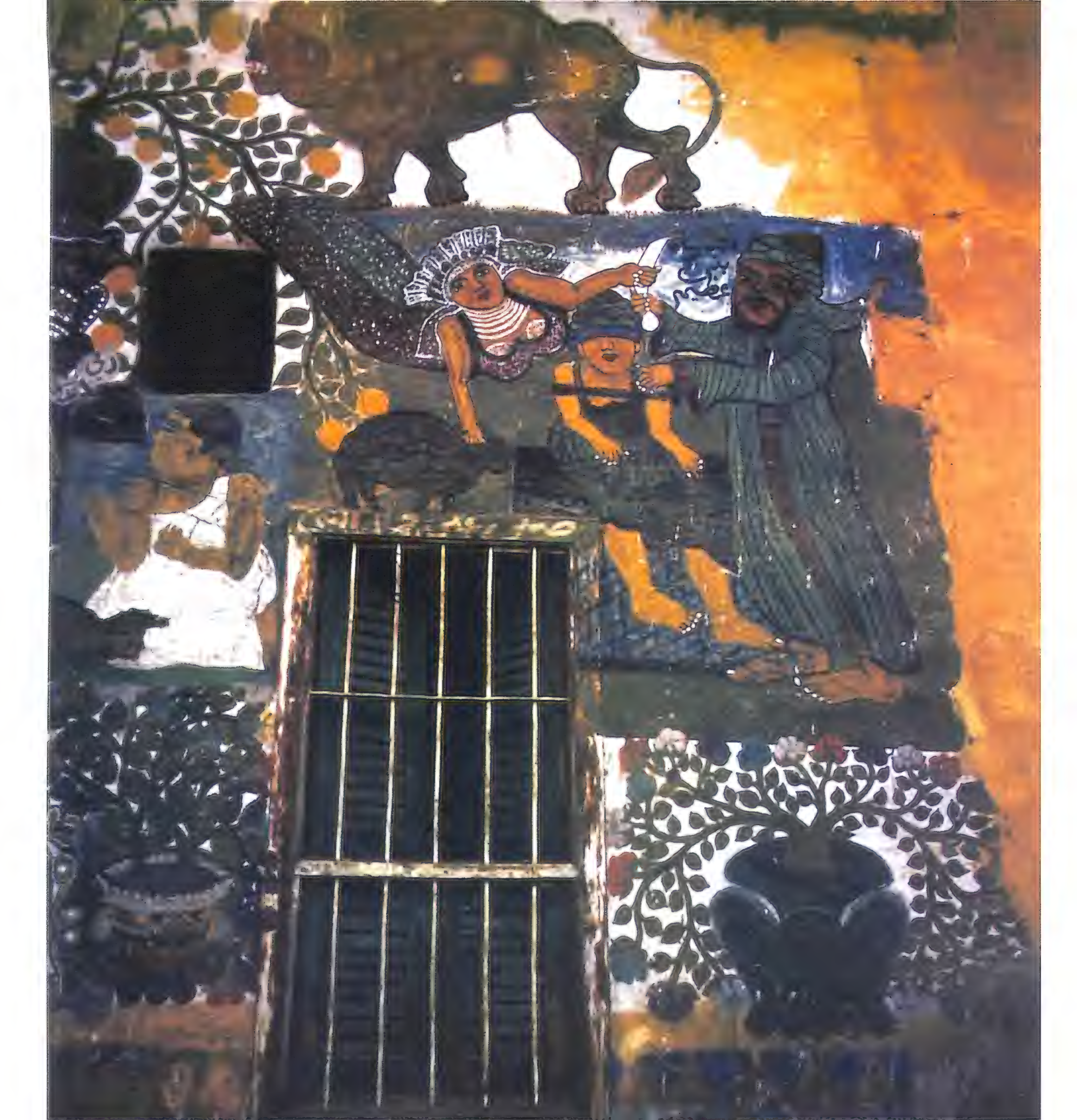
...سالة إلى العبرانيين الإصحاح ١١ الآية ١٧ «بالإيمان قدم إبراهيم إسحاق وهو مجرب. قدم الذى قبل المواعيد وحيده». (المترجم)

...سحاق عند المسيحيين. (المترجم)

...روى عن بعض الصحابة (ومنهم ابن مسعود) أنه إسحاق، والرأى الراجح عند أغلبهم (ومنهم أبن عباس) أنه إسماعيل.

...قوله سبحانه: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما﴾ (الإسراء / ٤٠). وأيضا: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون﴾ (الصافات/ ١٥٠). (المترجم)

...١٠٧ من سورة الصافات.



بعد أن يتم القادم إلى مكة لأداء فريضة الحج شعيرة الوقوف على جبل عرفات، يصبح من حقه أن يسبق اسمه بلقب " حاج " أو " حاجة " طوال السنوات الباقية من عمره أو عمرها، وأن يبدأ فى نفس الوقت حياة " مجددة ". ورغم الإجهاد الشديد يسارع الحجاج بحيوية روحية متوثبة إلى اجتياز مسافة يصل طولها إلى أربعة أميال تقريبا تفصل بين جبل عرفات ومزدلفة، هذه النقلة الإيمانية تحول الوادى إلى بحر هائل يموج بالحجاج الذين يقضون ليلة أول أيام عيد الأضحى فى مدينة الخيام بين الراحة والتعبد، وعليهم أن يقتدوا برسول الله (عليه الصلاة والسلام)، وأن ينسوا - إلى حين - ما قد يشعرون به من نصب وكد، لكى يستكملوا خطواتهم إلى منى للقيام بشعيرة رجم إبليس.





هذا الجزء من رحلة الحج المقدسة يتطلب منهم أداء سنة رمى الجمرات التى هى عبارة عن ثلاثة شواهد تمثل غواية الشيطان. يكلف المسلم برجمها بعدد من الحصوات الصغيرة.

أبدع الفنان فوق جداريتين رسم هذه الخطوات المتميزة من شعيرة الحج. لوحته الشاملة الممتدة فى أعلى هاتين الصفحتين تبين مجموعة متتابعة من الحجاج يرتحلون عن جبل عرفات الذى كتب فوقه " جبل الرحمة " قاصدين مدينة الخيام فى مزدلفة، قبل أن ينطلقوا فى اليوم التالى لأداء شعيرة رمى الجمرات فى منى. أما جانب اللوحة الأيمن فخصصه الفنان لرسم حلقة من الحجاج رسمهم وهم يقومون برمى الحصوات على موضع الجمرة الأولى، باعتباره إيماءة رمزية لمحاربة الغواية، ولمزيد من الايضاح كتب الفنان فوق الرسم " رمى الجمرات ".

وعندما ننظر إلى الرسم المنفرد المنشور على الجزء الأسفل من الصفحة المقابلة، فسنلاحظ أن الفنان اعتنى برسم التفاصيل الصغيرة " لحاج " يجثو خارج خيمته ليجمع بعناية ٤٩ حصاة، تمهيداً للقيام بشعيرة رمى الجمرات على امتداد الأيام الثلاثة التالية لوقوفه فوق جبل عرفات.



وفديناه بذبح عظيم
جبريل عليه السلام
كبش الفداء
ابراهيم الخليل عليه السلام
اسماعيل عليه السلام



أما رؤية الفنان فرحوت لقصة الفداء ورموزها فتظهر فى اللوحتين المنشورتين على الصفحة السابقة إلى اليمين، وفى أعلى هذا الكلام فى الأولى تظهر جدارية تعد من بين اللوحات القلائل التى صمدت فى مواجهة الزمن !! ربما لأنها رسمت على حائط البيت الداخلى بقرية الشرفا.

تكرر رسم هذه الرؤية فوق جداريات أخرى يظهر فيها الملاك جبريل فى صورة ذكورية، على رأسه إكليل وله شارب كث، وقد تمكن من شل يد سيدنا إبراهيم، الذى كان مصمماً على طاعة ربه، قبل أن تلامس السكين رقبة ابنه إسماعيل. والرسالة واضحة لأن أمر الذبح جاء من عند الله، كما أن النجاة جاءت من عنده أيضا. أما الابن إسماعيل، الذى يبدو فى الصورة مستسلماً لمصيره وهو معصوب العينين، فيجلس راضياً فوق المذبح الذى تقول الروايات إنه ساعد فى تجهيزه. أما الكبش الذى أمر الله أن يفتدى به إسماعيل فيظهر فى الصورة ممسوكا بيد الملاك جبريل.

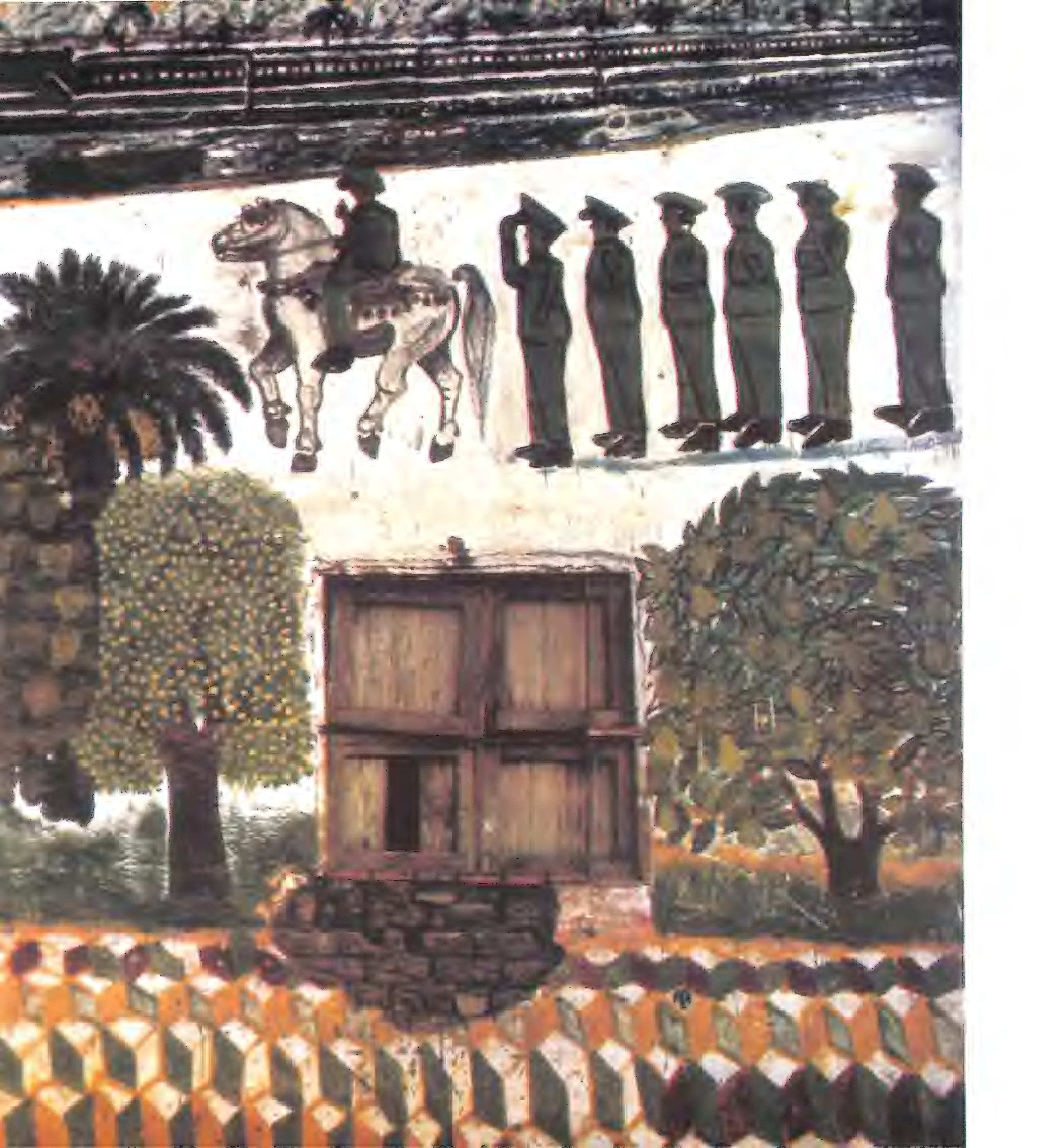
اهتمام الفنان فرحوت بالتفاصيل جعله يصنع للملاك جبريل جناحين ويغطى رأسه بتاج ويلبسه سروالاً وصدرية، أما النبى إبراهيم فألبسه جلباباً وعباءة من العصور القديمة، وأحاط وجهه بلحية كثيفة. أما قرار الفنان بأن يرسم الكبش مرتكزا على حافة الشباك العلوية، فجاءت فى رأينا من قبيل تذليل العقبات التى ربما ثبطت همته عندما رأى هذه النافذة لأول مرة، ولأنه فنان محترف مدرب على تخطى المعوقات، تمكن - وفق نظريته - من اجتياز العقبة بحرفية عالية.

الجدير بالملاحظة أن صورة جبريل والكبش وإسماعيل وإبراهيم، تركت بلا تعريف محدد لاكتشاف فطنة المشاهد ومستوى معارفه.

عند المقارنة بين هذه الجدارية والثانية المنشورة أعلى هذا الكلام، والتى عبرت عن نفس الحادثة، سنلاحظ أن الثانية تتصف بالإبهار والبدائية والبساطة، حيث جاء رسم الملاك وكبش الأضحية كافيين لاستعادة الحادثة كاملة، الكبش ذو النظرة الوديعة، يقترب من شكل الفرس الصغير أكثر من كونه من عائلة الأغنام !!

أما الملاك جبريل الذى رسمه الفنان فى صورة أنثوية ووضع على رأسه الإكليل وزينه بالمجوهرات وألبسه الزى الريفى، فنراه يمسك الذبح العظيم بحوافره وليس بيديه.

جمالية هذه اللوحة التى أبدعها الفنان الموهوب ناظر المدرسة محمد عمر، تفسرها اللوحة التى قامت عليها شهرته، والتى رسم فيها دابة البراق المجنحة (على الصفحتين رقم ١٨٠ / ١٨١) وكلتا اللوحتين تبين بجلاء إدراكه الحسى غير المعتاد لطبيعة الملاك جبريل.



هذه التحفة المنشورة على بقية هذه الصفحة والصفحة المقابلة، والتى تعد استمراراً لجداريات الحج التى أشرنا إليها فى الصفحتين ٢٠و ٢١، وهى من إبداع الفنان عبد الرازق، ربما لم يعد لها وجود، لأننا عندما تعرفنا عليها عام ١٩٨٨ كانت مؤشرات التدمير قد بدأت تظهر عليها، ولم تفلح العلاجات المؤقتة فى توفير مزيد من الحماية لها.

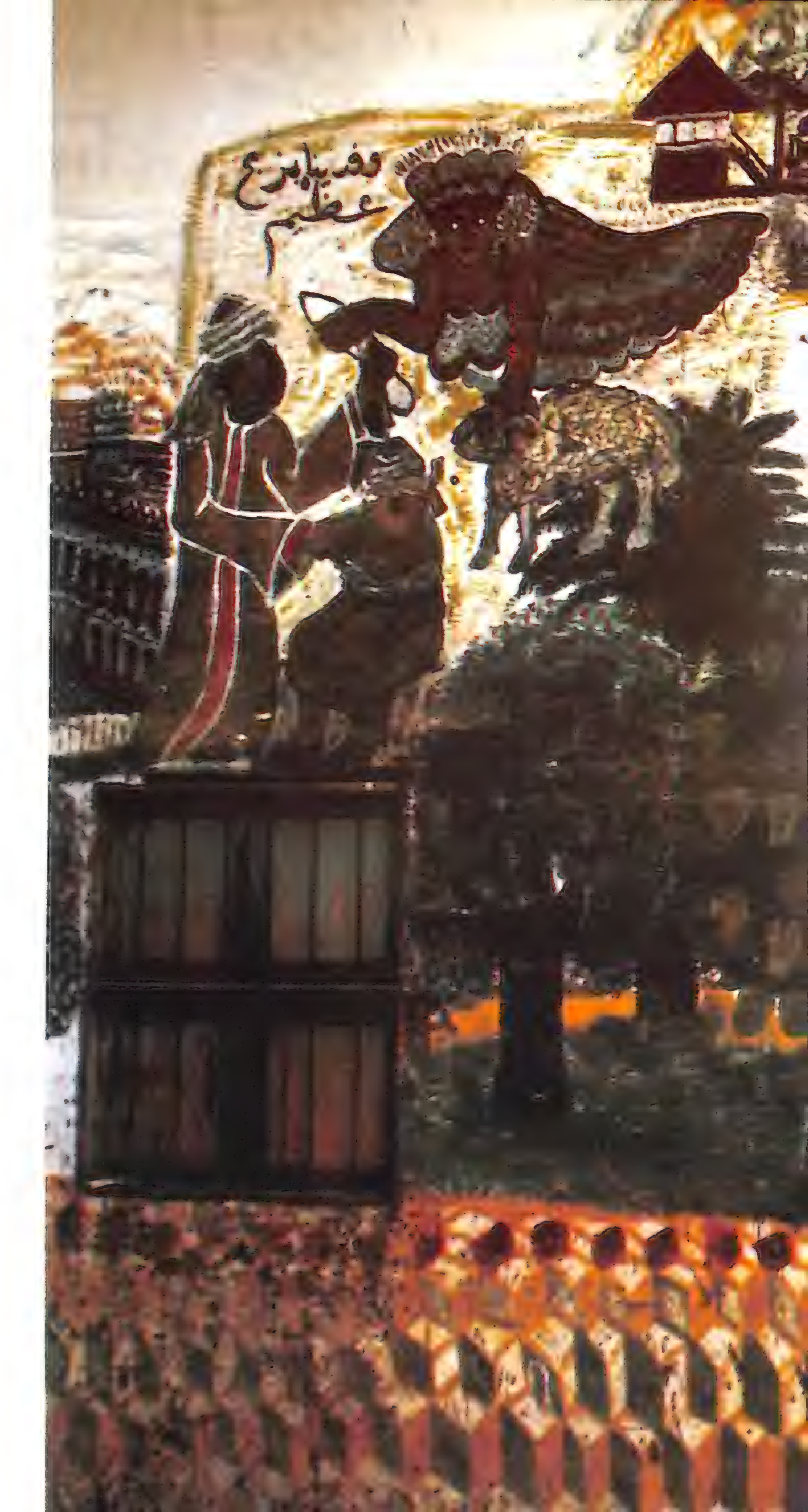
على الرغم من أن تقليد رسم جدارية على حوائط بيوت هؤلاء الذين قاموا بأداء فريضة الحج فن يواصل ازدهاره وانتشاره، ويلاحظ المتخصصون أن إبداعاته الجديدة تتفتح على خيالات فنية مستحدثة، فإن زوال عمل بهذه الروعة أو فقده يبعث على الحزن لدى من يعرف قيمته !!

هنا نلمس العديد من العوامل التى تضافرت معاً لكى تحول هذا البيت الريفى التقليدى إلى حديقة عدن مضاف إليها نكهة مكية لا نظير لها. فى أعلى اللوحة رسم الفنان قطاراً يعمل بالبخار، ولكنه واقف عند رصيف محطة السكك الحديدية، حيث تقف أيضا السيارات الخاصة وسيارات النقل الجماعى لكى تحمل المسافرين الهابطين منه لنقلهم إلى حيث يشاءون.

علية القوم يمثلهم فى اللوحة المجموعة العسكرية التى يترأسها ضابط وخلفه اثنان من المساعدين ومجموعة من الجنود البدناء الذين يقفون متصلبين فى ناحية من المحطة، أما الركن الأيسر العلوى فخصصه الفنان لحادثة سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل، حيث نرى الملاك يتقدم فى الوقت المناسب لينقذ الابن المتجلد من أن يُضحى به، أما " الفداء " الذى رسمه الفنان على هيئة خروف غزير الصوف، فيبدو أقرب إلى لعبة أطفال رقيقة منه إلى كبش قصد به الأضحية المتعارف عليها.

فى الجزء الأمامى من هذه اللوحة الشاملة، أبدع الفنان مجموعة كبيرة من الشجيرات المورقة التى توحى بكثافة نخيلها المثمر، والتى تنافس الأشجار المثمرة فى المنطقة المعتدلة الاستوائية !!

عند النظر إلى هذه اللوحة عبر الممر المترب الذى يقود إلى داخل البيت، يجد الناظر إليها أن ألوان خضرتها الطازجة وسخاء شخوصها كأنما هى سراب، يحاول شخص مجبول على المحبة أن ينفخ فيه الروح. أما اللمسة الفنية الأخيرة للفنان، التى لوحظ لدينا أنها متأثرة - إلى حد ما - بخط القاعدة الذى يحرص عليه الرسامون الطليان، فجاءت هندسية جاذبة للنظر، وعلى الرغم مما بذل فيها من جهد صادق، فقد حكم عليها الزمن بالانقسام نتيجة الفجوة التى أصابت أسفل النافذة المتهالكة، والتى كشفت مدى خشونة وصلابة وحدات الطوب النيئ الذى يتشكل منه الجدار.





هذا الرسم الصغير الذى نراه منشوراً على اليسار رغم افتقاده للكثير من القواعد الفنية، يحمل فى طياته عملاً فنيا نادراً يعبر ببساطة متناهية عن خدمة تقديم ماء زمزم لحجاج بيت الله الحرام. هذه الخدمة لا نرى رسومات كافية تعبر عنها ضمن رسومات الحج سواء نظرنا إليها من زاويتها الدينية أو من زاويتها الأخلاقية التى تحض على الكرم والجود. هذا الرسم يصور سقاء ملتحياً شاحب الوجه، يلبس جلباباً أسود مرتقاً ويستند على عصا موصولة عوضاً عن ساقه اليمنى الخشبية، يقدم كوباً من ماء زمزم الذى يحمل قربته فوق ظهره، إلى هذه الشابة منشرحة الصدر، التى سألته أن يسقيها فقدم لها ما تحتاج إليه وطلب منها أن تصلى على النبى.



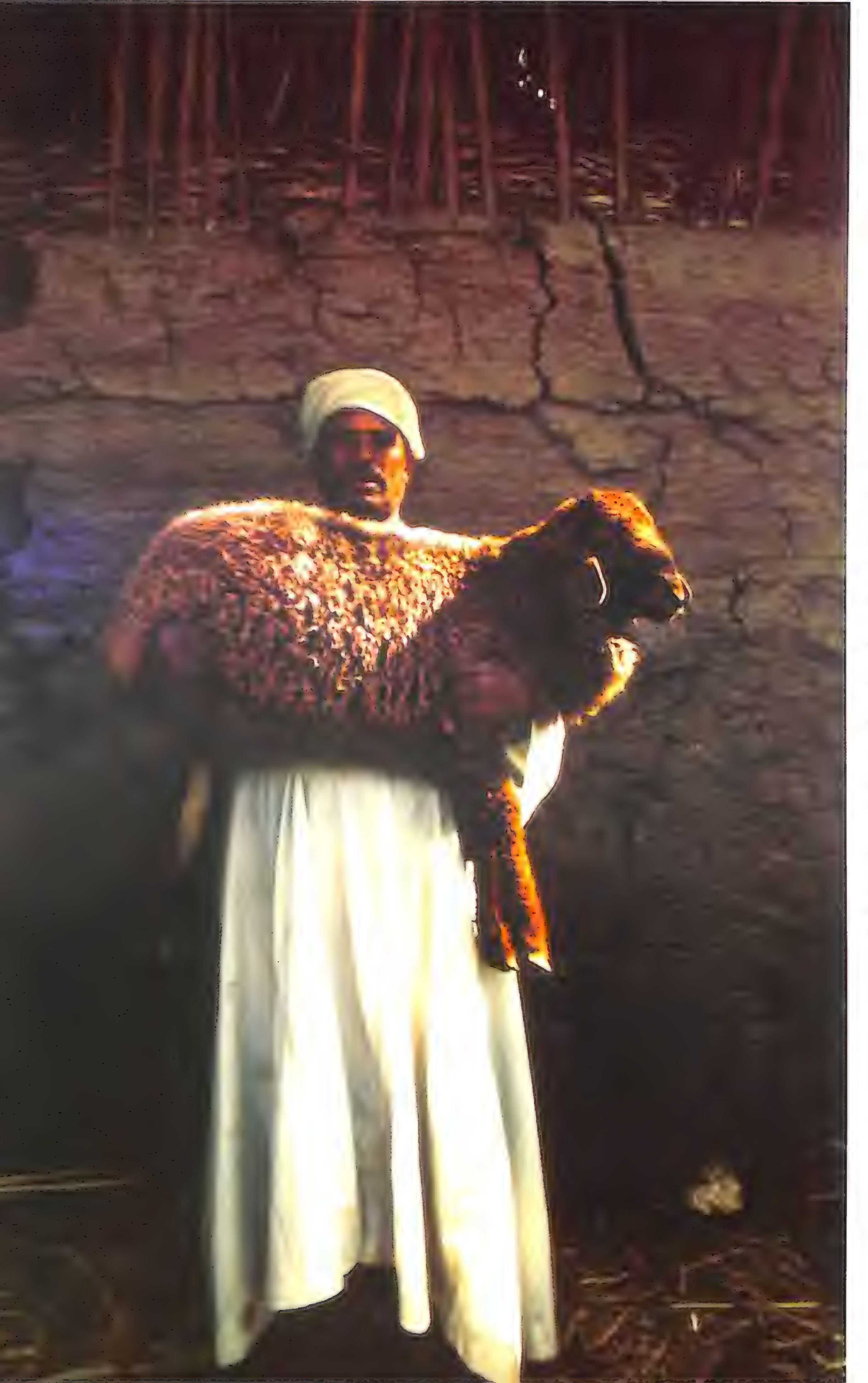
الفنان البورسعيدى الذى أبدع اللوحة التى فى أعلى هذا الكلام، تزدحم رسوماته بالعديد من رموز الحج وشعاراته، خاصة أنه يضمنها صورة حديثة وأخرى تاريخية. وتُعد حادثة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل واحدة من موضوعاته المفضلة، وهنا نلاحظ أنه قام برسمها بحساسية شديدة.

هذه اللوحة - وإن كانت تبدو اليوم باهتة الألوان تغطيها طبقة من التراب - تصور لنا النبى إبراهيم شيخاً مهيباً ذا لحية رمادية، وهو يهم بالتضحية بابنه إسماعيل من زوجته هاجر، الذى رسمه الفنان فتًى فى سن مبكرة يجلس معصوب العينين غير مبال بما سيجرى له؛ بدليل أننا نراه عاقداً ذراعيه أمام صدره منتظراً القضاء المحتوم، ما زالت تعكس المعنى العظيم وراء هذه القصة الدينية، وربما حرص الفنان على إلباس الأب وابنه الملابس البيضاء لكى يوحى بدرجة التطهر التى هما عليها فى موقفهما هذا.

فى أعلى اللوحة من جهة اليسار نرى ملكًا فى رداء أحمر يمد يده فى اللحظة المناسبة لكى يمنع المأساة التى توشك أن تقع ويفتدى الغلام بكبش سمين، ويؤسس لشعيرة الأضحية التى يلتزم بها المسلمون كل عام.

خلفية اللوحة الجدارية تهيمن عليها وسيلتان من وسائل التنقل التى يستخدمها الحجاج ؛ إحداهما قطار السكك الحديدية أو الحصان الحديد كما يصفه أهل الريف المصرى، والذى ينفث الدخان من فوهته حيث يربض مطلقًا صفير بلوغه نهاية الخط، الذى حوله الرسام إلى بالون «كارتونى» كتب داخله اسمه "طه شحاته". أما الوسيلة الثانية فهى الجمل أو سفينة الصحراء كما يعرفها العرب، والذى اندثر استخدامه منذ عشرات السنين بعد أن كانت المئات منه تأتى من مصر ثم تعود إليها من الحجاز حاملة فوق ظهورها الحجاج. فى مقدمة قافلة الجمال نرى جمل المحمل الذى يمسك بمقوده بدوى يرفع سيفه معلنًا بلوغه نهاية المطاف. جمل المحمل دون غيره من الجمال الأخرى مغطى برداء مزركش، لأنه يحمل فوق ظهره قطعة من كسوة الكعبة الشريفة ونسخة من القرآن الكريم.

تتميز الرسومات التى تزين بيوت الحجاج على مستوى دلتا نهر النيل سواء فى القرى أو المدن، بأنها ما زالت تحمل بصمات الطابع التقليدى الضرورى الذى يفرض نفسه على هذا الفن الشعبى ربما فى حده الأدنى. بعض من هذه الرسومات المتناثرة هنا وهناك يُنفذ بتعجل يشير إما لمحدودية خيال الفنان رغم حرفيته، وإما لعدم استحقاقه القيام بهذا العمل بداية. وعلى الرغم من ذلك يمكن من وقت لآخر العثور على عمل بسيط ولكنه مبهر وفاتن وأصيل، ينبثق فجأة كاشفاً الستار بوضوح عن بعض الإبداعات الفنية الدينية الجديرة بالتسجيل.



تقع أيام عيد الأضحى المبارك بين اليوم العاشر واليوم الرابع عشر من شهر الحج أو ذى الحجة(٥٣) كما يسمى فى التقويم السنوى الإسلامى. فى الوقت الذى يكون فيه الحجاج فى منى. لذلك يحرص كل واحد منهم على أن يضحى بحيوان أو طائر ليس فيه عيب أو شائبة. جمل أو خروف أو ماعز أو حتى دجاجة لمن لا يستطيع أن يضحى بأضحية كبيرة. هذا الذبح الرمزى لا ينظر إليه بوصفه إراقة للدماء. ولكن باعتباره "عطاء" أو " مشاركة " سخية يقدمها القادر للفقراء والمعوزين. وفى بعض الأحيان يستعاض عن الأضحية بتقديم المساعدة بوصفها نوعا من الهبة الخيرية. وبينما يقوم الحجاج بأداء هذه الشعيرة فى منى، يحرص معظم المسلمين فى مصر وفى غيرها من الدول الإسلامية على القيام بها أيضا.

إلى جانب الاحتفاء بالأضحية، تتوزع أيام العيد بين العبادة والصلاة ومشاركة أفراد العائلة والأصدقاء فرحتهم بتناول الأطعمة والحلوى وتبادل الهدايا.

هذا الخروف المتين الذى يبدو فى الصورة إلى يسار هذا الكلام اشتراه صاحبه من سوق الماشية الأسبوعى الذى يقام بجوار مدينة الأقصر، ثم قام بذبحه أضحية. وبعد أن وزع الجزء الأكبر منه على الفقراء والمحتاجين قامت سيدات العائلة بطهى لحمه وجبة رئيسية فى أول أيام عيد الأضحى.

---

(٥٣) عيد الأضحى ينتهى فى اليوم الثالث عشر من ذى الحجة.



فى بعض الأحيان، ربما لأسباب شخصية أو وجدانية، يعمد الفنان إلى تضمين رسوماته التى يصممها لوصف رحلة الحج إلى مكة المكرمة، المهنة التى يشتغل بها الحاج احتفاء بعودته. الرسم أعلى هذا الكلام، والذى يجمع - كما نرى - بين الدعاية للمهنة ورموز الحج، يصور جزاراً أدى فريضة الحج عام ١٩٨٨. ربما تكون فكرة اللوحة نفسها قد نبعت من الرجل نفسه، حيث نراه يقوم بعملية توضيب اللحوم، موضحاً - كما تقول الجملة القريبة من قرمة التقطيع والسكين - " اللحمة الحمراء ".

فى مشهد غالباً ما يتكرر داخل أى محل جزارة فى كل قرية مصرية، قام الفنان فرحوت برسم السبية الخشبية التى يعلق عليها الجزارون أجزاء الذبيحة الكبيرة، أما المصور الفوتوغرافى فقد أضاف إلى الصورة كثيراً من الواقعية، عندما حرص على التقاط صورة اللوحة مضافا إليها الميزان الذى يستخدمه الجزار لوزن الكميات التى يبيعها، ومصباح "النيون" الكهربائى الذى يبدد ظلام الدكان.

أما طريقة الرسم البدائية التى نفذ بها الفنان رمز الكعبة المقدسة، وما سطره حولها وفوق المساحة البيضاء التى خففت من مساحة اللون الأسود الذى يحدد نموذجها من آيات قرآنية[٥٤]، فتؤكد - كما قلنا - أن " المعلم سالم " قد أدى فريضة الحج. اللافت هنا اللون الأخضر الذى أضافه الفنان على الكسوة، لأنه ليس من الألوان المشهورة فى مثل هذه اللوحات. لا ندرى هل قصد به الفنان التعبير عن محبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث يشار إلى قبة مسجده فى المدينة بهذا اللون، أو أنه تعمد إضافته تخفيفا للون الأسود، خصوصا وأن اللوحة مرسومة فوق حائط دكان الجزارة الداخلى.

بهذه المناسبة نقول إن اللون الأخضر، المفضل بين ألوان الملابس اليومية التى يلبسها المصريون، كما نرى صورة المعلم سالم أعلاه وهو متشح بكوفية خضراء ناعمة، كان فى بعض مراحل الدعوة الإسلامية هو لون العلم الذى يرافق المحاربين فى صفوف الرسول (صلى الله عليه وسلم).

ربما قصد الفنان باختياره لهذا اللون أن يُذكر الناظرين إلى رسمه، بشكل حضارى، بالأيام العظيمة التى كان المصريون يقومون فيها بنسج كسوة الكعبة المشرفة ثم يحملونها فوق أسنمة قافلة كبيرة من الابل إلى مكة المكرمة.

(٥٤) من الآية ٢٧ من سورة الحج.

يعد الفنان أحمد حسن فرحوت من بين الفنانين الذين يجتهدون فى العثور على أفكار ليست مختلفة فقط، وإنما مناسبة كذلك للتعبير عن روح فريضة الحج الدينية. وخير مثال على ذلك الرسم الرائع الذى صور فيه آدم وحواء (صفحة رقم ١٦٨)، ولوحته التى صور فيه الحسن والحسين يحرسان والدهما العظيم سيدنا علياً كرم الله وجهه (صفحة رقم ٩٤ و٩٥)، حتى رسوماته المرتبطة بالحياة اليومية فى الريف المصرى الذى صور فيه أحد الجزارين وهو يقوم بعمله (صفحة ١١٥) تُعد بكل المقاييس من اللوحات المتميزة.

أما عمله المنشور إلى أسفل هذا الكلام، فيمكن القول إنه نفذه بناء على طلب هذه السيدة الشابة التى أنجبت حديثا أول أطفالها، فجاء تحفة منفردة تحكى مشهداً من صميم الحياة، حيث نرى أماً شديدة السعادة وهى تجلس برضا تام ترضع وليدها من صدرها، وإلى جوارها زجاجة تحتوى على خلطة من الألبان الصناعية، ربما لمساعدتها فى إكمال وجبة الطفل الذى يبدو فى صحة جيدة.

كلمة يا رب العظيمة التى كتبها فرحوت بخط هائل وبكيفية عظيمة ولونها باللون الأسود، ثم وضع تحتها رجاء إنسانيا وإسلاميا أيضاً يقول "سترك ورضا" كتبه بخط أصغر وأرق ولونها بنفس اللون الأسود، تحمل اعترافاً بفضل الله وقدرته والحرص الدائم على مرضاته.

يرجع سبب تمتع هذا الرسم البدائى الذى أسميناه "مريم والطفل" بالبهاء والرونق، إذا ما قارناه بآخر يمثل الميلاد الروحى لرب البيت بعد عودته من رحلة الحج، إلا أنه رسم فوق حائط إحدى حجرات بيت العائلة الداخلية. ربما لهذا السبب أيضا استطاع أن يقاوم عوامل البيئة والإهمال؛ مما ساعده على أن يبقى تذكاراً متواصلا لمفهوم بداية الحياة الجديدة، التى لها صلة مباشرة أيضا بأداء فريضة الحج.



ما زالت غالبية النسوة فى ريف مصر يرتدين ملابسهن التقليدية، على الرغم من دخول أسباب الحداثة الأخرى إلى حياتهن. لذلك يمكن عند التعرف على جذور هذه العادات تحديد المناطق الجغرافية التى ينتمين إليها، حتى بعد هجرتهن من قراهن الريفية إلى الحضر. فى أيام العطلات سواء كانت قومية أو دينية ترتدى النساء أغلى ثيابهن وحليهن وغيرها من أنواع الزينة التى يحتفظن بها خصيصا لمثل هذه المناسبات. هذه الملابس بديعة الألوان، وما يلحق بها من أنواع، زينة تضفى أناقة وحضورا على وجود النسوة ضمن أى احتفال خارج بيوتهن.

بعد أن حصلنا على موافقة الزوج وترحيبه، وقفت هذه القروية الجميلة المتواضعة أمام الكاميرات لكى تعبر لنا عن فرحتها بعيد الأضحى. وقفت بدأب ومثابرة يظلل جبينها غطاء الرأس الذى حيكت حوافه بالخرز ذى اللونين الأبيض والقرمزى. وقفت تملأها ثقة المرأة التى استحقت هذا الاهتمام بشكل شخصى من غرباء يمثلون العالم الآخر. علينا أن نلاحظ هذه النظرة شديدة الاعتداد بالنفس التى انطلقت من عينيها بهذه المناسبة الجديرة بالتذكر.

هل أبوح لكم بسر؟ قبل أن تقف هذه السيدة وقفتها هذه قامت هى وغيرها من أفراد أسرتها بإعداد وجبة الغداء الشهية التى عمادها لحم الأضحية، استعدادا لمشاركة المسلمين فى منى وفى أرجاء العالم الإسلامى نفس الطقوس التى يتطلبها الاحتفال بهذا العيد.



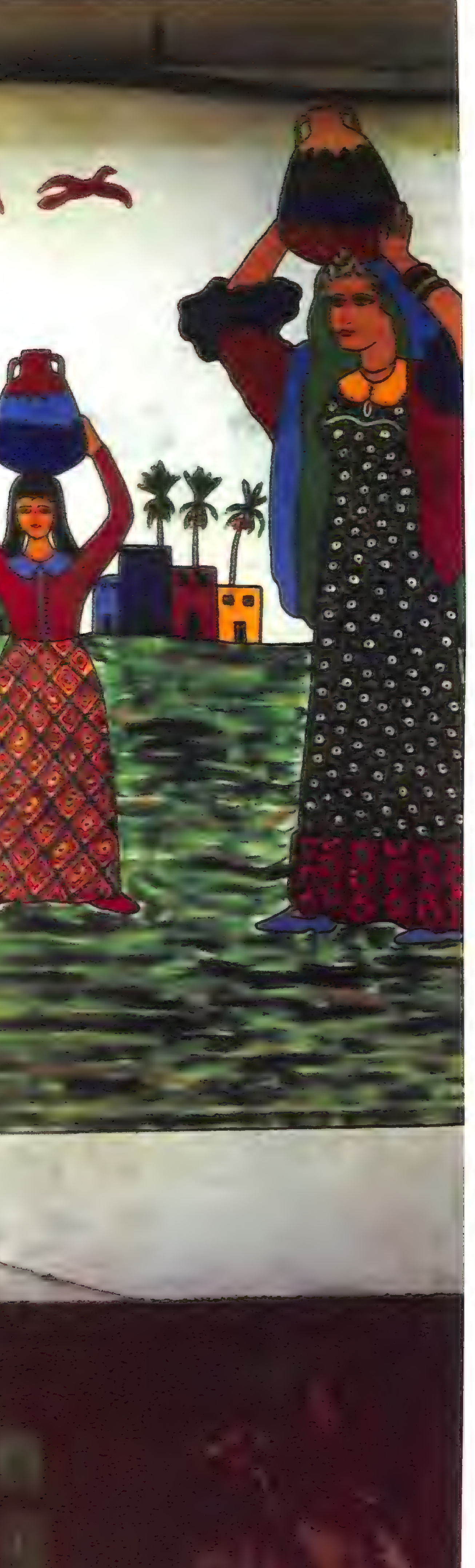
زيارة المدينـة المنـــــــــورة

يعد مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة ثانى أحب الرموز التى تستهوى فـنانى رسـومـات الحج، وعلى الرغم من أن زيارة ثانى أقدس المساجد عند المسلمين بعد الكعبة المشرفة ليست من بين الشعائر المتمة لفريضة الحج، فإن قضاء عدة أيام للتأمل والتعبد فى مسجده (صلى الله عليه وسلم) تُعد مـن الأمــور الباعثة على اكتساب المزيد من الروحانيات، لذلك يلاحظ حرص العديد من الحجاج على قضاء ثمانية أيام فى المدينة المنورة إذا توفر لهم الوقت والمال، وذلك لكى يؤدوا أربعين صلاة داخل هذا المكان.

هذه الحاجة التى تبدو صورتها على الصفحة المقابلة تتذكر دائمًا صلاتها فـى مسجد الرسول (عليه الصـلاة والسلام) كلما نظرت إلى اللوحة التى تقف تحتها المرسومة داخل منزلها بمدينة السويس والتى تمثل كتابًا يذكرها دائمًا بمشاهد عاشتها هناك. أما الرسام الذى يظهر توقيعه فوق الرسم فقد تعمد عـرض رؤيته الدينية بالتركـيز على المسجد النبوى وعبر عن ذلك بحديثه (عليه الصلاة والسلام) " من زار قبرى وجبت له شفاعتى ".

أما عبوات الجبس الأبيض التى تظهر فى الصورة عن يسار السيدة فربما يكون الغرض منها إما القيام بإصلاحات مطلوبة، أو بتوسعة تطلبها حاجات الأسرة، كلاهما ربما يشوه هذه اللوحة أو يطمسها تمامًا.


من زار قبري
وجبت له
شفاعتي



غالبية القادمين إلى مكة المكرمة يحرصون من بداية تفكيرهم فى قضاء فريضة الحج على زيارة المدينة المنورة. أما فنانو رسومات الحج فتجدهم جميعاً مغرمين برسم قبة المسجد النبوى الخضراء ومئذنتها التى يحوم حولها الحمام. وتتميز أيام زيارة مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأنها تقضى فى الصلاة والتعبد والتأمل، لذلك لا نندهش حين نعرف أن المسلمين دائماً يكونون مستغرقين بعمق أثناء صلاتهم فى هذا المكان الطاهر.

هاتان الصورتان تعكسان نموذجين من إبداعات فنانى رسومات الحج، نفذهما اثنان من أهم هؤلاء الرسامين فى مصر : على عيد ياسين و أحمد الطيب.

من يدقق النظر فى الصورة الأولى وهى لحاج معتزل (أسفل هذا الكلام)، رسمه على عيد فوق حائط حجرة بيت داخلية، وألبسه العباءة العربية الموشاة بالخيوط الذهبية، التى لا تستعمل إلا فى المناسبات، ووضع على رأسه العقال والغترة، سيلاحظ أن الفنان أجلسه متعمداً فوق سجادة مرسوم عليها مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليحقق تواصله الدائم مع المسجد النبوى الشريف بعد عودته من أداء فريضة الحج.

رهافة الصورة قللت كثيراً من خشونة الحائط الذى رسمت فوقه، لكن مياه الأمطار التى تسربت من سقف الحجرة وتركت لونها البنى فوق الحائط واللوحة توحى بأن يد الإهمال ربما تمتد قريباً للنيل منها.

على العكس من ذلك ركز أحمد الطيب فى الصورة الثانية (المقابلة) على أدق تفاصيل البناء المعمارى : فإلى جانب الرسم الهندسى البديع للمسجد بقبته الخضراء كتب حديثين شريفين يحضان على زيارته ويؤكدان شفاعته (صلى الله عليه وسلم) لمن قام بالزيارة، وفى أعلى الشباك أجلس هذا الحاج التقى ذا اللحية البيضاء فوق سجادة للصلاة ممسكاً بالقرآن الكريم، وكتب على لسانه آية تتحدث عن صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم)[٥٥].



(٥٥) الآية ٢١ من سورة الأحزاب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما بين قبري ومنبري روضة من
رياض الجنة وقال من زار قبري
وجبت له شفاعتي
صدق رسول الله صلى الله عليه
وسلم...

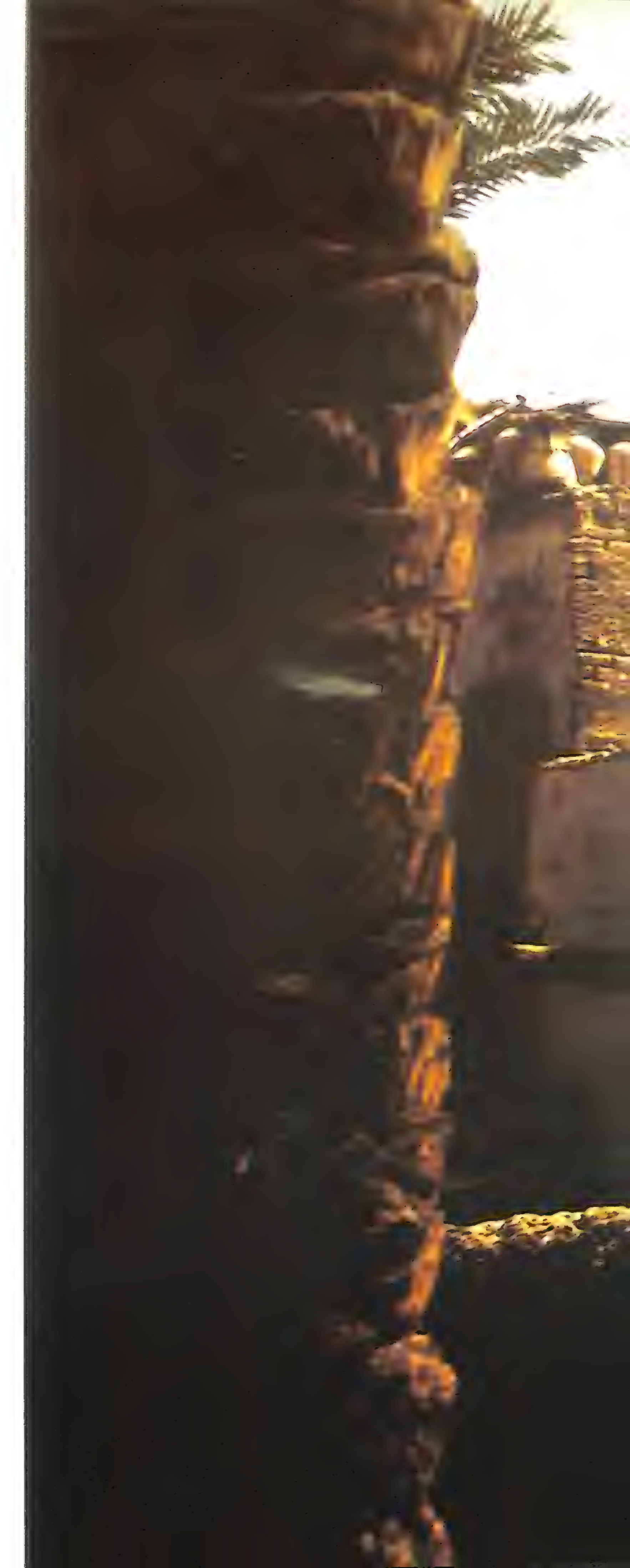
قال تعالى لقد كان لكم في رسول الله
أسوة حسنة لمن كان يرجو الله
واليوم الآخر
وزكر الله كثيرا
صدق الله العظيم



هذه الجدارية المركبة ذات الومضات اللؤلؤية فى موقعها من البيت الريفى، الذى طليت حوائطه بالطمى غيرالمتساوى ولم يكتمل طابقه العلوى، والذى أحاطته الصورة الفوتوغرافية بجذعى نخلتين سامقتين، من فتنتها التى لا يلاحظها معظم المارين بالمكان، البيئة خالية من أية عناصر جمالية تحيط بها.

اللافت للنظر أن الفنان على سعيد، مثله فى ذلك مثل غيره من معظم فنانى التراث الشعبى من المصريين الذين تضىء أرضيات لوحاتهم الألوان الفاتحة، يحرص على إضفاء رؤية منعشة ومبهجة على إنتاجه الفنى. وربما يكون الرجل شديد الاهتمام بما يبدعه غيره من الفنانين المنافسين فى القرى الأخرى، ولكنه ليس متأثرا بما ينتجونه، لأنه يبدو عنيداً وملتزماً لأسلوب متفرد فى تصميم رسومات الحج.

اللوحة الملونة التى يبدعها سعيد ترضى كثيراً من الأذواق، لما تحتويه من انطباع طفولى برىء ومبهج. وإلى جانب مركزية المسجد النبوى على مستوى ما ينفذه من لوحات، والذى يرسمه دائما محاطا بتقسيمات تحتوى على رموز تعبر عن رحلة الحج، الجمل ذى السنام وسيارات النقل الجماعى المكعبة، يحرص الفنان على رسم وسيلة النقل الخيالية مطلقة السرعة التى حملت النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء السابعة فى رحلة الإسراء والمعراج، ونقصد بها " البراق "، تلك الدابة الأسطورية التى جاء ذكرها فى السيرة.





مشاهد الرجال والنساء وهم يؤدون صلواتهم تعكس سلسلة واسعة من تجارب فنانى رسومات الحج. هذا الحاج الذى يجلس للعبادة بمفرده، يعد نموذجا لحالة الصفاء التى يبدو عليها المسلمون الورعون. الحاج الذى يرتدى جلباباً تقليدياً لونه أزرق غامق، يركع على ركبتيه مبتهلاً إلى الله فوق سجادته التى يميل لونها إلى الاحمرار. نظرة الرجل غير المترددة - كما رسمها الفنان - تخترق جانبى الشباك فى اتجاه زهرية النبات الضخمة، التى رسمها فى الناحية الأخرى اعترافا منه بقدرة الله. أما عين الرجل اللوزية الشكل فقد وضع الفنان عليها لمسة بارعة من اللون الأبيض غير الشفاف الذى لون به عمامته الكبيرة نوعا ما.

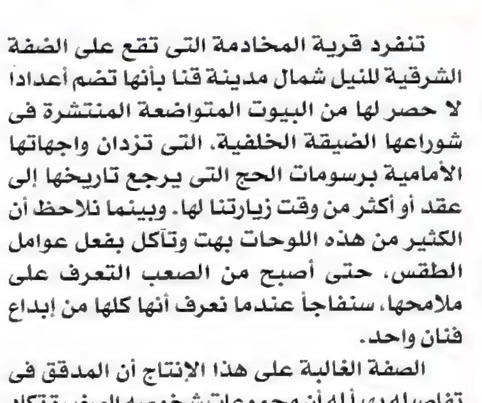
يلاحظ أن الفنان لم يكتف برسم العين وفق القاعدة الفرعونية، بل مد قدمى الرجل تحت مقعدته وبسط كتفيه على نفس القاعدة القديمة. هذا الأسلوب يؤكد الصلة العميقة بين رسومات الحج فى تاريخ الفن المصرى الحديث والفن المصرى الضارب فى أعماق التاريخ. أما اليد التى تظهر بالكاد فى الصورة وتحمل بين أصابعها مسبحة، فتعبر عن حالة التقوى النفسية التى تشمل الرجل.

واحد من الأسئلة المثيرة التى بحثنا لها عن تفسير، فيما يتعلق برسومات الحج، تمحور حول كيف يوظف الرسام قدراته الخاصة للإمساك بالفكرة التى يعبر بها عن أحاسيسه؟! وكانت الإجابة أنه دائما ما يبدع ضمن إطار ما يراه مناسبا من وجهة نظره، ربما لهذا السبب أصبحت مشاهد الصلاة اليومية عند المسلمين هى الأكثر استحضارا، لما تعكسه من إيماءات موحية وما تعكسه من علاقات إيمانية بين المسلم وربه، بالإضافة إلى إمكانية تنفيذها فى وقت معقول.

نلاحظ فى الرسم الذى عثرنا عليه فوق حائط داخلى لمنزل مطلى بالجبس بإحدى قرى شمال أسوان والمنشور على الصفحة المقابلة، أن الفنان المحلى النوبى نفذه برسم مجموعة من الخطوط ذات اللمسات السريعة. هذه البساطة تعكس تعبيرا يحمل فى طياته تذكيرا هادئا وعميقا برحلة الحج التى قامت بها هذه السيدة التى تبدو راكعة فى الرسم.

الغطاء الذهبى اللون الذى تصنعه فوق رأسها، ودرجة لون جسمها الداكن فرضا على الفنان أن يلجأ إلى هذه البساطة التى ساعدته على أن يخفف من حدة العتمة التى تبعثها الظلال الآتية من الممر المؤدى إلى داخل البيت. يلاحظ على الصورة حالة من الصفاء الروحى اللامتناهى التى يزيد من عمقها بصمة كف اليد اليمنى المطبوعة أسفل الرسم من جهة اليمين مثل هذه النماذج البدائية التى تنفذ باستخدام الطمى أو الدم أو الألوان يطبعها ابناء النوبة ليس فقط على الواجهات الأمامية لبيوتهم، ولكن ايضا وبكثرة فوق شواهد قبور الموتى، باعتبارها وسيلة يعتقد أنها تسهم فى إبعاد الشيطان أو طرده.





تنفرد قرية المخادمة التى تقع على الضفة الشرقية للنيل شمال مدينة قنا بأنها تضم أعداداً لا حصر لها من البيوت المتواضعة المنتشرة فى شوراعها الضيقة الخلفية، التى تزدان واجهاتها الأمامية برسومات الحج التى يرجع تاريخها إلى عقد أو أكثر من وقت زيارتنا لها. وبينما نلاحظ أن الكثير من هذه اللوحات بهت وتآكل بفعل عوامل الطقس، حتى أصبح من الصعب التعرف على ملامحها، سنفاجأ عندما نعرف أنها كلها من إبداع فنان واحد.

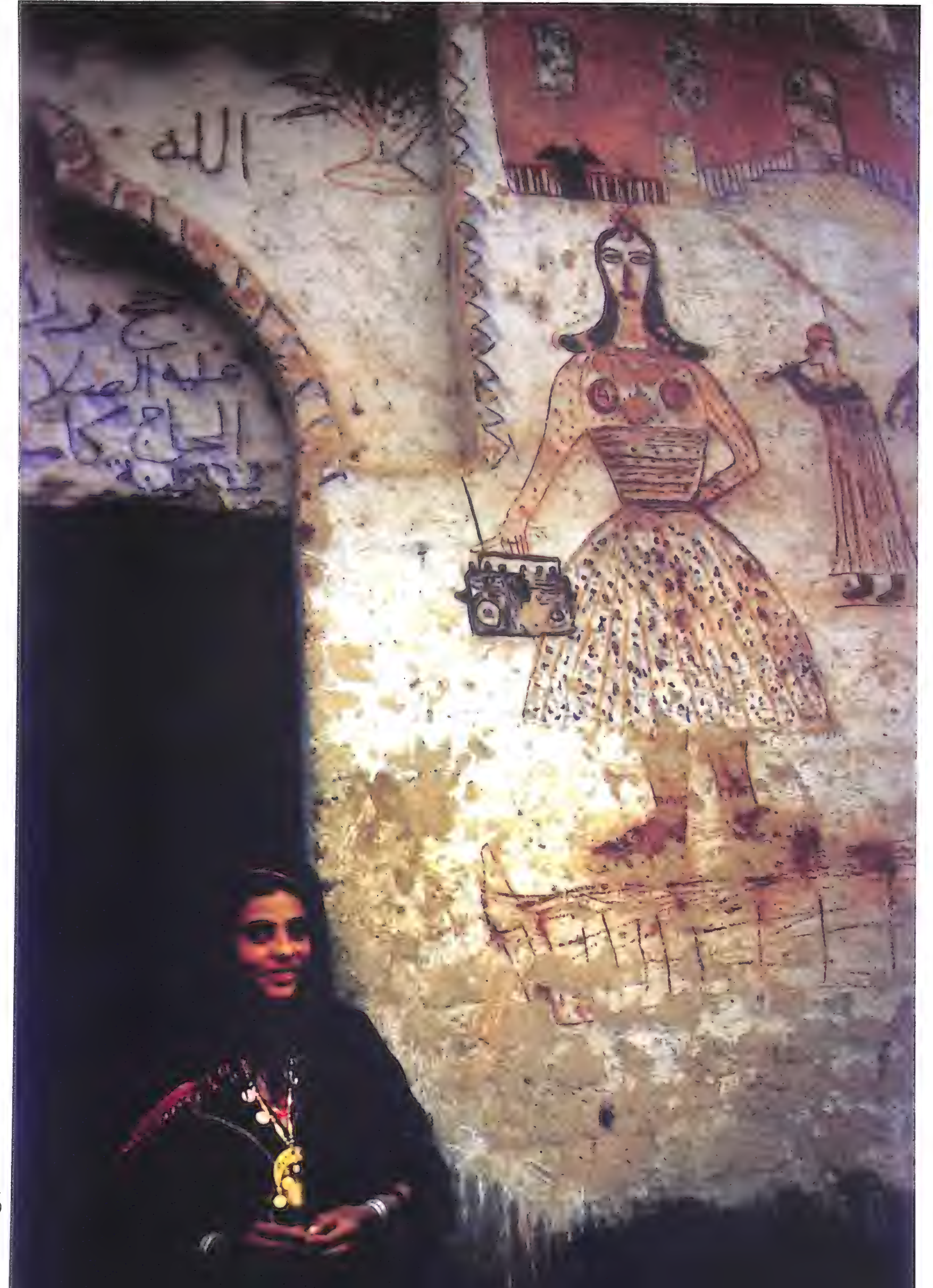
الصفة الغالبة على هذا الإنتاج أن المدقق فى تفاصيله يهيأ له أن مجموعات شخوصه الصغيرة تكاد تنبثق من ثنايا الحوائط المطلية بالطمى. بعضها يرتدى الملابس اليومية التى يلبسها أهل الصعيد، وبعضها الآخر يرتدى ملابس سبعينية حديثة الطراز وينتعل أحذية مدببة وسراويل متوهجة وقمصاناً عصرية وجاكتات ذات أحزمة. وكلهم يحدقون بعيون واسعة ومظهر فرعونى متحد فى الغرباء الفضوليين!! واحد من هذه الأشكال المعبرة يحمل راديو ترانزستور فى يده بينما رسمه الفنان واقفا إلى جانب أحد المساجد.

هذه الوقفة تذكرنا بزيارة الحجاج للمدينة المنورة، حيث يحرصون على شراء هداياهم التى سيقدمونها للأهل والأصدقاء من المهنئين، بعد أن يتعبدوا ما فيه الكفاية فى مسجد الرسول (عليه الصلاة والسلام).

أما هذه الفتاة الشابة المبتسمة التى تظهر صورتها فى الصفحة المقابلة مرتدية زيها الأسود، واضعة هذه القلادة الجميلة حول رقبتها، فتبدو كما لو أنها خرجت بهدوء من السياق الطبيعى للوحة التى تعلو الحائط الذى إلى يسارها لكى تصف لنا رحلتها إلى مكة المكرمة.

أما اللوحة التى تعلوها، فقد تعمد الفنان أن يرسم فتاته (النموذج) مرتدية ملابس غربية حديثة، ولم ينس أن يلبسها مصاغها، بل وجعلها تمسك براديو ترانزستور فى يدها، مستكملا بذلك عناصر الحداثة التى تميز اللوحة، بما فى ذلك تسريحة الشعر التى تتحلى بها، ولولا الاهمال الذى ألم بالجزء السفلى من اللوحة لربما عرفنا مستوى حداثة حذائها وجوربها !!





127 - 126

العـودة إلى الوطـن

السفر والترحال للحج عند المصريين غالبا ما يصاحبه ضجيج، أما العودة من الحج فلها تقليد شديد الخصوصية، يبرز معانى الاحتفاء بالعائد إلى داره بعد أداء هذه الفريضة. عند حدود القرى الريفية وبالقرب من نهايات شوارعها الواصلة إلى الطرق الرئيسية الكبرى، يتبارى الأصدقاء والأقارب فى التعبير عن فرحتهم من فوق صهوات جيادهم رافعين الأعلام البيضاء ليكونوا أول المستقبلين، يستعرضون مهاراتهم فوق الطرق الترابية، ترافقهم طلقات الرصاص التى تندلع من الأسلحة النارية الصغيرة فى الهواء معلنة عودة الحاج سالمًا إلى داره. فى هذه اللوحة المنشورة فى الصفحة المقابلة تعلن الراية التى يمسك بهذا هذا الفارس من فوق جواده، " لا إله إلا الله محمد رسول الله ".


لا اله الا الله محمد رسول الله



ما إن يتم الحجاج والحاجات شعائر الفريضة حتى يبدأوا في التوافد بالآلاف إلى موانئ السفر البحرية والجوية، لركوب السفن والطائرات المعدة خصيصا لنقلهم على رحلاتها إلى أوطانهم، أما القادمون بالطرق البرية من حول السعودية ومن داخلها فيعودون من حيث أتوا عبر المنافذ الأخرى. وعلى الرغم من مخاوف التأخير في الوصول تراهم سعداء وفرحين، يواصلون استكمال ما ينقصهم من تذكارات رحلتهم المقدسة إلى مكة المكرمة وزيارتهم للمدينة المنورة وصلاتهم في المسجد النبوي.

لقد عاش قرابة مليون ونصف مليون مسلم ومسلمة قدموا لأداء فريضة الحج عدة أيام معاً، مكونين جزءاً من الأسرة الدولية التي يملؤها الشعور المكثف بالأخوة الإنسانية تجاه غيرهم من المسلمين. هذا التوحد الروحاني الذي يتعمق داخل الحجاج جميعاً، على حساب هوية كل منهم الوطنية التي ينحيها جانباً طوال فترة الحج، سرعان ما يختزن عندما يبدأ كل منهم رحلة العودة إلى وطنه مستعيدا مع بشائرها هويته الوطنية ومتفكراً مرة أخرى في أحوال أسرته وأصدقائه.

في واحدة من القرى الريفية البعيدة المطلة على نهر النيل، أتم الفنان رسم لوحته التي في أعلى هذه الصفحة ترحيباً بعودة واحد من الحجاج. في قمتها رسم مجموعة من الأهلة التي شكلت إفريزاً ملوناً، عبر تحته عن رؤيته المتواضعة للطائرة التي سيسافر الحجاج على متنها، طائرة صغيرة أشبه باللعبة، جعلها رابضة فوق أرض المطار بجوار كوخ ذي نوافذ دقيقة، يشبه هو الآخر بيوت الدمية، سماه "مطار الأقصر" وجعل له حارساً يرفع الراية، ولكي لا يختلط الأمر على غير العارفين كتب على يمين الرسم " محطة الحجاج ". أما المسافرون فرسمهم مجموعة متراصة تسير خلف بعضها البعض نحو قلب الطائرة بينما قائدها يجلس مستعدا للإقلاع. في الناحية الأخرى نلاحظ عملاقاً يرتدي ملابس عسكرية، وعلى الرغم من زيه هذا نراه يطلق الرصاص في الهواء، ربما استجابة لعادة شرق أوسطية متأصلة تزين للناس المشاركة بهذه الكيفية في مثل هذه المناسبات. وإذا دققنا النظر فسنلاحظ حرص الفنان على استعراض الدلالات الحربية ضمن لوحته، ربما يكون قد أدى الخدمة العسكرية الإلزامية، وسنكتشف درايته الواسعة بتجهيزات المشاة أكثر من معرفته بطائرات نقل الركاب.

يحظى الحجاج بعد انتهاء إجراءات الوصول المعتادة، بفرحة لم شملهم مع أفراد أسرهم، الذين أمضوا في الغالب وقتاً طويلاً في انتظار أحبائهم العائدين إلى مصر. في الصفحة المقابلة نرى في الصورة العلوية التي إلى اليسار حاجة ما زالت ترتدي ملابس الإحرام البيضاء، تحتضن بفرحة غامرة شقيقتها المنشرحة لعودتها، والتي حرص الرسام على أن يلبسها، بهدف المقارنة، العباءة الرقيقة التي تضعها السيدات المصريات فوق ملابسهن التقليدية عند الخروج من البيت. هذه اللحظة العاطفية الدافقة صورها الفنان على عيد ياسين فوق لوحة متألقة تحتل مكانا بارزا في نهاية مدخل رواق لواحد من البيوت الريفية القائمة في ضاحية من ضواحي مدينة كوم أمبو.

قالوا لنا إن ابن الحاجة، المهندس الزراعي الذي أتم تعليمه الجامعي بالقاهرة، وعدداً من الشخصيات البارزة في البلدة، تعاقدوا مع هذا الفنان باعتباره الأشهر بين رسامي جداريات الحج، لكي يسجل رحلة والدته التذكارية لأداء فريضة الحج. الفنان عيد، الذي ذاع صيته بسبب لوحة رسمها لشخصية ذات منزلة رفيعة من غير أبناء القرية التي يعيش فيها، قام بتغطية حوائط البيت الكبير بعدد من الصور وفق خيالاته التي اعتاد عليها والتي زادته شهرة. حتى أنه أصبح مشغولا لفترات طويلة من العام لأجل أن ينتهي من تنفيذ التعاقدات التي جلبها عليه تميزه بوصفه رساما متمكنا.

فور عودتهم إلى مصر، يجب على الحجاج أن يحسبوا الوقت الضائع قبل أن ينتهوا من إجراءات الوصول. سيارات نقل الركاب من كل طراز تقف عند منافذ الخروج على أهبة الاستعداد للتفاوض مع القادمين من الحجاج، الذين زاد توترهم بعد ما لاقوه من تعنت وتعطيل داخل الدائرة الجمركية بسبب أمتعتهم الكثيرة، حول كلفة توصيلهم إلى محال إقامتهم.

ما بين الضجيج المتنافر من الأصوات والصراخ هنا وهناك وعواء محركات السيارات وزمجرة فراملها وتصاعد أصوات أبواقها، تبدأ حركة المرور في الاضطراب والفوضى. ويقوم كل سائق بمحاولة مستميتة لينجو بنفسه من هذا الخضم، باحثاً عن منفذ يقوده إلى الجزء الأخير من رحلة الحاج العائد إلى بيته.







السلوك المتزن الذى يعكسه وجه السائق الذى يقود حافلة الركاب بالرسم أعلى يسار الصفحة ينُبئ بأنه عقد العزم على أن يجعل سيارته عتيقة الطراز تخالف الفوضى الصاخبة المنتشرة فوق الطرقات التى تقود الحجاج إلى قراهم وبلداتهم القاصية، وإذا كان من الطبيعى أن يرتب المسافرون العاديون حقائبهم فوق سطح السيارة بشكل منظم، فليس من المستغرب أن تطفح وسائل النقل البرى التى تنقل الحجاج إلى ذويهم بما تحمله فوق أسطحها من حقائب سفر تبدو كالجبال.

تتحول طرقات مصر الرئيسية التى تربط ميناء السويس بالعاصمة القاهرة، فى الأيام التى تفرغ فيها السفن حمولتها من الحجاج العائدين من المملكة العربية السعودية، إلى قافلة من السيارات المتراصة. فى الصورة الفوتوغرافية التى بأسفل الصفحة أوقف السائق السيارة الأجرة الكبيرة، دون أن يكون مضطراً لمنافسة غيره يوم الوقوف بعرفات أو ساعة النفرة الكبرى إلى مزدلفة، على جانب الطريق، ربما لأخذ قسط من الراحة أو لشرب كوب من الشاى الساخن. المهم أن الحاج وزوجته اللذين كانا معه انتهزا الفرصة لتقديم الشكر لله أن أعادهما سالمين إلى أرض الوطن بعد قضاء فريضة الحج.

قال لنا الحاج إنه - بعد لحظات قصيرة من التقاط هذه الصورة له ولزوجته - افترش الجميع بطانية فوق الرمال لأجل استراحة قصيرة فى الهواء الطلق تعززها بعض الحلوى والمشروبات الدافئة، المدهش أن هذين الزوجين ما زالا بعد سنوات طويلة من أداء فريضة الحج يتذكران بعاطفة متأججة تجربتهما الدينية هذه.



هذه اللوحة البدائية الفاتنة قصد مبدعاها، على سيد وابنه محمود - كما يبدو من الأحرف الكبيرة التى كتبا بها اسميهما - أن يعبرا عن جانب من سلوكيات الشارع المصرى، حيث رسما بائعين متجولين يقومان بوزن ثمرة بطيخ، ربما لبيعها إلى واحد من الحجاج لكى يروى ظمأه.

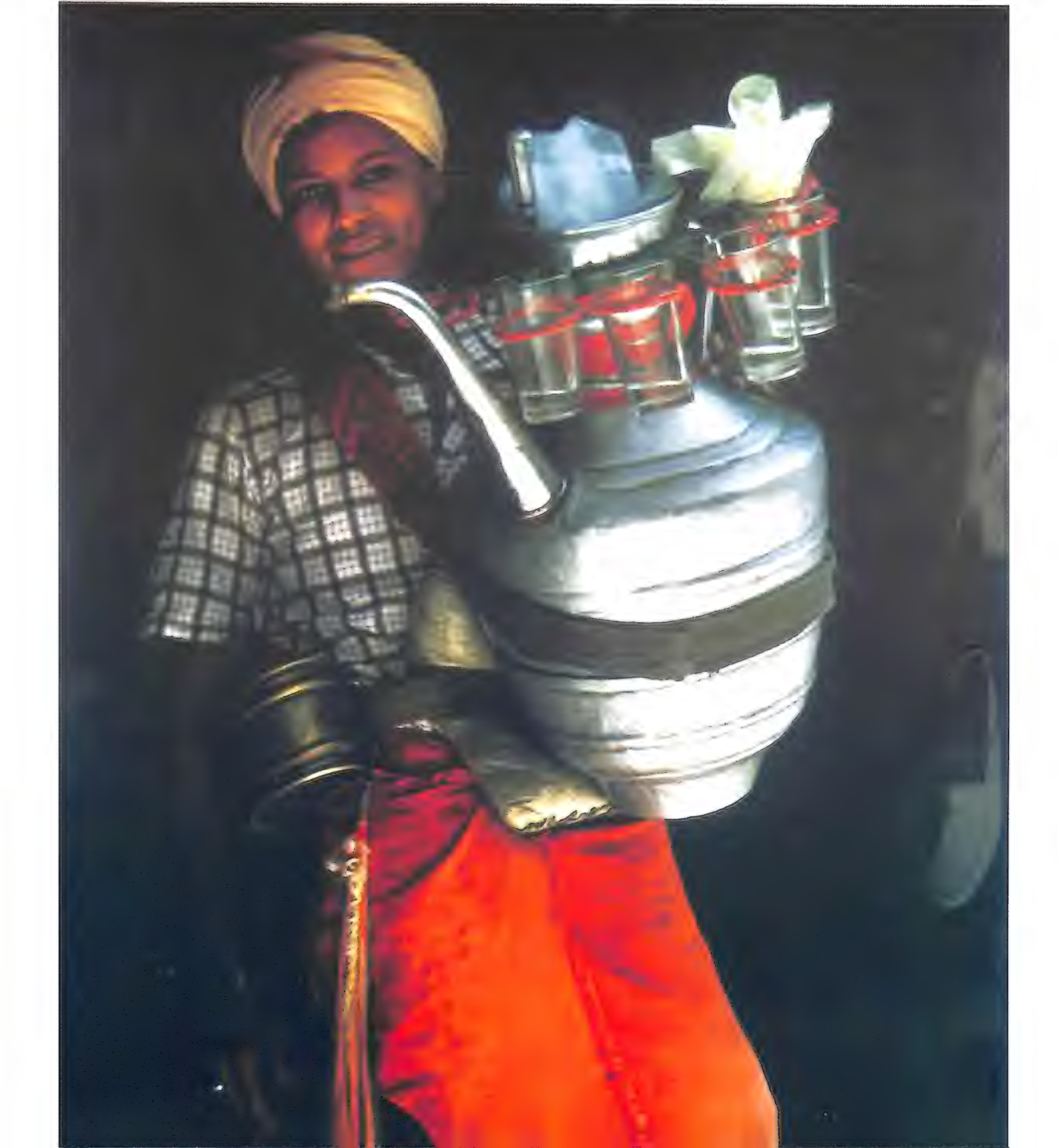
يلاحظ أن توقيتات الحج تختلف كل عام بسبب التقويم القمرى، لذلك أصبح من المتعارف عليه أن يحتفظ الحجاج بذاكرتهم، طبعا إلى جانب ذكريات الرحلة المقدسة، بنوعية ثمار الفاكهة التى كانت تباع فى ذلك الوقت وفقاً لما يتميز به كل موسم، الفراولة مرة واليوسفى مرة والعنب والمانجو حلو المذاق مرة. لذلك ينتهز أصحاب المزارع القريبة من الطرق الرئيسية التى تمر بها مواكب الحجاج العائدين هذه المواسم ويقومون بعرض منتجاتهم لجذب أنظارهم لشراء كمية من فاكهة الموسم، علامة اطمئنان تبرهن على وصولهم سالمين إلى مجتمعاتهم التى اعتادوا عليها.

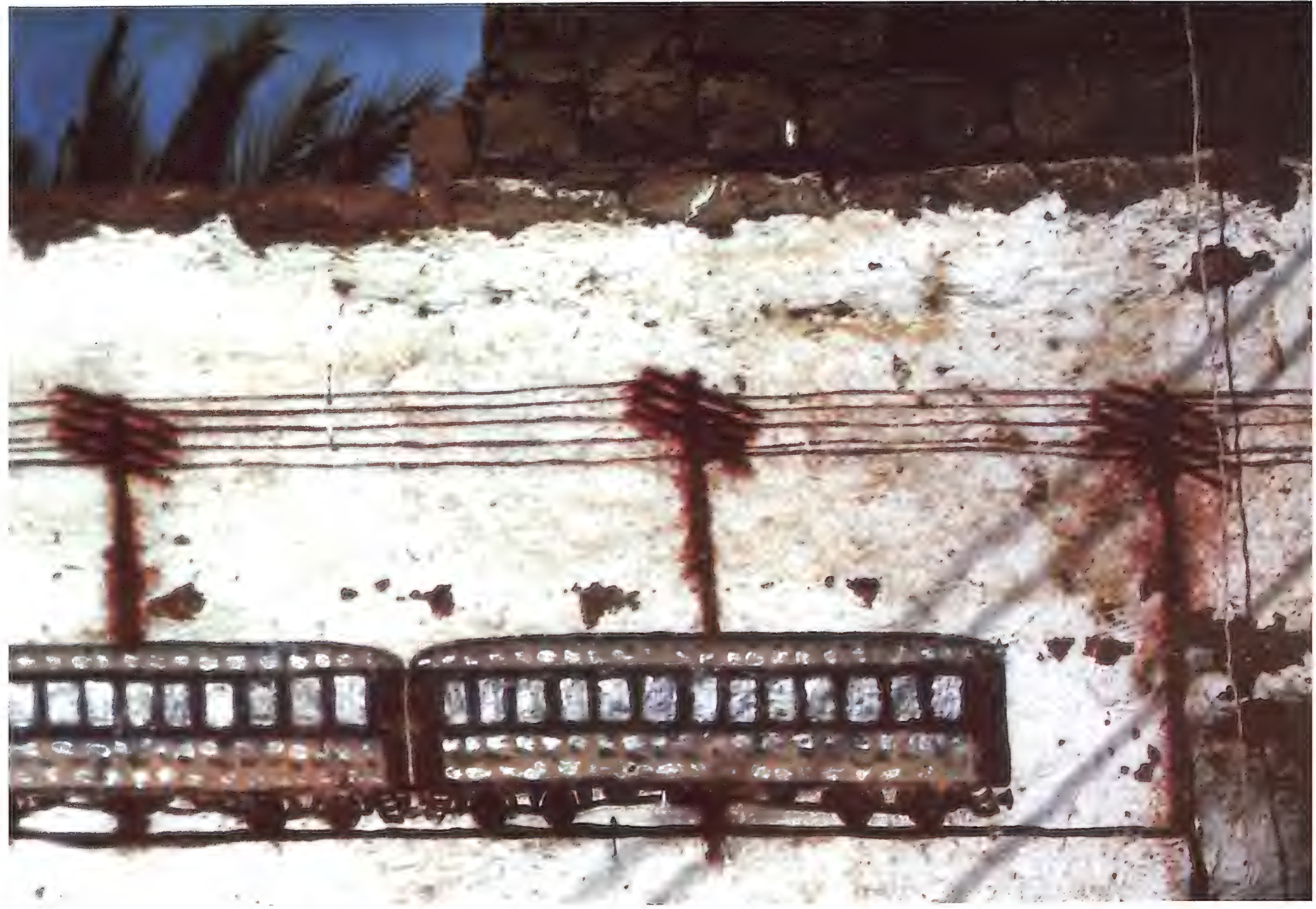
حاملو قرب المياه أو السقاءون، الذين يوزعون المياه على العطشى من الناس لهم موضع خاص فى الثقافة العربية. هذه المهنة التى انقرضت من أنحاء مصر كلها، تحولت إلى تجارة تتعامل مع زجاجات المياه المعدنية وعبوات المشروبات الخفيفة المثلجة بالقرب من شوارع المدن المصرية الكبيرة، وبخاصة حول الأماكن التى يغشاها ويتردد عليها السياح الأجانب.

المدهش أن الكثير من العاملين فى هذه الأماكن أصبح لهم زى مميز يجذب إليهم أنظار المصورين الأجانب، خاصة وأن الهبات التى يمنحونها لهم تفوق كثيراً مكاسبهم المعتادة. وأينما يوجه هؤلاء المصورون عدسات كاميراتهم فثم من يلاحقهم بالتحيات ودعوات الترحيب التى يبعثرونها بلا توقف.

يستقبل الحجاج العائدين إلى ميناء السويس مجموعة من باعة الأطعمة الجائلين الذين يعرضون بضاعتهم فى شوارع مستعصية على النظام، وعلى الرغم من ذلك ينجحون دائما فى صف عرباتهم وفوقها قدور الفول المدمس بمغارفها النحاسية طويلة اليد والتى تحدد بدقة الكمية التى ستباع للزبون. العربات، المنسقة يتوفر عليها الكثير من المعدات التى يحتاج إليها الباعة، الأكواب والمناديل الورقية ومكعبات الثلج وبعض زجاجات وعبوات المشروبات الخفيفة.

هذا الشاب المليح الذى يملأ الصورة الفوتوغرافية على الصفحة المقابلة يقدم خدماته إلى الحجاج الواصلين إلى الميناء. خدمة سريعة هم فى أشد الاشتياق إليها بعد انتهاء رحلة العودة الطويلة إلى أرض الوطن والتى بدأوها من جدة، ابتسامته العذبة وخبرته فى تقديم الخدمة تمثل نوعاً من الترحيب الدافئ بهم لحظة أن تطأ أقدامهم البوابة الخارجية للميناء. هذا النوع من الخدمات التى تسهم فى إشاعة الطمأنينة فى وجدان الحجاج، تماثل عند البعض شربة ماء زمزم الهنيئة بعد دخول ساحة الحرم المكى لأول مرة، أو عند وداعها لآخر مرة قبل بضعة أيام.

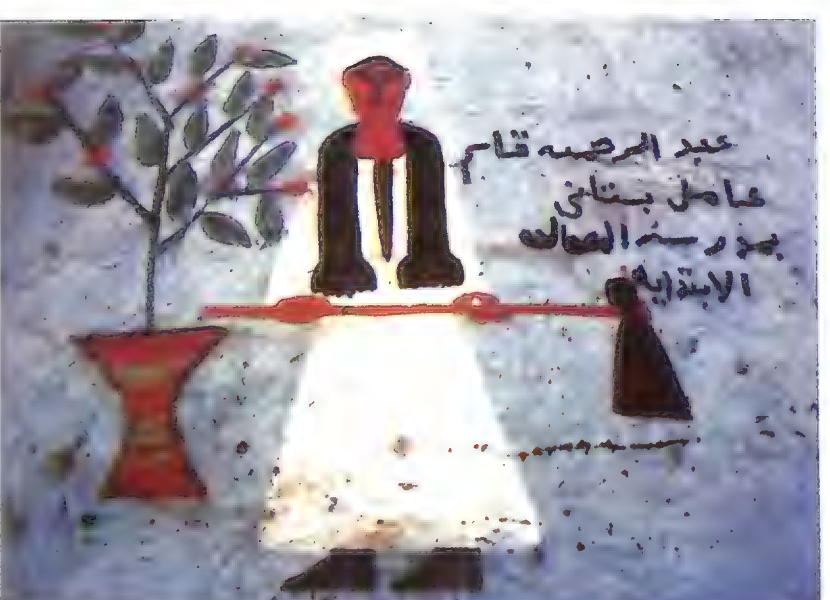




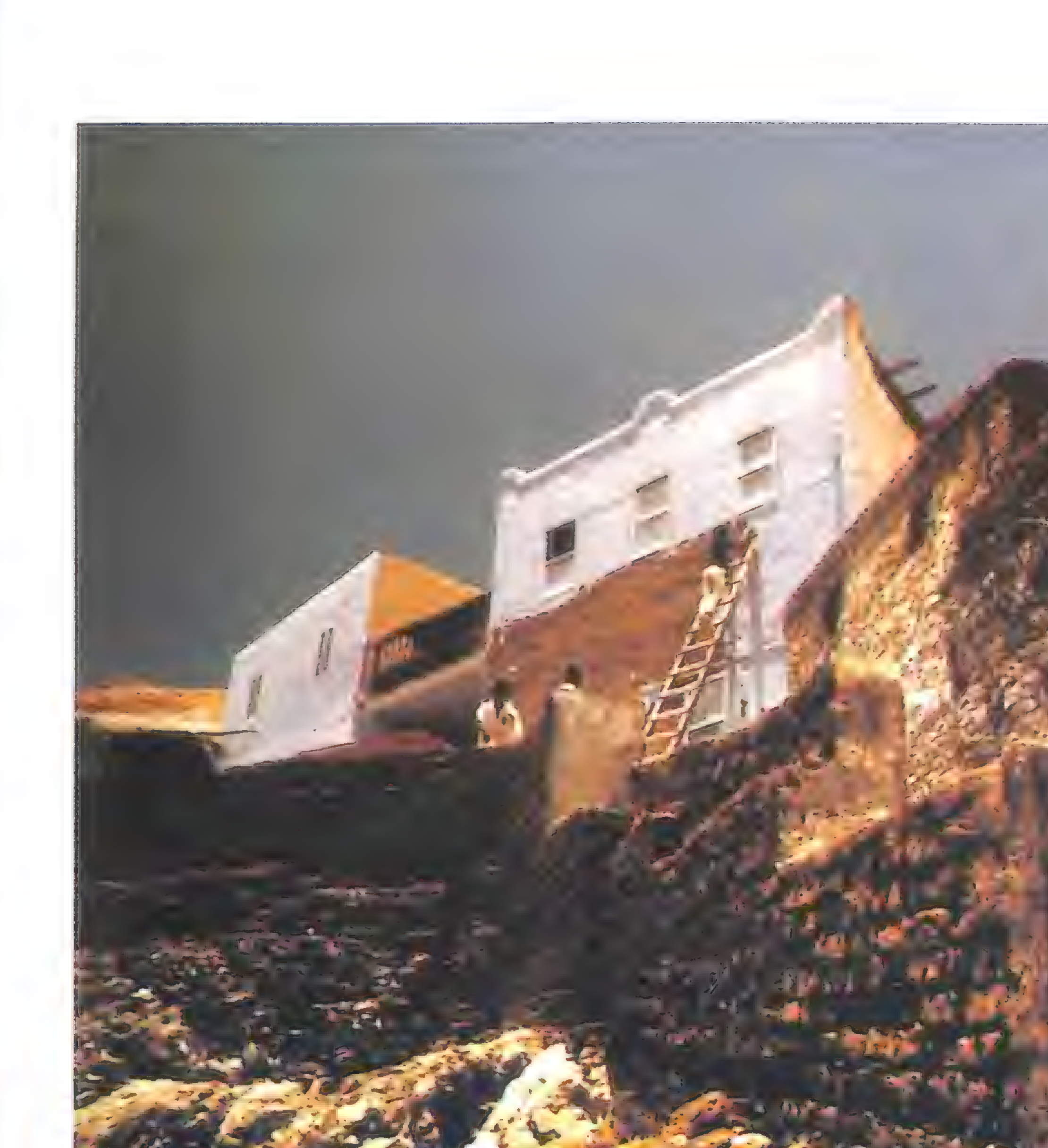
الشارة المميزة للمركبات التى يستقلها الحجاج العائدون إلى ديارهم هى الرايات البيضاء التى ترفرف فوق أسقف قوافل السيارات، سواء كانت خاصة أو عامة، وما إن يلمح المارة هذه المركبات حتى يتيقنوا على الفور أنها تحمل حاجا عائداً لتوه بعد أداء فريضة الحج. أيضا تزدحم القطارات التى تربط محافظات مصر خلال موسم الحج عن آخرها بفيضان من الحجاج المتوجهين إلى بلداتهم وقراهم، ويجد مستقبلوهم من الشباب والرجال صغار السن الركوب فوق أسطح عربات القطار أكثر إنعاشاً واتساعاً وإثارة من البقاء داخل العربات المزدحمة، على الرغم من أن بعض الرحلات تستغرق ساعات طويلة.

الرسم الذى يقع فوق هذا النص يمثل قطاراً مصريا يقف فوق سطحه اثنان من المستقبلين، يلوح أحدهما براية كبيرة عليها رسم علم مصر القديم، ويلوح الآخر بكلتا ذراعيه، ربما بسبب اقتراب القطار من محطة الوصول التى تعج بالنشاط منذ الصباح الباكر.

لوحظ لدينا أن فنانى رسومات الحج كثيراً ما يرسمون القطارات للتعبير عن سفريات الحج، لأن السكك الحديدية فى صعيد مصر تمثل، فى العادة بالنسبة لسكان جنوب الوادى، بداية ونهاية أية رحلة تمتد بهم خارج بلداتهم وقراهم. هذه المجموعة من عربات القطار التى جعلها الفنان عبد الرازق تمر بجوار أعمدة تحمل أسلاك التليفونات، واقترب بها متعمدا من أفق حائط البناية، حققت له تأثيراً خادعاً مزج بين الخيال والحقيقة، حيث إن من ينظر إلى العربات لأول وهلة يهيأ له أنه ينظر إلى قطار حقيقى سوف يظهر فى الأفق بعد برهة.



أما الصورة المنشورة هنا فهى لعامل زراعى بمدرسة المصالحة الابتدائية يعلن عن مهارته بطريقة عملية، وهذه المهارات ليست بالطبع فى مجال فلاحة البساتين حيث الكل فى المجتمع الريفى المحيط به فلاحون، ولكنها بالقطع فى ميدان الرسم والتلوين.





يحتاج تزيين أى بيت برسومات الحج ابتداءً إلى مهارات فنية تتفق واستحقاق الحاج لحياة جديدة بعد إتمامه فريضة الحج، يكون الهدف الأول للفنان أن يجعل واجهة البيت جاهزة ومستعدة لكى تستقبل أفكاره وخيالاته، وعند هذه النقطة يكون الرجل ومساعدوه الذين يستأجرهم لهذا العمل على دراية بحرفة طلاء الحوائط، لأنه لا بد من كشط الواجهة ومعالجة العيوب التى بها ثم معالجتها بالجبس، أما الأطر الخشبية من أبواب وشبابيك فلا بد من إعدادها لكى تزين وتطلى فى آخر مراحل العمل. بعد التجهيز يقوم الفنان، ربما بمباركة من أصحاب البيت، باختيار اللون الأساسى لمشروعه الفنى الذى سيرسمه فوق واجهة البيت، وكذا لون زخارف حوائط الحجرات الداخلية، وبينما يكون الفنان أحمد الطيب مشغولاً بعمل ما فى ناحية من نواحى القرية يقوم مساعدوه بتجهيز حائط آخر كما يبدو فى الصورة الفوتوغرافية أعلى هذا النص حيث نلاحظ أحدهم فوق السلم الخشبى واثنين يجهزان الحائط الخشن لاستقبال لوحة الفنان التالية.

غالباً ما تُغطى حوائط بيوت القرى الريفية فى مصر بطبقة ملساء من الجبس، أما هذا الحائط المبنى من الطوب النيئ خشن التركيبة، الذى يظهر بوضوح فى الصورة الفوتوغرافية فوق هذا الكلام، فهو فى صالح الفنان، لأن تعامله معه على هذه الحالة يفتح له الطريق لتنفيذ لوحة بالغة الروعة، لأنه ببساطة سيؤسس لها بمهنية عالية.

يحرص الفنان - أيا كانت نوعية الحائط الذى سيتعامل معه، ممتلئا بالعيوب أو خشناً أو أملس - على أن يحمى رسوماته قدر الاستطاعة من الرياح التى ستتعرض لها بعد فترة قصيرة، خصوصاً وأنها غالباً ما تأتى محملة بطبقات من التراب والرمال؛ مما يؤدى غالباً إلى طمس ألوانها الأصلية. وتعد هذه المشكلة العقبة الرئيسية التى يجب على الفنان، الذى يبدع لوحات مرسومة خارج البيوت، أن يأخذها فى اعتباره عندما يخطط لتنفيذ مثل هذه اللوحات.



يُلزم الفنان أحمد الطيب نفسه بالانتهاء من تدشين لوحة الحج التى تعاقد عليها، فى خلال فترة زمنية متوسطها ثلاثة أسابيع من العمل المتواصل. فى الصفحة المقابلة إلى اليمين نراه يعمل فى الصباح الباكر بينما الظل المنعش يفترش المكان. ولأنه خطط بعناية للوحة التى هو مُقدم على تنفيذها، يحضر إلى المكان وهو متيقن من خطوطه الأساسية وألوانه التى يضع منها عينات فى المساحات التى ستطلى بها. فى البداية يقوم الطيب برسم إسكتش بسيط فوق الحائط الذى تم تجهيزه، ثم يقوم بمزج الألوان حتى تأتى متوائمة مع الأفكار الأساسية التى فى مخيلته، يعقب ذلك ملء الفراغات الصماء التى تتوزع على جوانب اللوحة.

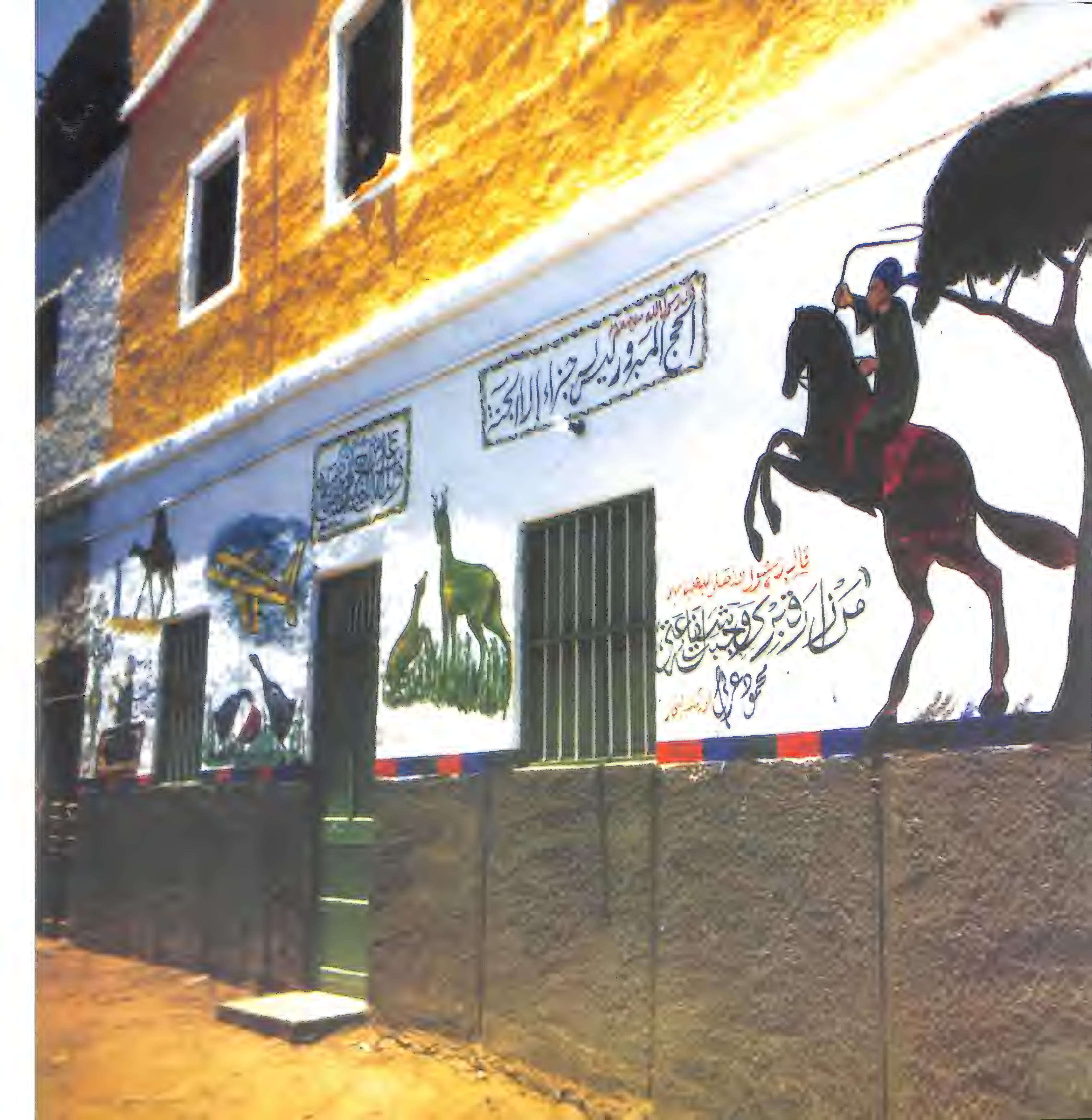
يتميز الرجل بأنه يعمل فى هدوء، ولا يغلب عليه طابع التسرع الذى قد يكون من صفات غيره من الرسامين غير الملتزمين، لأنه يعرف تماما النتائج التى يريد أن يحققها. وبعد أن تجف الألوان فوق المساحات الصماء يعيد النظر فى الخطوط الخارجية التى ابتكرها، إذ ربما يضيف إليها لمسة أخيرة. وعلى الرغم من أنه لا يبالى بمن يتابع عمله، فإنه لا يحب أن تشتت تركيزه ثرثرة لا معنى لها. وفى بعض الأحيان - فى الصورة الفوتوغرافية السفلية على الصفحة المقابلة - يترك لمن يحب من أفراد عائلة صاحب البيت أو أصدقائهم أن يتفرج عليه، ربما لساعات طويلة، وهو يحول الحائط الأصم إلى لوحة ناطقة، دون أن يستنبطوا أنهم يتلقون درسًا فى أساسيات رسومات الحج.

مع نهاية الفترة الزمنية تكون واجهة البيت وامتدادها، كما نرى فى الصورة أعلى النص، قد زينت بسخاء. أما الفنان المبدع فقد استغل فترات الظهيرة شديدة السخونة لكى يقوم بتزيين حوائط البيت الداخلية بتصميمات النباتات المورقة، وبذلك يكون البيت الذى اكتملت رسوماته المبهرة مستعدا هو والأهل والأصدقاء لاستقبال العائدين بالسلامة بعد أداء الفريضة، وربما تبقى هذه الرسومات على حالتها المتألقة لسنوات طويلة تشد عين كل من يمر بالمكان.



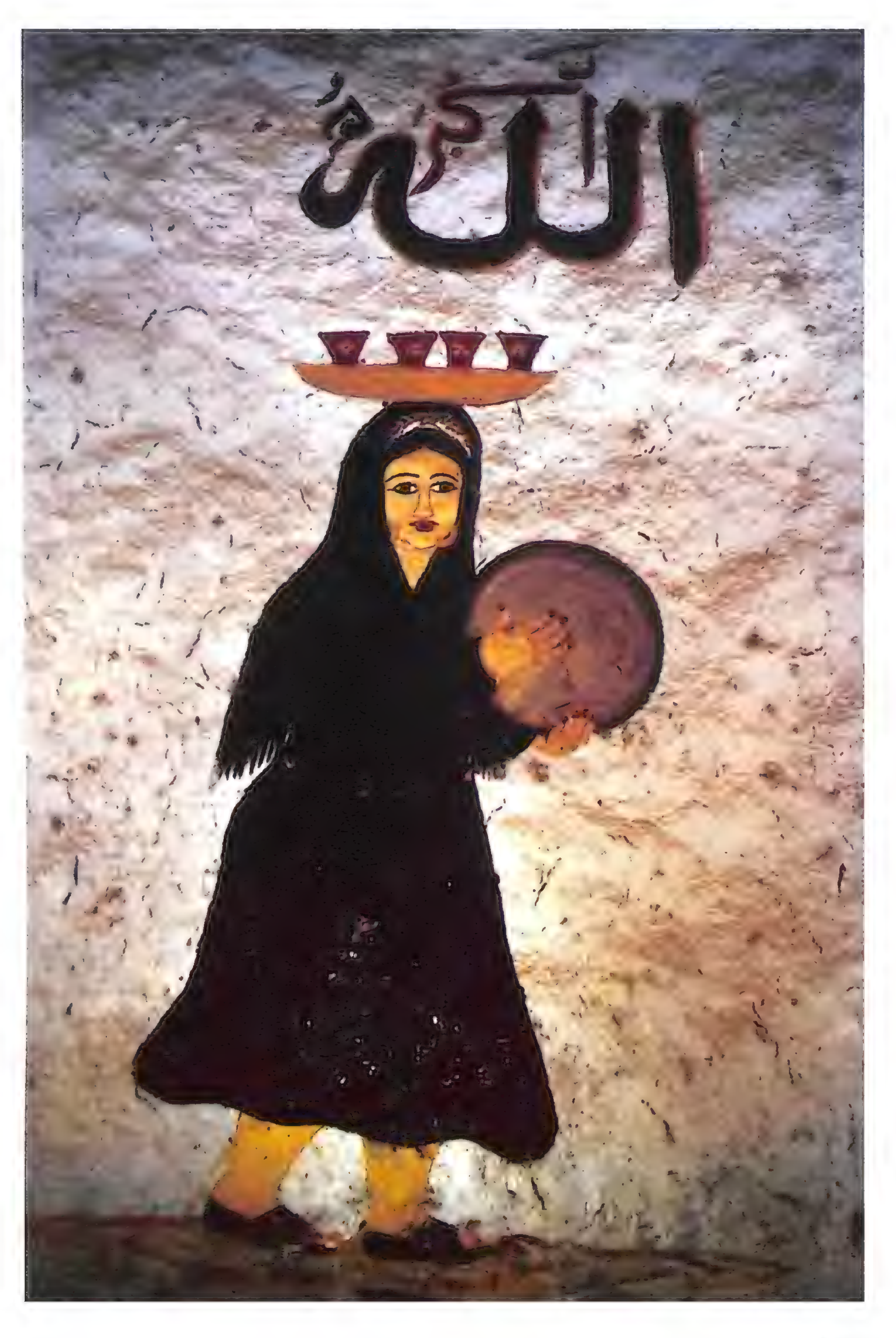
أنجبت مدينة إسنا - التى تقع على الضفة الغربية لنهر النيل على مبعدة عدة أميال جنوب مدينة الأقصر - عدداً من مشاهير الرسامين، منهم المدرس محمود العربى الذى زامل فى مراحل التعليم الفنان الشهير السنوسى. يحرص العربى، كغيره من أقرانه فى عموم مصر، على الإعداد الجيد للعمل الذى سيقوم بتنفيذه، وهو على استعداد لمواصلة الساعات خلال موسم الحج حتى ينتهى من كل التعاقدات التى ألزم نفسه بها فى الموعد المناسب؛ كى تكون جاهزة مع بداية احتفال الأهل بالعائدين من رحلتهم المقدسة. فقد جرى العرف أن من بين الترتيبات التى تسعد قلب الحاج عند عودته إلى داره أن تقع عينه لأول مرة على العمل الفنى الذى غير شكل واجهة بيته بهذه الكيفية المبدعة.

هذه الواجهة المتألقة التى تبدو إلى يسار هذا النص قمنا بتصويرها وتسجيلها بعد أيام معدودة من الانتهاء من رسمها، بينما كانت ألوانها لا تزال طازجة، خاصة وأن الفنان محمود العربى اعتبرها، بعد الفراغ منها، أفضل أعماله التى نفذها خلال عام ١٩٨٨. تقاضى الفنان تقريبا أجر أسبوع كامل مقابل إبداع هذا العمل النابض بالحياة، وبخاصة تلك الخطوط المتأنقة التى مزجت معاً تشكيلة غير معتادة من رموز الحج التقليدية والصور التخيلية شديدة الغرابة. ولمزيد من توفير أسباب المتعة البصرية يعشق الفنان محمود العربى أن يضع مداخل البيوت ضمن تصميمه الشامل لزينة الجداريات، وذلك بقضاء بعض الوقت فى تزيين ضلف الأبواب بمجموعات من الزهور الرقيقة المتكررة، ولأنه فنان له سمعته التى يعتز بها، كثيراً ما يُطلب منه تزيين حوائط المطاعم والمحال الصغيرة وأكشاك بيع الفواكه، والعديد من المشاريع الفنية التى تحتاجها المدرسة التى يقوم بتعليم تلاميذها.



المصريون مشهورون بحسن ضيافتهم. الشاى وغيره من المشروبات غير الكحولية تقدم فى كل المناسبات فى طول البلاد وعرضها. وفى القرى الريفية على وجه الخصوص يعد كوب الشاى الأسود المحلى عنوانا على المحبة. فى موسم الحج تقدم المشروبات المنعشة، التى تصنع من الحبوب والأعشاب الجافة كالقرفة والكركديه، باردة وساخنة لكل من يشارك فى فرحة استقبال الحاج العائد من مكة المكرمة.

هنا إلى يمين هذا النص نرى شابة ممتلئة الجسم تحمل على رأسها بمهارة وتوازن صينية فوقها مجموعة من الأكواب التى ربما ملئت " بالشربات " ذى اللون القرمزى الذى استخلص من أوراق النباتات الجافة. بينما تحمل بين يديها صينية مقلوبة كما لو كانت دفا، تنقر عليها بأصابعها التى لونت أظافرها بلون أحمر قان، بإيقاع مبهج. فوق رأسها كتب الفنان بخط متقن له طراز جميل " الله أكبر " قاصدا الإشارة إلى قدرة الله فى صنع البشر أو قدرته فى إكساب هذه الجميلة عدة مهارات.





تماماً كما يرى المدقق فى الرسم أعلى هذا الكلام أمسك الفنان على عيد بمهارته الفائقة بالفكرة وأخرجها فى شكل نافذة يطل منها المشاهد على تفاصيل مجموعة من الموسيقيين الشعبيين الذين يقدمون فنونهم لجمع محتشد من القرويين، الدفوف مشرعة وراء النغمة، أما عازف الناى فأصداغه منتفخة بالهواء ليصدر النغمات المطلوبة، والمطرب المعمم الذى تبدو المسبحة حول كف يده اليمنى يغنى ويمسك على الوحدة بابتهاج عبر ميكروفون مزدوج من أحدث طراز.

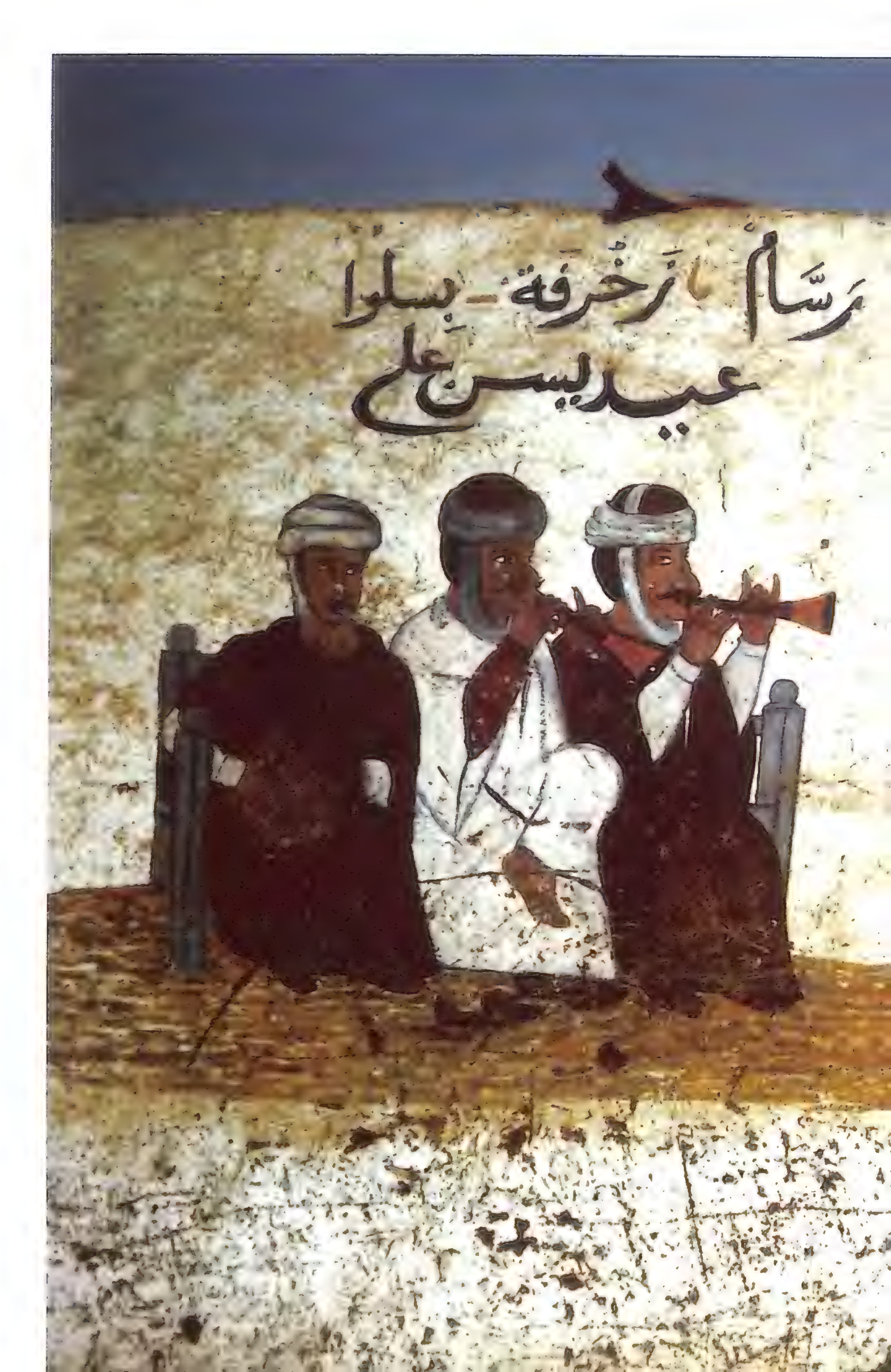
وعلى الرغم من أن ألوان اللوحة محدودة نسبيا، فإن مزاج الفنان الإبداعى نفخ الحياة فيها إلى درجة أن الجمل التى كتبها فى محبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مدد يا رسول الله " و "مدد يا آل البيت" تبدو كأنها هى التى تدور حولها السهرة الريفية الغنائية الجميلة، وتعكس ما يعتمل فى صدور الحاضرين من شوق لزيارة البيت الحرام ومسجد الرسول (عليه الصلاة و السلام).



لا يمكن للاحتفال بعودة الحاج إلى بيته أن يتم دون مشاركة الموسيقى والغناء والرقص . وهذه اللوحة الجملية إلى اليمين تعكس هذه الحقيقة . لقد اهتم الفنان بإظهار ميزة مفردة لكل عضو من أعضاء الفرقة الغنائية المنتشية. أما الراقصان بالعصى فيأخذ أحدهما وضعا تنافسيا. فيه شىء من التمثيل لا يمكن أن تخطئه العين. حيث ينحنى بمهارة استعدادا لتلقى الضربة التى يستعد خصمه لتوجيهها له. بينما ترتفع عصا هذا الآخير كأنما يهم بتوجيه الضربة القاضية إليه. هذه المعركة الوهمية تتابعها أنغام الفرقة الموسيقية الثلاثية. من المتراصين كتفا لكتف فوق المقعد الخشبى التقليدى الطويل.

فرد الفرقة الموسيقية الذى يجلس فى الوسط بجلبابه الأبيض واضعا رجله اليسرى فوق اليمنى وقدمه حافية من غير فردة الحذاء المدبب القريب منه!! يؤدى دور قائد الفرقة عازف الصفارة أو الناى. بينما زميلاه يسترقان النظر إليه. حتى لا يشذا عن أداء النغمة الصحيحة. والثلاثة يغطون رءوسهم بعمامات على الطراز الصعيدى حيث تظهر عقدتها المفكوكة أسفل ذقن كل منهم. بينما عازف الطبلة يدخن سيجارته وهو منهمك فى ضبط الإيقاع . ينفث نافخ المزمار فى آلته البدائية محركا أصابعه على فتحاتها وفق النغم المطلوب.

هذه اللوحة التى تحمل بصمات حيوية للمشهد الأكثر شعبية فى الريف المصرى . تعرضت للاعتداء أو الإساءة. كما تؤكد ذلك الندوب المنتشرة فوق سطحها. رغم ذلك ما زالت تعد من بين رسومات الحج الرائعة التى أبدعها الفنان على عيد . الذى نعتبره جوهرة هذا الفن. لأنه يحمل فى طياته تفهما حنونا للشخوص الذين يرسمهم ويبدى اهتماما بالغا بالتفاصيل ودقة فى التنفيذ.





فريضة الحج بالإضافة إلى كونها تعبيراً عن العبادة الدينية المتعمقة ، فإن الرحلة إلى مكة تغدو فى بعض الأحيان شديدة الإرهاق، عندما تَحول درجة حرارة الصحراء المرهقة، واختناقات طرق مكة المؤدية إلى المشاعر، بين البعض وبين اداء الصلوات والقيام بمقتضيات الشعيرة؛ إذ يصبح الأمر بالنسبة لهم نوعاً من العذاب او العقوبة الصارمة. هذه المعاناة تصبح بعد العودة للوطن والانضمام للعائلة والأهل - حيث الاطمئنان والسكينة التى تخفف من الأوقات الصعبة ومن مظاهر التعب الجسمانى - نوعاً من الذكريات التى تملأها مظاهر الرحلة المقدسة.

فى هذا الرسم البديع الذى وقع عليه صاحبه ، نلاحظ ثلاثة أعمال تفيض بالمعانى ذات الدلالات العميقة، بالإضافة إلى الخطوط العربية المتألقة، التى تفتقت عنها قريحة سيد حنفى الذى صور هذا الحاج مستغرقاً فى تأملاته راكعاً فوق سجادة صلاته القطيفة، وفى الخلفية شيد رسما متميزا للكعبة وأحاطه بمستويين مقنطرين من بناية المسجد الحرام، ورسم الحمام فوقهما وفى أعلى المئذنتين بصفته تعبيراً إضافياً عن السلام. ولم ينس أن يخط آية من القرآن الكريم تذكر بأن ذكر الله - الذى يفعله الحاج الراكع - يبعث الاطمئنان فى القلوب[56] وسجل أن عمدة البلدة وصاحب البيت حج وزار قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو والسيدة حرمه.

(٥٦) من الآية ٢٨ من سورة الرعد.



هذا الدكان الصغير الذى يبيع الفواكه الطازجة، والذى يعرض على زبائنه حبات اليوسفى والبرتقال النضرة ، ينعم بلوحة تعبدية تحمل نصا قرآنيا يقر بأن الرحمن هو الذى علم القرآن لنبيه (صلى الله عليه وسلم) وأنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان وعلمه البيان[٥٧] نجاح الفنان صلاح حسام مبارك - الذى تنتشر أعماله على المستوى الشعبى فى ميناء مدينة السويس وما حولها - فى إعطاء الإحساس لمن يشاهد لوحته بأن كل شىء فى الكون مصدره الله، ولذلك رسم هذا الشيخ الجليل الذى غالبا ما يوحى بأنه يعلم تلاوة القرآن للناس. وبهذه المناسبة نذكر أننا قابلنا الكثير من المصريين الذين يحفظون كتاب المسلمين المقدس من أول آية إلى آخر آية عن ظهر قلب.

---

(٥٧) الآيات ١-٤ من سورة الرحمن.

بعد الحج

ما إن ينتهِ الاحتفال بعودة الحاج أو الحاجة إلى بيته حتى تعود الحياة إلى طبيعتها اليومية، فنانو رسومات الحج الذين انشغلوا بتنفيذ تعاقداتهم الفنية لعدة أسابيع يعودون إلى مهنهم الاعتيادية ضمن مجتمعهم، حتى هذه السيدة التى رجعت لتوها من رحلة الحج تسير بين صديقاتها فى القرية كما لو أنها لم تغادرها قط، لكنها فى داخلها تحس بمدى التغير الذى لحق بها، لأن ذكرياتها فى المدينة المقدسة وداخل مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما زالت نابضة بالحياة. ربما تتوقف لبعض الراحة واضعة جرة الماء على الأرض إلى جانبها، وممسكة فى يدها بالحواية المستديرة التى تحمى بها رأسها من خشونة الجرة، كما لو كانت تمسك بمسبحة. عكس الفنان لحظة صفاء العيون التى تجلت على وجه هذه السيدة، ربما بسبب إصرار صديقتها التى تقف إلى يمينها على الاستماع إلى مزيد من حلو الحديث عن رحلة الحج التى عادت منها صاحبتها حديثًا.

لقد استحقت هذه السيدة بذهابها إلى مكة المكرمة احترام الصديقات والجارات اللاتى سينادينها بلقب «الحاجة» ما بقى لها من عمر.



عندما تشتد حرارة الجو فى فصول الصيف المصرية يتناول القرويون وجباتهم الغذائية فى الظل خارج دورهم حيث الهواء الطلق، كما فى الصورة التى إلى يمين هذا النص أما طراز الطائرة غير المتقن، المرسوم فوق الحائط أعلى المكان الذى يجلس فيه رب العائلة وزوجته فيحمل ذكرى طيبة لرحلته إلى المملكة السعودية لأداء الفريضة.

هذه الصورة الفوتوغرافية التى أخذناها لعائلة تعيش فى درب من دروب إحدى قرى الدلتا المصرية، التقطت بعد ظهر يوم جمعة. بينما كل أفراد العائلة ملتفون حول وجبة الغداء بعد عودة الأب وابنه من أداء صلاة الجمعة بالجامع القريب منهم. أما الأم وبناتها فكن بالبيت لإعداد الطعام بعناية تتناسب ويوم الراحة الأسبوعية وضرورات الروح الإيمانية التى تميز هذا اليوم عند المسلمين.

كما أن أصداء صوت المؤذن الذى يدعو المسلمين للصلاة تتخلل ساعات يقظتهم. كذلك يتحول بيت الحاج إلى مكان له أهمية ملموسة لدى الجماعة الدينية التى تحيط به حيث يثابرون على أداء صلواتهم معا. مما يرسخ لديهم الخلفية الروحانية التى تساعدهم على تنظيم نشاطات حياتهم اليومية.

فى الصورة الفوتوغرافية إلى اليسار تقوم الفتاة الصغيرة بطحن الذرة التى تستخدم الأسرة دقيقها لصنع أرغفة الخبز التى تحتاج إليها يوميا. الفتاة تستخدم آلة حجرية بدائية كانت تستخدمها جداتها فى العصر الفرعونى. على الحائط تبدو رسومات احتفالية بعودة أحد الحجاج ، ولكنها فى الحقيقة تظهر للعين كما لو أنها ستارة مسرح خلفية. لم يكتف الفنان برسم الكعبة الشريفة باعتبارها رمزا من رموز الحج التقليدية وكتابة بعض الآيات القرآنية(٥٨) ولفظ الجلالة على يمين الداخل إلى البيت، بل أبدع رسما لعملاق وصفه بأنه "المبخراتى" عرفنا أن مهمته تطهير البيوت من الأوبئة. وربما قصد به الفنان هنا حماية الحاج من الحسد بعد عودته!!



(٥٨) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران.


الله
جل جلاله


LEOPATRA FACTORY OF ALABASTAR...
مصنع كليوباترا للالباستر

مصنع كيلوباترا للرخام الذى نرى صورته إلى يمين هذه الصفحة والصفحة المقابلة، يحكى لنا قصة لوحة جدارية شديدة الثراء بخيالها الفنى النابض بالحياة. هذه اللوحة تعد مثالاً لمدى تألق الفنان محمد احمد المالك فى إبداعه الذى يحمل نفس المفهوم الذى عبر عنه ضمن اللوحة التى صممها خصيصا لمصنع عايدة للرخام ايضا، والتى نشرناها على الصفحة رقم ٣٢.

لقد اختار الفنان فى كلتا اللوحتين وحداته المتكررة من ثلاثة مواقع ثقافية مصرية واضحة المعالم، الأول نسخ من الفن الفرعونى التقليدى، كما نراها هنا، صورة كيلوباترا التى تهيمن بحضورها على اعلى واجهة المصنع من ناحية الركن اليسارى، هذا بالإضافة إلى زوج الخنافس السوداء التى تظهر صورتهما مقابل الاسم التجارى للمصنع - باللغة اللاتينية - من ناحية اليمين ثم الوحدات الزهرية التى وزعها حول الإطار القاعدى للوحة. اما المدخل فغطاه برسومات مستمدة من الحروف الهيروغليفية التى تزين لوحات المعابد والآثار المصرية، ولم ينس ان يرسم قرص الشمس الجعرانى مرفرفا بجناحيه المفرودين فوق مدخل المصنع تعبيرا رمزياً قديما عن الروح، ربما قصد به التوسل إلى الله ان يحفظ روح صاحب المكان. اما الثانى فيرتبط بطقوس الحج الإسلامية، حيث نراه يرمز إليها بصورة بديعة التكوين والألوان للكعبة الشريفة والمسجد الحرام ذى الطوابق الثلاثة[٥٩] الذى حرص الفنان على ان يضيف بين مئذنتيه بعض الآيات القرآنية، وخصص مكاناً على يمين اعلى المئذنة لكى يرسم حاجا فوق سجادة صلاته يمد يديه بالدعاء الحار.

اما الجزء الأكبر من واجهة البناية فنلاحظ انه يمثل لوحة تعبيرية عن الحياة اليومية فى الريف المصرى، وهذا هو المصدر الثالث لثقافة فناننا حيث نرى إلى يسار الجدارية ويمينها نماذج تقليدية لهذه المشاهد. فهذا الفتى الجالس فوق ظهر الجاموسة يدفعها لمواصلة العمل. ولكنها تصر على إكمال وجبتها الغذائية، وهذا العامل الذى يزيل بمهارة خشونة وعاء من الرخام، بنفس الحرفية التى يؤديها العامل الجالس إلى يمين مدخل المصنع، وتبدو لنا يداه وهما تعالجان قطعة فنية حقيقية، ثم هناك المراتان المتصاحبتان، إحداهما تشارك فى جمع محصول الحقل الوفير والأخرى تحمل جرة الماء. اما هذا الفلاح الذى نرى صورته إلى اقصى اليمين فيقوم بحش وجبة من البرسيم بمنجله لكى يطعم ماشيته، بينما صديقه يجلس فى استرخاء اعلى الصورة يعزف لحنا على الناى، يبدو انه جذب الكثير من الطيور إلى المكان.

لا يوجد مكان آخر فى محافظات مصر يمكن ان نشاهد ضمن جداريات الحج التى تزين واجهات بيوته لوحة فائقة البراعة مثل هذه اللوحة التى تنتظم فوقها انشطة القرية المصرية بشكل جماعى سوى قرية القرنة !!

---

(٥٩) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران. ومن الآية ٣٥ من سورة النور، وسورة الفلق كاملة.

على امتداد الرحلة إلى وادى الملوك والملكات تحمل سيارات النقل الجماعى أعدادا كبيرة من السائحين الآتين لزيارة عجائب هذا المكان الإنسانية والهندسية. وعندما تتوقف المركبات بعد رحلة طويلة لأول مرة بالقرب من إحدى القرى المبعثرة على الطريق يتزاحم القوم حول المحلات والأكشاك التى تبيع لهم المشروبات المرطبة الباردة والكروت السياحية والهدايا التذكارية، وربما نسخا مقلدة من الآنية الرخامية القديمة. هذه الجماعات من الغرباء يبدون دائما مشغولين ببرنامجهم السياحى، مما يجعلهم يلقون اهتماما عابرا بالتاريخ الذى ينبض بالحياة فوق لوحات رائعة الألوان مرسومة حولهم فى أكثر من مكان.

فى أيام ذروة الموسم السياحى المصرى، تتكاثف البرامج السياحية بالعديد من الزيارات المرتبطة بزيارة الأماكن الأثرية الغنية بالتاريخ، هذا الازدحام لا يوفر، من سوء الحظ، سوى فرص محدودة أمام السائح لكى يلاحظ الثراء الذى تتمتع به تقاليد الحياة العصرية على امتداد النهر، التى أبدعها فنانو رسومات الحج فوق حوائط بيوت قرية القرنة بشكل يستحق التقدير. أما سكان هذه القرية، الذين تمنح نشاطاتهم الحياة لهذه اللوحات المصورة، فينظرون إليها باعتبارها انعكاسا صادقا للأعمال اليومية المعتادة التى درجوا عليها، ومن ذهب منهم لأداء فريضة الحج يعود - فور عودته من الرحلة المقدسة - إلى ممارستها على وجهها المتعارف عليه بعد راحة قصيرة[٦٠].



(٦٠) الصور الخمس المعروضة على هذه الصفحة والصفحة المجاورة تعكس أشكالا من الاعمال الحياتية فى القرية المصرية سواء على مستوى العمل فى الحقل أو الأشغال المنزلية. مثل غسل ملابس الأسرة بهذه الكيفية التى تعود إلى منتصف القرن. أو حلب الماشية يدويا كما كانت تفعل الجدات منذ عشرات السنين . (المترجم)





صلى على النبي



غالباً ما يتشرب الحجاج العائدون إلى ديارهم سواء كانوا أغنياء أو فقراء شباباً أو عجائز، رجالاً أو نساءً، بروحانية عميقة بعد أدائهم للفريضة. على هذه الصفحة والصفحة المجاورة نشاهد هذا الشيخ المبجل يجلس للراحة فوق المقعد الخشبى الطويل فى غرفة المعيشة ببيته الريفى الذى يخيم عليه الهدوء، بعد أن تناول وجبة منتصف النهار الخفيفة التى تظهر بقاياها فوق الطبلية الخشبية التى إلى يساره.

هذا الرسم الريفى وما فيه من شجرة مورقة وطائرى بجع عظيمى المنقار، يوفر للحاج جلسة صيفية تمنحه فرصة التأمل الدينى، خصوصا وهو يسبح بمسبحته الطويلة التى يمسكها بيده اليمنى. بقايا الطعام ووعاء الماء البلاستيكى والراديو الترانزستور، كلها مظاهر تشير إلى تدفق الحياة المصرية المعاصرة، لأنه بدونها قد يهيأ للمشاهد أن الصورة منتزعة من القرن التاسع عشر !!



فى مجتمعات مصر الريفية، حيث القلة هم القادرون على أداء فريضة الحج، تبتهج الغالبية حين يجلسون إليهم مستمعين إلى حكاياتهم، حين يستعيدون ذكريات الرحلة المقدسة مع أصدقائهم وذويهم المشوقين دائما لمعرفة تفاصيلها، وكذا مع من سبقوهم إليها من أهل القرية. فى هذا الرسم - المنشور أسفل النص - الذى يحمل من التفاصيل ما فيه الكفاية، يتبادل هذان الحاجّان من الفلاحين كبار السن حول كوب من الشاى ثرثرتهما المحببة عندما زارا مكة المكرمة. أحدهما يستمتع بتدخين الشيشة، بينما صاحبه ينفث دخان سيجارته ماركة كيلوباترا (محلية الصنع) أو غيرها من الأصناف الرخيصة.

المقهى غير تقليدى. فالمناضد والكراسى تعكس ذوقًا مستحدثًا تفنن أصحابه فى جلب الحرفيين والمهنيين الذين صمموها على طراز حديث كما يدل الرسم.

عرفنا أن السيدات من بنات عائلات الصعيد فى المدن الكبرى، خاصة عواصم المحافظات، وبالذات من يعتنقن أفكارًا غير تقليدية ولديهن طموح ما، لهن تقاليد خاصة يحرصن على القيام بها فى فصل الصيف، بعد أن ينقضى اليوم الطويل بشمسه الحارقة ودرجة حرارته الخانقة داخل محيط المنازل التى تتمتع بالخصوصية والحماية. فوق أحد الحوائط الداخلية لبيت من بيوت الحجاج لا يبعد كثيرًا عن مدينة الأقصر. فوجئنا بمحاولة إبداعية قام بها فنان فطرى استلهم تجمعًا لعدد من السيدات. فكانت هذه اللوحة المنشورة فوق الصفحة المقابلة. التى نرى فيها عاملة المقهى شابة فتية ترتدى فستانًا أو لنقل زى عمل على أحدث طراز حيث الجزء العلوى يتميز بأكتافه العريضة. أما خصرها شديد النحول فتزينه جونلة منتفخة تتماشى أيضًا مع الموضة. أما حركتها الرشيقة فتؤكدها بالتوازن الذى تبديه وهى تسير بهذه الكيفية حاملة على رأسها إناء الماء ومصباح الكيروسين باليد اليسرى وابريق الشاى باليد اليمنى.

يسار اللوحة تحتله فتاتان عصريتان من بنات المدينة. أجلسهما الفنان فوق كرسيين معدنيين للتعبير عن حداثة المكان، وجعلهما تدخنان شيشة واحدة !! وحرص على أن يعبر وجهاهما عن الاستمتاع بالجلسة.

إمعان النظر فى اللوحة يوحى بتخيل نوع من التطفل الآتى من الزمن البعيد. كأنما واحد من كبار السن. لا يمت للمكان الذى يحتويه الرسم بصلة. انسلخ من صورة باللونين الأبيض والأسود كانت موضوعه داخل إطار مذهب قديم الطراز. يحدق باستنكار رزين فى هاتين السيدتين مستهجنا جلستيهما شديدة التحرر هذه. دون أن يكون فى مقدوره فعل شىء أكثر من ذلك.







الحاجة
فاطمة محمد عبد الحليم

مشاهد الحج التى تحدث فى سنة ما أو تتعاقب فى سنوات متتالية، خلال مسيرة الحياة فى الريف المصرى شمال البلاد وجنوبها وتتحول بعد فترة إلى ذكريات، تؤكد أن الحياة تنتعش فى القرى، خصوصاً بعد أن يمتد الظل وتختفى درجة الحرارة، التى تصيب كل من يتعرض لها بالإغماء وتنتبه الكائنات من نعاسها. فالحياة دائماً ما تعود إلى طبيعتها بالتدريج.

صورة هذا الفلاح سمهرى القوام من أبناء صعيد مصر (إلى يمين هذا النص) عارى القدمين صاحب الظهر المستقيم، حتى وهو راكب فوق حماره والذى يتمشى باطمئنان كما اعتاد منذ الصغر وكما سيفعل فى المستقبل. يرفع مقبض عصاه الذى غلفه بجلدة حمراء اللون كأنما يلقى التحية لمشهد المسجد الحرم المكى الذى ربما أيقظ فى روحه حلم زيارة مؤجلة.

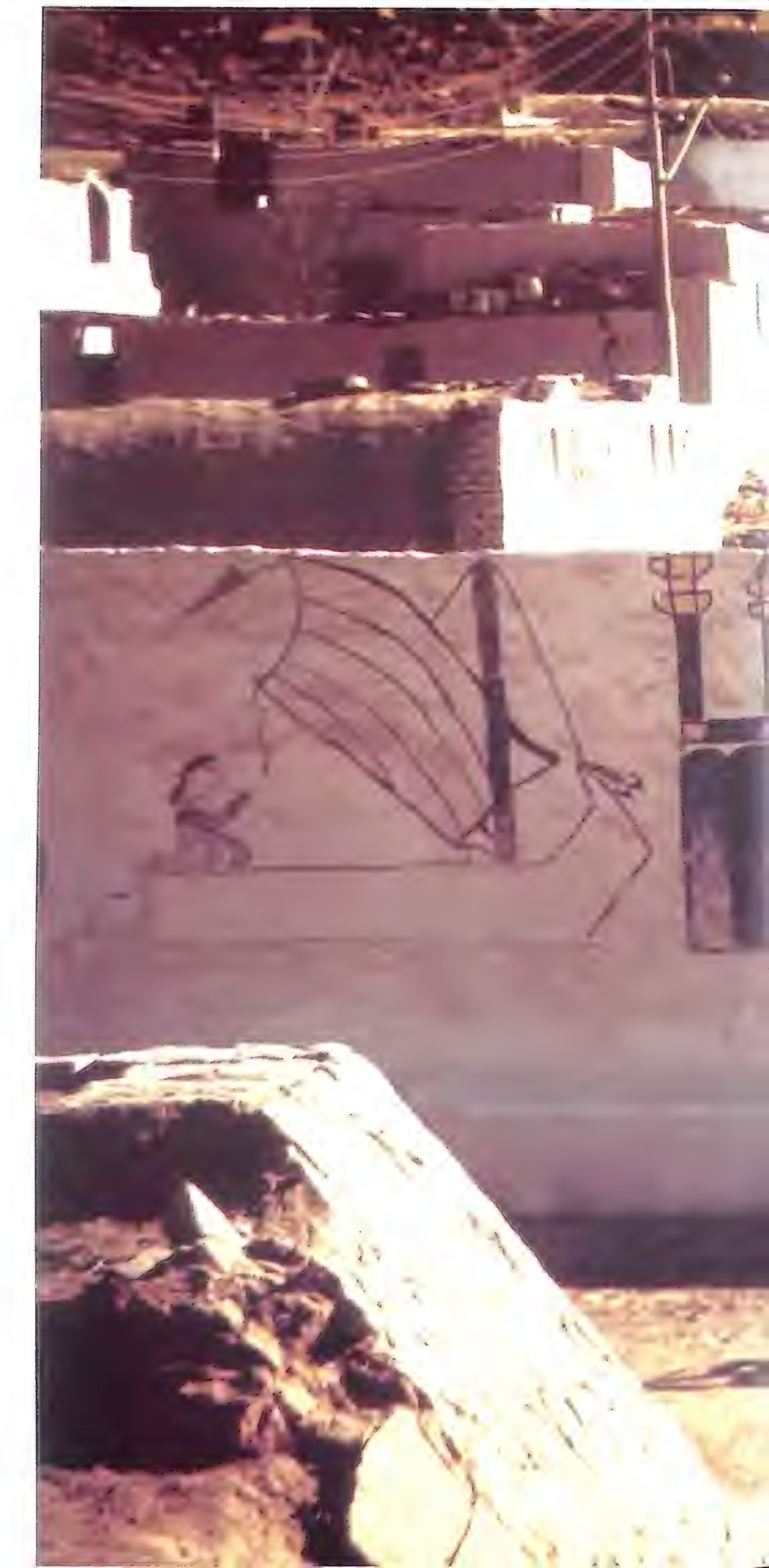
المسار الذى يمر به هذا الرجل يوميا مرتين على الأقل يقوده للسير بين مجموعة من البيوت التى تزين واجهاتها رسومات الحج، لذلك يمر بها متمهلاً مستوحيا من رمزية الرسومات مشاهد المسافرين إلى مكة المكرمة بالطائرة أو بالبحر، دون أن يلقى اهتماماً للقارب الشراعى المرسوم فوق الجدار يسار اللوحة والذى لا يمت لوسائل النقل البحرية بين مصر والسعودية بصلة.

هذه الجدارية - التى حرص الفنان على أن يطلى خلفيتها باللون الأبيض ليظهر بكثافة اللون الأسود الذى غلب على رسوماته - تقول لنا إن صاحبة البيت هى الحاجة فاطمة محمد عبد الحليم، واحدة من نصف مليون امرأة يذهبن لأداء الفريضة كل عام، والتى رسمها الفنان مرتين : صورة بورتريه على يمين الداخل إلى البيت، وصورة وهى تسبح الله فوق سجادة الصلاة بعد أن أنتهت من أداء صلاتها.

عرفنا أن هذا المكان قريب من رصيف لمحطة سكة حديد تربط البلدة بالقاهرة، وقد لوحظ لدينا أن ركاب هذه الوسيلة لا يتمتعون إلا بنظرة خاطفة على هذا النموذج الفاتن من الرسم الشعبى. ومن سوء الحظ أن مثل هذه اللوحات لا يتوقف عندها الغرباء ونقصد هنا السائحين على وجه الخصوص، إما لأنهم لا يفهمون مضمونها، وإما لأنها فى نظرهم "شخبطة صغار لا معنى لها"، أو لأنهم - وهذا هو الأسوأ - لم يلتفتوا إليها بالمرة، لأن برنامجهم السياحى موجه، فى الأغلب الأعم، لمشاهدة الفن المصرى القديم " الأثار الفرعونية " التى قطعوا المسافات البعيدة لأجل الفرجة عليها.

هذه الروح الريفية التى تتلبس الفلاح المار فوق حماره وتجعله على ثقة من أنه يوماً ما سيحقق حلم حياته ويسافر إلى مكة لأداء فريضة الحج، تجعله أيضا يتمنى أن يعود إلى قريته راكبا القطار، وأن يكون فى استقباله حفل كبير يعده له الأهل والأصدقاء أمام بيته، الذى ستزينه رسومات الحج الجميلة التى يعلوها اسمه فوق الباب مسبوقًا بلقب "حاج"، والذى سيكون فيما بعد مصدر فخر كبير له.

هذا الرجل يتحصل على معلوماته حول رحلة الحج من تعليمات الدين الإسلامى والتجارب التى يحكى عنها من سبقوه إلى أداء الفريضة، بالإضافة إلى التغطية السنوية العريضة التى يوفرها تليفزيون الدولة لهذا الحدث شديد الأهمية. أما فى الوقت الراهن، وعلى الرغم من أهمية مصادر المعرفة هذه، فإن أقرب معارفه سيستخلصها من رسومات الحج التى تزين حوائط البيوت التى يراها يوميا فى طريقه إلى الحقل ذهاباً وعودة، وإلى الجامع لمشاركة أصدقائه صلوات المساء الجماعية.





التعريف بفنانى رسومات الحج

أحمد حسن فرحوت

يعمل الفنان أحمد حسن فرحوت بالتدريس، ويعيش مع زوجته وأسرته الكبيرة فى وسط قرية الشرفا من قرى محافظة المنيا التى تبعد حوالى ١٥٠ ميلاً جنوب القاهرة، كغيره من زملائه سافر للعمل فى عدد من الدول العربية، وبعد كل مرة يعود فيها من الغربة يحرص على تعزيز دخله المتواضع برسم لوحات فوق واجهات بيوت الحجاج لعدة أسابيع كل عام. وعلى الرغم من أن مدينة المنيا عاصمة المحافظة تقع على الجانب الآخر من النهر فى مقابل قرية الشرفا، ويمكن الوصول إليها باجتياز الجسر العريض الذى يربط بين الضفتين من نقطة تقع أمامها مباشرة، فإن هذه القرية تبدو نائية وعديمة التأثر بنشاطات المدينة المتسارعة.

ظل فرحوت رغم هذا القرب اللصيق من عاصمة المحافظة فنانًا محليا على مستوى قريته والقرى المحيطة بها. فى موسم تزيين البيوت لاستقبال الحجاج العائدين من مكة، يلجأ إليه السكان والجيران فى قريته والقرى المجاورة طلبًا لخدماته الإبداعية. ومنذ أن صارت كل هذه التجمعات السكانية متراصة إلى جانب بعضها البعض عبر طريق سفر ترابى طويل يمتد شمال الطريق السريع المرصوف الذى يؤدى إلى الجسر، قلّت فرص مشاهدة الأغراب لرسوماته الرائعة.

الحقيقة التى اكتشفناها أن الفنان الشعبى المصرى إن لم يروج لما يبدعه من رسومات داخل بيوت زبائنه، فإن غالبية لوحاته الأكثر إبداعًا ستظل مجهولة ومنسية؛ ذلك لأن الرسومات الداخلية تعيش فترة أطول من تلك التى تُرسم على واجهات البيوت الخارجية، لأن الداخل يحميها من العوامل البيئية التى تطفئ أكثر الألوان إشراقًا بعد عدة فصول، أشعة الشمس الحارقة وذرات التراب والرمال والأمطار الموسمية.

الكثرة من فنانى رسومات الحج هى التى تضفى بشكل عمومى لمسات فنية مبهرة فوق حوائط البيوت من الداخل، أما القلة فهم الذين يبدون اهتمامًا أكبر بتصميمات هذه الجدران كما يفعل فرحوت. وإذا اعتاد الزائر على الرؤية فى الضوء الخافت فستبهره الظلال التى تنعكس على حوائط هذه البيوت الريفية، والتى تبدو كما لو كانت تقدم له (الزائر) التحية بما تبرزه من مشاهد مدهشة ورائعة ذات ثراء ملحوظ.

يعتبر الرسام رجب سيد أحمد متولى كغيره من أقرانه الفنانين أن رسم الكعبة هو الرمز الأكثر شهرة للتعبير عن رحلة الحج، لذلك نراه يحرص على تنفيذه فى معظم الجداريات التى قام برسمها. أول بيت لله كما يعتقد المسلمون، يرسم دائمًا مغطًى بالكسوة التى يحرص متولى دائما على أن يظهرها فى شكل منظور فنى مجرد تحيط به حوائط المسجد الحرام الطويلة الضيقة المقنطرة.

هذه اللوحة - التى لم تكن قد اكتملت عندما التقطنا صورتها الفوتوغرافية - وطوابقه ذات الملامح الحيوية الهندسية الرائعة، تعرضت لمراحل متدرجة من التطوير، بإضافة أعداد متزايدة من شخوص الحجاج الذين رسمهم الفنان متجاورين كالعصى الذهبية، والذين من أجلهم تسلق متولى درجات السلم بسرعة لكى ينتهى منها قبل أن تختفى آخر خيوط ضوء النهار.



من أهم المهارات التى يجب أن يتمتع بها فنان رسومات الحج أن يكون قادرا على أن يطوع فنه وفق المتاح أمامه من مساحات فراغية. أينما وجدنا رسومات تعبر عن رحلة الحج، سواء كانت خلفية شرفة تستخدم لنشر الثياب المغسولة فى إحدى شقق بنايات مدينة السويس، أو فوق واجهة محل متواضع فى مدينة الأقصر، أو مبعثرة فوق حوائط بيوت الفلاحين فى ريف مصر، سنلاحظ الوجود الكلى لصورة الكعبة يفرض نفسه رمزًا قادرًا وحده على شرح الرسالة التى تقول " خلف هذه الجدران يعيش مسلم تقى وفقه الله لأداء فريضة الحج ".





الفنان المدرس أحمد حسن فرحوت يُرى هنا واقفاً أمام واحدة من أقدم إبداعاته الفنية، التى تتضمن تفاصيل ما كان يعرف بـ "محمل النبى"، حيث نلاحظ حيوية الخطوط الجريئة التى تحدد بصلابة أبعاد الصورة التى رسمها، وتحدد بوضوح ملامح الرجل ودابته وعلى الرغم من أن الكثير من رسومات الحج التى أبدعها هذا الفنان يمكن مشاهدتها فى عدد من القرى المصرية، فلازال يعيش داخل بيئة فنية منعزلة ضمن مجتمع قروى صغير بالقرب من مدينة المنيا.

مثل غيره من الفنانين المنتمين لمملكة الفن الشعبى العالمى يُبدى فرحوت - رغم حيائه ورضاه بما هو عليه - تخوفاً عارماً تجاه موهبته، وبينما يرى هو رسم اللوحات وسيلة إضافية للتخفيف من أزمته المالية المتواصلة بسبب ظروف أسرته، يراه آخرون مصدراً لا بأس به لزيادة الدخل.

وعلى الرغم من أن أثاث مثل هذه الحجرات ذات الأسقف العالية لا يتميز بالفخامة فإن حوائطها الكالحة تحولت بفعل هذه الرسومات إلى تصميمات فى غاية الحيوية.

على سبيل المثال تحتل صورة آدم وحواء الضخمة (صفحة ١٦٨) معظم مساحات الحوائط الداخلية لغالبية البيوت، وكل منها تختلف عن الأخرى بفارق طفيف. أما الصورة التى عكست شخصية الخليفة على بن أبى طالب (صفحة ٩٤ - ٩٥) فقد عبرت بصدق عن صرامة قسمات وجهه الكريم وهو يجلس طاويًا رجليه، بينما يقف ابناه الشهيدان الحسن والحسين عن يمينه وشماله ممسكين بمقبضى سيفيهما برشاقة.

يفضل فرحوت إلى جانب ذلك أن يصور رسومات تمتُ بصلة إلى مناسبة عيد الأضحى المبارك (صفحة ١٠٨) باعتبارها من أهم الحوادث المتعلقة بفريضة الحج، ونقصد بذلك قصة سيدنا إبراهيم واستعداده لذبح ابنه الحبيب إسماعيل قبل أن يرسل الله الملاك جبريل ليوقف عملية الذبح ويفدى الفتى الطائع بكبش.

وعلى الرغم من أن العديد من فنانى رسومات الحج يرسمون هذا الموضوع الغنى بالدلالات، لم ينجح واحد منهم فى أن يعكسه كما فعل فرحوت. وهو أيضا مغرم برسم القرويات وهن يمشين حاملات جرار الماء فوق رءوسهن بطريقة رشيقة بالقرب من طلمبة مياه القرية (صفحة ٨٨). وعلى الرغم من أن مثل هذا الرسم ينسب إلى المدرسة النفعية التى ترصد أوجه الحياة اليومية على امتداد الريف المصرى، فإنه يستدعى لذهن المشاهد قصة السيدة هاجر فى بحثها الدءوب عن شربة ماء تسقى بها وليدها إسماعيل، واكتشافها الأسطورى لبئر زمزم التى يحرص زوار مكة المشرفة، ليس فقط على شرب مائها وإنما أيضا على حمل بعض منه بغرض إهدائه للعائلة والأصدقاء بعد العودة إلى ديارهم.

يفتخر فرحوت الذى مارس حرفة رسم بيوت الحجاج لأكثر من عشرين عامًا، بأنه علم نفسه أصول وقواعد المهنة. إنه لا يلجأ إلى رسم كروكى للوحاته على الورق، وبدلاً من ذلك يقوم بتصميمها مباشرة فوق أسطح الحوائط الخشنة التى تعاقد على تزيينها.

من سوء الحظ أن بعضًا من رسومات فرحوت تعرضت لزوال سريع بسبب ما تعرضت له ألوانها من تقشير وتفتت، ويرجع ذلك إلى التضارب الكيميائى بين المواد التى تستخدم لتسوية أسطح الحوائط ومعالجة عيوبها من ناحية وبين تركيبة الألوان من ناحية أخرى، الأمر الذى أدى إلى فقد مؤلم للعديد من الأعمال الفنية الرائعة (الصفحة التالية من أسفلها).

فرحوت فخور بكل الأعمال التى تفتقت عنها قريحته، مثله فى ذلك مثل العديد من الفنانين البسطاء الذين يملكون موهبة فطرية، وهو على ثقة تامة أنها من الطراز الأول، ربما لهذا السبب يبدى اهتمامًا محدودًا عندما تعرض عليه صور لرسومات حج نفذها غيره من الفنانين فى أماكن أخرى من محافظات مصر. الطريف أن أعماله التى ذاع صيتها وخصوصًا تلك التى رسمها بحجمها الطبيعى، والتى يمكن للمتخصص التعرف عليها بنظرة سريعة ويحفظها أهل قريته بشكل شخصى، يقوم بتقليديها عدد من فنانى رسومات الحج، لكن عند المقارنة يلاحظ المدقق أن التقليد يفتقد الأسلوب الفعال الذى يتميز به المبدع الأصلى كما تفتقد اللوحة حيويتها.

إبداعات فرحوت لا تنال ما تستحق من تقدير فى موطنها الأصلى، لأن غالبية زبائنه من القرويين البسطاء الذين لا يعرفون قيمة الموهبة الفنية لفنانهم الاستثنائى. فرحوت يتقاضى أجورًا متواضعة، لأنه يعلم أن الكثير من زبائنه أنفقوا فى الغالب الأعم كل مدخراتهم لكى يقوموا بأداء فريضة الحج، وهذا الأجر يأتى فى مستوى أقل بكثير مما يتقاضاه غيره من الفنانين فى مناطق أخرى أكثر ازدهارًا.

نفذ فرحوت عام ١٩٨٦ رسوماته فوق ستة بيوت فى ثلاث قرى مختلفة، وتقاضى من صاحب إحداها بعد أن زين له الواجهة وحوائط حجرتين فى الداخل أربعين جنيهًا مصريًا أجرًا، منها عشرون جنيهًا للمواد الخام، وذلك بعد أن تفرغ لهذا العمل يومين كاملين. فى الحقيقة يمكن القول إن كل الرسومات التى نفذها هذا الفنان فى فترة الثمانينيات أضافت إلى دخله عدة مئات من الجنيهات، ولكنها لم تكن كافية للتخفيف من أعبائه المالية. ربما لهذا السبب وقع عقد عمل لمدة عامين مع إحدى شركات النفط السعودية، وبعد انتهائهما عاد للعمل مرة أخرى فى مدرسته المحلية، وفى نفس الوقت استغل مدخراته التى حققها من وراء هذا التعاقد لكى يفتتح دكانا متاخمًا لمدخل المدرسة يبيع فيه المشروبات والحلويات لتلاميذ المدرسة، بالإضافة إلى ذلك واصل إبداعاته فى ميدان رسومات الحج بطاقة متجددة.

يتمتع أحمد حسن فرحوت بحس مرهف فى اختيار الألوان؛ فغالبًا ما يرسم لوحات واجهات البيوت الخارجية فوق أرضية من اللون الأصفر الذهبى، بينما يحتفظ باللون الأزرق الذى يعبر عن تقاليد الحج لحوائط البيت الداخلية. إلى جانب ذلك يلون قاعدة الأسطح التى سيرسم عليها لوحاته بحزام من الألوان الراسخة ودائمًا ما يكون لون الطين الفخارى مناسبًا للحوائط الخارجية واللون البنفسجى الخفيف للحوائط الداخلية، ثم يلجأ بعد ذلك إلى الفصل بين هاتين المساحتين المجهزتين باستخدام النماذج المتكررة لإبداع مجموعات من الزهور التى يجعل منها إطارًا يتمدد برشاقة حول الحوائط (صفحة ١٠٢ - ١٠٣) جاذبًا الأنظار إلى إبداعاته الجريئة من خلال الفراغات المتتالية.

شهدت تركيبة الألوان التى يستخدمها فرحوت خلال السنوات القليلة الماضية نقلة نوعية متطورة، فقد لوحظ أنه بدأ يستخدم اللون البنفسجى الغامق خلفيات فى مناسبات عديدة، أما رسوماته الداخلية فيحيطها بإطار من اللونين القرمزى والفيروزى (الصفحة المقابلة). درجات الألوان التى يصور بها العديد من شخوصه والتى غالبًا ما يرسمها بظلال من السُمرة أو الحُمرة، أصبحت تميل إلى اللون الوردى المتدرج. وفى نفس الوقت اتخذ أسلوبه فى كتابة الخطوط العربية نزعة معاصرة تمثلت فى كتابة كلمة واحدة مثل "الله" التى يخطها رحبة الآفاق ويلونها بالألوان الجاذبة للانتباه ويحيطها بما يشبه أشعة الشمس، بهدف التركيز عليها بكل الأساليب (صفحة ٢٧)[٦١].

(٦١) كذا فى الأصل الإنجليزى، والكلمة المشار إليها فى هذه اللوحة «يارب».

الحقيقة التى تثير الحزن أن رسومات الحج سريعة الزوال أكثر مما يتوقع لها، وإذا كان من أهم أهدافها أنها تعد أحد مظاهر الاحتفال بعودة الحاج سالماً إلى داره، فإنها تؤدى هذا الغرض وهى ما تزال طازجة ومبهرة. الانطباع الأول لهذه اللوحة التى رسمها أحمد فرحوت يعبر عن حاج يقف داعياً فوق جبل عرفات، يلاحظ أن زحام الحجاج المعتاد فى مثل هذه اللحظات غائب من حول الخيام المنصوبة حول جبل الرحمة، ربما لأنهم سبقوا هذا الواقف الذى لوحت الشمس لون جسمه إلى مزدلفة. أما الأشعة الدقيقة التى رسمها الفنان إلى يمين النافذة حول الكلمات التى كتبها بحروف كبيرة وتقول " لا إله إلا الله محمد رسول الله " فتعطى انطباعاً متلألئًا بما توحى به من توحيد وشهادة.

يهمنا أن نشير هنا إلى أن صورة هذه اللوحة التقطت بعد أيام قليلة من انتهاء الفنان من وضع لمساته الأخيرة عليها عام ١٩٨٨ احتفاءً بعودة الحاج منازع محمد إسماعيل من الرحلة المقدسة. أما الصورة التى إلى الأسفل منها فهى للوحة رسومات حج قديمة رسمها نفس الفنان قبل أربعة أعوام للحاج غالب محمد إسماعيل شقيق الحاج منازع، والذى عرفنا أنه يقيم فى جانب آخر من نفس البيت. اللافت أيضا أن الفنان فى لوحته الجديدة عبر عن احتمال ذهاب الشقيق الثالث إسماعيل إلى الحج فى العام التالى (١٩٨٩) كما كتب أعلى يسار اللوحة.

بعض اللوحات الجدارية قد يطول عمرها عدة عقود، بينما تبدأ ألوان بعضها الآخر فى التشقق والتحلل بعد أشهر قليلة من رسمها. المشكلة هنا ثنائية : الألوان التى تفتقد القدرة على الاستدامة فترة طويلة تتأثر سريعاً بأشعة الشمس القوية، وبالذات اللون الأحمر الذى يتحول تحت سياطها إلى البنفسجى الباهت، وفى هذه الحالة يُعزى قصر عمر هذه اللوحات لأسباب اقتصادية، أما السبب الآخر فهو نوعية الألوان فاقدة الجودة. وهناك أيضا مشكلة ليست فى الحسبان، ونعنى بها تفتت الألوان من فوق أسطح الحوائط، بسبب طبقات المواد غير المتجانسة التى تتشكل منها هذه الحوائط التى تبنى بها بيوت القرويين فى الريف المصرى.

الثابت لدينا - بغض النظر عن أن الهدف الأساسى من تزيين بيوت الحجاج العائدين، يتحقق للكافة عبر الاحتفال المصاحب لقدومهم - أن الجدارية تترك بعد ذلك فريسة للعديد من العوامل التى يمكن أن تتعرض لها. الرسمان المنشوران أحدهما فوق الآخر إلى يسار هذا الكلام، يعبران عن هذا الواقع أصدق تعبير.







تدقيق النظر إلى صورة هذين المخلوقين فى خلال وقت الظهيرة، من خلال الظلال التى تعكسها أعواد السقف الخشبية يضفى على نظرتيهما المفترسة شديدة الغدر - والتى يبحلق كل منهما بها فى وجه الآخر - إحساساً نابضا بالحياة على الرغم من كلاحة لون باب البيت الذى يفصل بينهما. قصد الفنان من وراء رسمهما فى هذا المكان الإيحاء بأنهما يحرسان البيت، بعد أن حدد ملامح أحدهما باعتباره أسداً والآخر بكونه نمراً. يكاد المرء يسمع صوتهما المرعب. يمثل الأسد فى مصر رمز القوة والحماية ؛ لذلك يعد من بين النماذج الفنية المفضلة التى يحرص فنانو رسومات الحج على تنفيذها فوق الحوائط. وبسبب قوة الأسد والنمر الخرافية وشجاعتهما، يميل بعض الفنانين إلى تصوير الحسن والحسين ابنى الخليفة على بن أبى طالب رضى عنهم أجمعين ملكين للحيوانات المفترسة، سواء عن طريق الرمز أو المباشرة.

الفنان فرحوت يقوم بتصميم أفكاره الأولية بانطلاقة تتميز بسرعة تحديد أبعاد وملامح شخوصه ورموزه الدينية، ثم يبدأ بعد ذلك فى تلوين كل منها بعدة ضربات من ألوان فرشاته لكى يحدد بشكل نهائى ما يريده من تأثير. هذا الرسم الذى أعلى النص يرجع إلى عام ١٩٨٤ عندما نقارنه باللوحة التى رسمها نفس الفنان بعد ذلك بأربع سنوات يتأكد لنا أنه أصبح أكثر تمكناً فى رسم الحيوانات التى اشتهرت بها رسوماته.

ليس من المعتاد لأسباب مالية أو لغيرها أن يؤجل التعاقد على تنفيذ رسومات الحج التذكارية إلى وقت آت، لأن لوحة رسومات الحج تعد من أساسيات الاحتفال بهذه المناسبة، بل هى عند البعض المؤشر الأكثر بهجة. اللوحات الثلاث المنشورة على هاتين الصفحتين تؤكد كل المعانى التى يدور حولها تقليد رسومات الحج التى يحرص عليها المصريون تعبيراً عن فرحتهم بعودة ذويهم من الرحلة المقدسة.



لذلك لا نستغرب أن نجد فرحوت يقدم عبر السنين خيالات جديدة ضمن شخوصه البشرية غير المعتادة ؛ فمثلاً رسم جزارًا يلوح بساطور التقطيع فوق «القرمة» الخشبية التى يقطع عليها اللحوم (صفحة ١١٦) وعلى الرغم من أن هذا الرسم يوضح من البداية أحد المضامين المهمة لفريضة الحج، فإنه يعبر فى نفس الوقت عن سمو فكرة الأضحية. هذا الرسم والآخر المنشور فوق الصفحة رقم ٨٤ يدلان على أن فكرة اللوحة يمكن أن تنفذ بناء على طلب شخصى من المتعاقدين عليها مع الفنان؛ فالرسم الثانى تم بالتأكيد بناء على طلب زوجة الحاج التى أنجبت مولودها الأول، فقام برسمها وهى ترضعه، ولما استفسرنا من السيدة الشابة عن هذا الرسم قالت إنها طلبت من الرسام أن ينفذه ليس فقط لتأكيد أمومتها، ولكن لكى يزيد من تعميق فكرة البداية النقية أو الولادة الجديدة التى أصبح يتمتع بها زوجها، بعد أن وفقه الله فى أداء فريضة الحج.

وهناك شخوص شديدة الغرابة وشخصيات كثيفة اللحية ابتدعها فرحوت، عندما نراها ينتابنا إحساس بأنها عبارة عن مشاهد مأخوذة من قصة " حاجى بابا " الأسطورية Hajji Baba Tales،[٦٢] أو بشكل أكثر تحديدا نرى فيها نماذج منقولة من طراز قديم لكتب الأطفال، من المحتمل أن يكون واحد من هذه المؤثرات قد ترك بصمته على فرحوت منذ أن كان فى صفوف الدراسة، وأسهم فى تشكيل رؤيته الخاصة لمفهوم الفن.

لا يهمل فرحوت رسم نموذج المسجد النبوى الشريف الذى يعد أهم الرموز، بعد الكعبة المشرفة التى يستعين بها الفنانون لتزيين لوحاتهم التى يرسمونها، بالإضافة إلى مشاهد الحجاج وسلوكياتهم أثناء الصلاة، وصور الإبل التى تغطيها الأثواب المزركشة، والتى تستخدم للسفر، وكذا السفن الوهمية والطائرات، والعديد من الرموز المشهورة التى تعبر عن الحج. ولكنه غالبًا ما يضيف رسم سقّاء يوزع الماء على الحجيج، أو وعاء تنطلق منه سحابات البخور الطيب (صفحة ٨٨ و١٤٨).

---

(٦٢) رواية وقعت أحداثها فى إيران، كتبها البريطانى جيمس جوستنيان ونشرت لأول مرة عام ١٨٤٢، تحكى مغامرات ابن حلاق إيرانى من أصفهان، سافر مرافقا للتاجر التركى عثمان أغالكى يسليه فى الطريق إلى مدينة مشهد. ولما عاد سجل حكاياته التى كان يقصها على عثمان أغا فى هذه الرواية . (المترجم).

بعض من جداريات فرحوت الأكثر حيوية تتضمن ملامح لمخلوقات مفترسة وماكرة، بعضها يجثم فى الصورة ومخالبه عارية مستعدا للانقضاض على شىء ما لكى يمزقه إربًا، أيا كان هذا الشىء طيبًا أو شريرًا، مادام قد حاول اقتحام المنزل الذى رسم عليه (صفحة ١٦٧).

ختامًا نقول إن نتاج أحمد حسن فرحوت محدود نسبيا وإن أعماله أقل تهذيبًا من لوحات فنان مثل على عيد، وأقل تعقيدًا من إنتاج السنوسى، وأقل فى شهرتها من رسومات فنانى بلدة القرنة، وعلى الرغم من ذلك نؤكد أن أسلوبه القوى وصوره التخيلية تضعه فى مقدمة هؤلاء الفنانين، الذين يتراتبون بين الأفضل والأكثر قدرة على الإبداع ممن يمارسون حرفتهم على مستوى تقاليد فن الرسم الشعبى الاستثنائى فى مصر المعاصرة.

أحمد محمود السنوسى

هذا الفنان على عكس الكثيرين من زملائه، حصل على شهادة دراسية فى مجال الفنون الجميلة، وربما يُعد لهذا السبب أكثر الفنانين المصريين حنكة فى ميدان رسومات الحج. ومنذ تخرجه عام ١٩٧١ نجح بصفته فنانًا فى تحقيق هدفين : الأول أن يكون رساما متميزا بخيالاته، والثانى أن يكون مدرسًا له بصمته الخاصة. أما رسوماته المتعلقة بالحج، التى تُعد جزءًا ذا مغزى ضمن إطار إنتاجه الفنى ككل، فتتميز بأن لها طرازها الخاص وأنها نفذت بعمق ملحوظ، وكلها تبين بجلاء تأثير كل من بيكاسو [٦٣] وماتيسى [٦٤] العملاقين العالميين اللذين يعرف الفنان السنوسى أعمالهما ويقدرها بعد أن تعرف عليهما من خلال دراسته الجامعية.



نفذ الفنان فرحوت قصة آدم وحواء فى جنات عدن التى تؤمن بها الديانات السماوية الثلاث الإسلام واليهودية والمسيحية باعتبارها بداية الخلق، برؤى مختلفة، ويعلق هو على ذلك قائلاً: إنه حرص بقدر الاستطاعة عند التعبير بشكل رمزى عن الفيوضات المهمة للحج، على الإشارة إلى الميلاد الجديد للحاج الذى تطهر من ذنوبه بعد أن أتم للتو شعائر الحج. هذا المشهد الذى نراه فى الصفحة المقابلة كغيره من اللوحات التى رسمها لسيدنا آدم وسيدتنا حواء، نفذه فرحوت فوق جدارن البيت الداخلية، حيث احتل حائطًا بأكمله داخل الحجرة الرئيسية. الشخوص الأسطورية رسمت بحجم أكبر من الحجم الطبيعى لإنسان اليوم، انطلاقًا من الاعتقاد الذى يوحى بأصلهما الضخم المتناسق.

تروى قصص الدين الإسلامى أن آدم وحواء اللذين كانا يتجولان بين قفار ووديان العالم الغريب الذى هبطا إليه بعد أن طردا من جنة عدن، كا ن طول قامة كل منهما حوالى ٨٠ قدماً، وبعد مائتى عام من التجول استقر بهما المقام فوق جبل عرفات. فى المشهد نرى الحية الماكرة تلف جسدها حول الشجرة، ونرى آدم ذا الجسمان البدائى يهم بقطف الثمار المحرمة، أما حواء فنراها امرأة «مسترجلة» المظهر، ونلمح بوضوح حرص الفنان، تحقيقًا لمبدأ السلامة والاحتشام، على تغطية عورتيهما وفق التقاليد التى درج عليها بورق بالغ الضخامة، يبدو منتزعًا من شجرة تنمو فى المنطقة الاستوائية أكثر من كونها شجرة توت صحراوية.

ولمزيد من الإيضاح كتب فرحوت بالقرب من شخصى آدم وحواء اسميهما وأسبغ السلام على كل منهما، وأشار إلى الحية باعتبارها «إبليس فى صورة حية».

الفنان أحمد السنوسى الذى نراه إلى يمين هذا الكلام، والذى حصل على درجة علمية بعد أن أنهى دراسته الحرة فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، ويرأس حاليًا القسم الفنى بإحدى المدارس الثانوية الفنية بمدينة إسنا، يعد من الفنانين المتخصصين ذوى المواهب المتعددة فيما يتعلق برسومات الحج. ويدل رضاه اللبق بالوقوف هكذا أمام كاميرتنا، على كونه رائداً لفنانى الإقليم بشكل حميم وثقة فى النفس، خصوصا وهو يحمل لوحة الألوان التقليدية كبيرة الحجم، وعلى أن استعداده لتحمل تبعات العمل الشاق يُعد واحداً من أهم الجوائز التقليدية التى يحرص عليها.

---

(٦٣) بابلوبيكاسو Pablo Picasso (١٨٨١ - ١٩٧٣) يعد واحدا من أشهر الفنانين التشكيليين فى العالم، ولد بمدينة مالاجا الإسبانية، واشتهر بمذاهب عدة فى الرسم، منها التكعيبية والانطباعية. ومن أشهر فترات حياته الفنية الفترتان الزرقاء والوردية، واشتهر أيضا بوجوه المخلوقات التى رسمها بطريقة مبتكرة، إلى جانب لوحاته المنتشرة فى كل متاحف العالم أنتج بعض الأشكال الفنية من السيراميك والبرونز، كما نشر بعض دواوين الشعر . (المترجم)

(٦٤) هنرى ماتيسى Henri Matisse (١٨٦٩ - ١٩٥٤) رسام فرنسى شهير، ولد بمدينة لى كاتو، وبعد أن درس القانون فى باريس أخذته موهبة الرسم بعيدا عن المحاكم التى كان يعمل بها، ولما بدأ يمارسها بانتظام منذ عام ١٨٨٩ خاصمه أبوه. فرجع إلى باريس حيث تعلم أصول الفن. له منحوتات زجاجية شهيرة فى كنيسة الدوميكان بمدينة فينتشى، ومعظم أعماله معروضة فى متحفى نيس وكانو . (المترجم)



لا يملك فنانو رسومات الحج رفاهية العيش من حصيلة الدخل الذى يتحصلون عليه مقابل قيامهم بتنفيذ لوحاتهم الدينية فقط، على الرغم من أنها تمثل إبداعاً له قيمته. ربما يتاح لهم فى بعض الأحيان الحصول على مكافآت إضافية عندما يطلب منهم تنفيذ أعمال فنية ضمن حدود المجتمع الذى يعيشون فيه، كما حدث لأحمد حسن فرحوت عندما كلف بتزيين مدخل المدرسة القروية (الصورة التى أعلى هذا النص)، التى لا يسمع بها أحد خارج بيئتها، التى يعمل بها، فجعله مبهجاً وأكثر لفتاً للأنظار.

أما الفنان محمد العرابى ابن مدينة إسنا فقد قام فى بيئة ريفية أخرى برسم أحد زبائن بائع المأكولات الجاهزة السريعة وهو يفتح عينيه على اتساعهما بينما يلتهم نصف رغيف من الطعام ذى المذاق الخاص، وكتب حوله من الناحيتين متمنيا له الصحة والعافية " بالهنا والشفا " ضامنا بذلك أن اللوحة التى تظهر صورتها إلى يسار هذا النص ستشد عينى أى جائع يمر بالقرب من الدكان الذى تزين حائطه الداخلى.

170 - 171



عندما تنتهى ظهيرة أيام الصيف وتخف درجة الحرارة التى تلف قرى صعيد مصر بسخونتها مع بداية نسائم الغروب، تتوقف كل الأعمال التى تحتاج لنشاط وفاعلية، ويتوجه الرجال مع بعضهم البعض إلى المقاهى، حيث يجلسون ساعات طوالا يلعبون النرد والدومينو والورق، ويحتسون الشاى السادة بالنعناع والقهوة التركى، وفى بعض الأحيان يتحدثون باسترخاء وهم يدخنون الشيشة.

هذه السلوكيات التى يراها الفنان على عيد ياسين بعينه الحساسة الذكية وبأسلوبه المتفرد فى تزيين بيوت الحجاج، كثيرا ما تدفع موهبته فى اتجاه ابتكار لوحات فنية ذات صبغة تجارية، كهذين الرسمين إلى يسار هذا النص وأسفله، والتى غيرت تماما من شكل ممر المقهى الداخلى، وحولته إلى مكان يتمتع بالجاذبية والترحيب.



واجهات البيوت التى رسمها هذا الفنان تحمل بصفة عامة إحساسًا قويا بالتناغم والتصميم المسبق القائم على القواعد التى وضعتها المعارض الفنية العالمية. وهو فنان يعمد إلى إدماج عدد من النماذج التكرارية داخل لوحته، نراه غالبًا ما يضعها فى شكل موجات متتالية أو يصفها خلف بعضها البعض. لذلك يستخدم الألوان غير المظللة التى تشير بانسجام إلى جسارة تخيلاته المجردة وتشرح رسائله الضمنية.

لاحظنا أن معظم جداريات رسومات الحج التى أنتجها السنوسى توجد على امتداد مدينة إسنا حيث يقيم هو وأسرته، وثبت لدينا أن لوحاته المبهرة التى يزداد عددها فى القرى والتجمعات الزراعية القريبة من المدينة، تقدم كل منها لمسة فنية تدل على النبوغ غير المتوقع، حيث يميزها اللون الأسمر الفاتح النابض بالحيوية، والمجموعات التكرارية متوحدة الألوان، التى يضعها فوق جداريات البيوت الريفية المتواضعة.

السنوسى فنان مغرم بتخليد رموز شعيرة الحج فى شكل صور، لأنه يحس من داخله أنه قادر على المشاركة فى ترقية الأذواق بالفن الذى تعلم أصوله، ليس فقط عن طريق تعليم طلابه، ولكن أيضا عن طريق تنفيذ لوحات رسومات الحج على مستوى المجتمع الذى يعيش فيه. قال لنا السنوسى إنه رسم جداريات فوق حوالى مائتى بيت من بيوت الحجاج، لكن المحزن أن معظم هذه الأعمال لم يعد لها وجود اليوم.

يقوم السنوسى بتجهيز الحائط الذى ينوى تنفيذ تصميمه الفنى فوقه، بحيث يصبح قابلاً للتفاعل مع الألوان التى سيستخدمها، حتى يغدو قادرًا على التعبير عن إبداعاته فى أفضل صورها. يقوم أولا فى منزله بإعداد بعض الإسكتشات المبدئية على الورق، وبعد ذلك يؤسس للوحته مستخدما أنواعًا جيدة من الزيت والورنيش، لهذا السبب تحتفظ رسوماته بنضارتها فترة أطول من لوحات غيره من الفنانين، وتعد صورة الحمامة من بين أهم الصور التى يستخدمها السنوسى فى العديد من لوحاته، لأنها تمثل بالنسبة له النموذج المطلق للسلام. كثيرا ما رسمها جاثمة فوق كتف حاج يرفع يديه بالدعاء أمام الكعبة الشريفة (صفحة ٧٨ - ٧٩)، كما يهتم بإضافة أوانٍ وأباريق طويلة فى بعض لوحاته تعبيرًا عن الماء الذى يُعد المصدر الوحيد للتطهر بالوضوء الذى يُعد بدوره مكونًا أساسيا لشعائر المسلم، ليس فقط بالنسبه لأداء فريضة الحج ولكن لأداء فروض صلواته اليومية (صفحة ٧٨ - ٧٩ وهذه الصفحة).

يعد السنوسى من الفنانين الملتزمين الذين يحفزهم كل عمل جديد مهما كانت نوعية الحائط الذى سيزينه، فى بيت أسرته قام بإعادة تسوية جدران الحوائط الداخلية، ورسم عليها مجموعة الرسومات الجسورة والخيالية، وجعل منها معرضاً للنماذج التجريدية (صفحة ١٦٩) إلى جانب ذلك قام بتزيين كل أثاث البيت من مناضد ومقاعد لا ظهر لها وكذا الثلاجة. بل إنه قام بطلاء بعض البلاطات التى تغطى المنطقة المحيطة بالحوض الذى يغسل فيه أفراد الأسرة أيديهم ووجوههم، بألوان ورسومات غاية فى الإبداع. أيضا يجيد السنوسى فن الغناء والعزف على الطبلة، التى رسمها إلى جانب أدوات موسيقية أخرى. أما فصول وممرات مدرسته ذات المبنى الضخم فى وسط مدينة إسنا، فتمتلئ بالعديد من نماذج أعماله الفنية، لذلك ما إن يصادف السنوسى سطحاً خالياً من الرسم حتى يندفع بشعور طبيعى لتزيينه بواحد من تصميماته الملونة.

الفنان السنوسى، فى أوائل الأربعينيات من عمره متزوج وله ثلاثة أولاد، نشأ فى أسرة فنية وله أخ أصغر منه يحترف الرسم وأخت أصغر منه أيضاً تقوم بتعليم الموسيقى فى مدرسة حكومية. أخته الأكبر هى التى علمته مبادئ الفنون عندما كان صبيا صغيراً، أما أبوه فكأن فنانا من زاوية أخرى لأن عمله فى ورشة لإصلاح السيارات كثيراً ما كان يدفعه إلى ابتكار حلول فنية لبعض المصاعب التى تقابله. أما والدته، التى هى اليوم فى أواخر الستين من عمرها، فقد أدت فريضة الحج منذ بضع سنوات. ولأن ابنها يعد واحدا من فنانى رسومات الحج فقد كان من الطبيعى أن يقوم بعمل اللازم للتعبير عن الاحتفاء بعودتها من الرحلة المقدسة، ولقد قام بذلك وهو فى غاية من السعادة.

منذ فترة ذهب السنوسى إلى السعودية للتدريس فى واحدة من مدارسها، وعلى الرغم من أنه سافر إلى مكة المكرمة لأسباب مهنية فإنه لم يتمكن من أداء فريضة الحج. فى قرارة نفسه يود السنوسى أن يسافر ولو مرة واحدة إلى فرنسا أو إيطاليا حيث يحلم بزيارة أشهر متاحف أوربا الفنية.

تتميز الرسومات فوق حوائط بيوت مدينة إسنا بحداثة أسلوب تنفيذها وتوليفة ألوانها وهندسة تصميماتها. هذه الرسومات التى نفذها الفنان أحمد محمود السنوسى يمكن اكتشاف تفردها، لأنها مختلفة تماما عن رسومات الحج التى ينفذها أقرانه من الفنانين. هذا الرجل يسعده أن يقول عنه البعض إنه وقع تحت تأثير توليفة الألوان التى تنسب إلى الفنان العالمى بيكاسو وغيره من الفنانين العالميين التجريبيين.

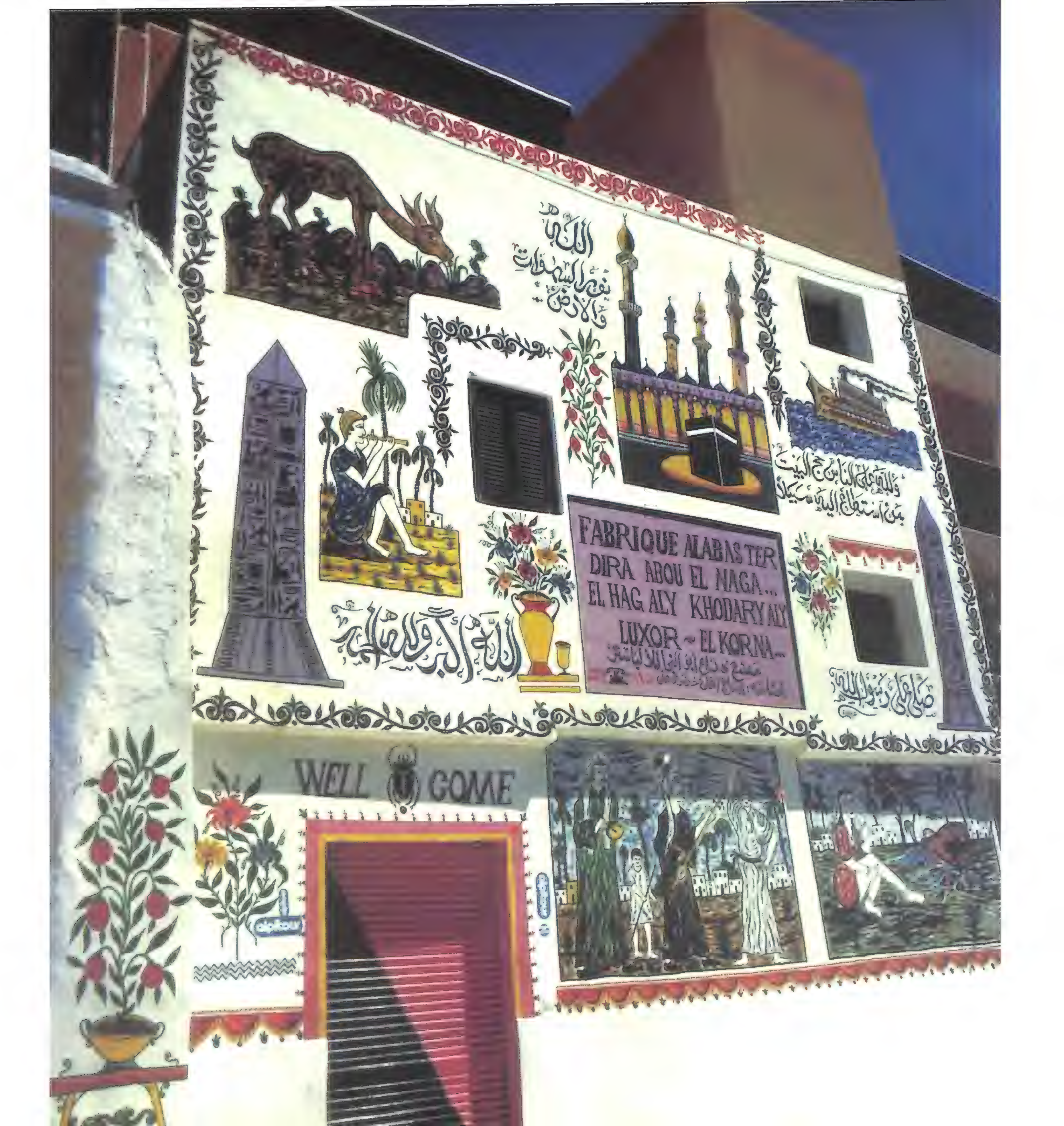
من المؤكد أن الرسم المنشور على الصفحة، يذكرنا إلى حد ما بآخر أعمال الفنان العالمى هنرى ماتيسى : فإلى جانب بعض تجارب محمود السنوسى التقنية، كثيرا ما يحتفى بما يقدمه من أفكار غير اعتيادية. نراه هنا (فى الصورة التى إلى اليمين) قد اختار شعيرة التطهر موضوع رئيسيا لواحدة من لوحاته. إنه يفضل المساحات الطويلة التى تمكنه من تطوير أفكاره الفنية وتساعده على ملء فراغات الجدران العمودية بين الأبواب والنوافذ بوحدات فنية رائعة ترمز لشعائر الحج. فمثلا كتب فوق رأس الحاج الذى رسمه ملاصقا للكعبة "لبيك لا شريك لك لبيك" وكتب أمامه : لبيك اللهم لبيك" أما فوق النافذة التى إلى يمين باب البيت فكتب ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾(٦٥).

نرى فى الصورة التى إلى اليسار فنان رسومات الحج محمد أحمد المالك وقد وقف هذه الوقفة المهيبة أمام هذا الكروكى الذى نفذه ولونه تعبيراً عن الكعبة المشرفة. المدهش أن أسلوبه فى تزيين اللوحات تعرض لكثير من التغييرات الملموسه منذ التقطنا له هذه الصورة عام ١٩٨٨، الأمر الذى ساعده على تطوير أدواته الفنية وصقلها مما جعله يتحمل مسئولية تنفيذ العديد من اللوحات الرائعة التى نراها تُزين واجهات عدد من المتاجر والبيوت المنتشرة فى منطقة وادى الملوك.

أبدع الفنان فى هذه اللوحة الكبيرة التعبير عن الحشود الهائلة التى تطوف حول الكعبة باستخدام نسق اللمسات السريعة المتتالية لفرشاة الألوان، لكى يحدث التأثير لدى المشاهد بوجود هذه الأعداد التى لا حصر لها من البشر حول هذا الرمز المقدس. المهم أن الاجتهاد والجهد الصادق عند التنفيذ هما اللذان قادا المالك لأن يكون واحداً من كبار عمالقة فن رسم الجداريات لبيوت الحجاج.



(٦٥) من الآية ١٩٦ من سورة البقرة.



الله نور السموات والأرض
ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا
FABRIQUE ALABAS TER
DIRA ABOU EL NAGA...
EL HAG ALY KHODARY ALY
LUXOR - EL KORNA...
الله أكبر ولله الحمد
WELL COME

فى أواخر عام ١٩٨٠ وقع السنوسى عقدا للعمل بالتدريس لمدة أربع سنوات فى قطر، وفى أثناء غيابه حاول غيره من الفنانين أن يسدوا احتياجات مدينة إسنا وما حولها من رسومات الحج، لكن الفجوة التى تركها الرجل وراءه ظلت كبيرة لو نظرنا إلى المسألة من زاويتين : التواصل والانسجام، وأسلوب التنفيذ.

العديد من صغار رسامى زينات الحج درسوا على يد أحمد محمود السنوسى، ويمكن القول إنه يُعد بالنسبة لهم " المعلم الخاص "، من بين هؤلاء ابن مدينة إسنا محمد العربى وابنا بلدة القرنة محمد أحمد المالك وأحمد الطيب النجار. ولعله من اللافت للنظر أن كل واحد من هؤلاء الصغار المتميزين طور لنفسه أسلوبًا إبداعيًا خاصًا به، ومع أنهم جميعًا يعتنقون إحساس " معلمهم " الحاد فى التصميم فإن المحصلة النهائية لأعمالهم لا تمثل إنتاجه أبدًا. وتلك بين الفنانين تعد إحدى صفات القائد أو المعلم النابغة.

المهم أن السنوسى بعد عودته من قطر، واصل رسالته معلمًا له رواد، لذلك نعتقد أنه من خلال دوره هذا سيكون ذا تأثير ملحوظ فى مستقبل رسومات الحج أكثر من غيره من الرسامين.

أستاذان من بلدة القرنة :
محمد أحمد المالك و أحمد الطيب محمد النجار

التجمعات السكانية القروية التى تعيش عبر نهر النيل ناحية الأقصر وتعرف باسم القرنة تضم بين جنباتها أكبر تجمع لأهم لوحات رسومات الحج على مستوى محافظات مصر من الناحية الفنية، ويقف وراء هذه الظاهرة الشعبية أمران : أولهما أن المنطقة ازدهرت فى العقود الأخيرة منطقة سياحية من الدرجة الأولى مما مكن تجارها وأقاربهم – نتيجة مباشرة لهذا التحول – من أداء فريضة الحج. وثانيهما أن اثنين من الرسامين الموهوبين غير التقليديين يعيشون بين ظهرانيها.

منذ سنوات عمل هذان الفنانان لفترة من الوقت فى جو من التنافس الفنى من أجل توسيع دائرة الأعمال المتقنة التى يسهمون بها فى رسم لوحات زبائنهم من الحجاج العائدين بعد أداء الفريضة، وسنة بعد سنة واصلا تنقيحهما لفن هذه الجداريات من ناحية الأسلوب والمحتوى بهدف أن يبلغوا أفضل أسلوب " لتزيين بيوت الحجاج " يكون فى مقدورهم أن يطوروه.

يلاحظ على غالبية بيوت قرية القرنة، خصوصاً تلك التى يمتلكها تجار، أنها واسعة بشكل غير معتاد، وأنها مزدانة ببعض التفاصيل الهندسية البسيطة التى تسر العين. هذه المجموعة من البيوت تنتصب بفخامة وجلال فوق قمم عدد من التلال والآكام التى تتميز بالجدب، مثل هذه البيوت توفر لقاطنيها معظم احتياجاتهم الحياتية؛ فهى ذات أسقف عالية تمنح حجرات النوم والاستقبال والطعام وغرف المعيشة الهواء الرطب الطلق. أدوار هذه البيوت السفلية وساحاتها الخلفية سرعان ما تتحول استجابة لظروف نفعية تقتضيها صناعة السياحة دائمة التطور، إلى أكواخ صغيرة لتصنيع المنتجات اللازمة لهذه الصناعة وعرضها للبيع. لذلك عندما يتفق على تزيين واحد من تلك البيوت التى تستغل للسكنى وللإنتاج اليدوى الموسمى، بمناسبة عودة مالكها من رحلة الحج، يعتبر ذلك فرصة مواتية لرسم لوحة متقنة وجميلة تعكس - إلى جانب رموز الحج - ترويجاً للعمل الذى يزاوله الحاج.

الفنان الموهوب محمد أحمد المالك الذى أبدع هذه اللوحة فائقة الجمال، إلى يمين هذا الكلام، لم يعبر فقط عن رموز شعيرة الحج التى أداها صاحب مصنع الرخام الحاج على خضرى على، ولكنه وفق فى بيان الحرف التى يمتهنها الرجل، والتى يقال إن مكسبه منها هو الذى جعل سفره إلى مكة ممكناً!!

وعلى الرغم من أن السائحين المارين من أمام هذه اللوحة قد لا يفهمون معنى الكلمات التى كتبها الفنان بخط أنيق. وقد لا يدركون مغزى الآيات القرآنية[٦٦] التى اختارها للتعبير عن رحلة الحج إلى مكة، فإن العين نفسها تنجذب بشدة إلى بهاء التصميمات وإلى الحروف اللاتينية أكثر مما يشدها الوقوف إلى جانب غيرها من حوانيت بيع الهدايا التذكارية.



أما هذه اللوحة، التى إلى اليسار، فتعلن عن ميلاد فنان له أسلوبه الخاص، إنه أحمد الطيب محمد النجار الذى بدأ مشواره الفنى تلميذاً موهوباً تحت إشراف الفنان السنوسى. فى عام ١٩٨٨ طلب منا أن نصوره أمام هذا الجزء من جدارية رسومات الحج التى كان قد نفذها قبل وقت قصير[٦٧]، لأنه شديد الاعتزاز بحيوانات إفريقيا المفترسة التى رسمها فى بيئتها الطبيعية الموحشة. يعتز الرسام الطيب بريشته، لأنه يحس داخليا أنها ترفع قيمة لوحاته، وتضفى عليها نوعاً من الحياة ومن التنوع الذى لا يرى ولكنه يتكرر ضمن رموز الحج.

---

(٦٦) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران، و٣٥ من سورة النور.

(٦٧) نص الآية الصحيح : ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ (الكهف / ٢٤).



نلاحظ أن الأناقة غير الكثيفة التى تتميز بها رسومات اللوحة المنشورة على صفحة ١٨٨ - ١٨٩، تتعارض بشكل غير مباشر مع الجداريات التى نفذها الفنان الراحل عبد الرازق التى نشرناها على صفحات ٢٠ - ٢١ و ١٠٥ و ١١٠ - ١١١، والتى جعلتها ريشته متوهجة بالخيالات التى تغطى كل ركن فيها. أسلوب عبد الرازق وحيويته فى إخراج اللوحة يمزج بين استنساخ البهجة المزاجية التى يتميز بها مبدعون بسطاء من أمثال روسو[٦٨] وشاجال[٦٩] ولهذا نجد جدارياته تتميز بكم هائل من النباتات التى يرسمها بإتقان لا يمكن إنكاره، مما يجعلها تقف على طرف نقيض من لوحات رسومات الحج البسيطة التى نفذها غيره من الفنانين.

فى هذه اللوحة التى تدل على ألمعية فطرية، نلاحظ أن الفنان جعل هدفه الأساسى للتعبير عن شعيرة الحج أن يحيط الكعبة الشريفة والمسجد الحرام وأعمدة طابقيه المقنطرين بخيالات دنيوية مثل النباتات ذات اللون الأخضر والورود المبهجة وحبات المانجو الممتلئة، التى تنبت فروعها خارج آنية هائلة الحجم، والأسد المتسلل بحذر، وأشباه الخيول، بالإضافة إلى الحارس قوى البنيان الذى يحرس مدخل البيت الرئيسى. هذه الخيالات تغطى كل مساحة وفرتها واجهة البيت الكبير.

أمام اللوحة المبهرة تقف هذه السيدة الشابة محدقة بتحفظ، وهى فى مكمنها الظليل، فى الكاميرا، بينما الحاج نفسه يقف أمامها معتزا بجدارية بيته الاستثنائية، على الرغم من أنه يجهل قيمتها الفنية على مستوى الفن الشعبى العالمى.

---

(٦٨) هنرى روسو Henri Rousseau (١٨٤٤ - ١٩١٠) رسام فرنسى علم نفسه بنفسه، ويصنف بين كبار الفنانين العالميين ذوى الحس المرهف، ورغم الفاقة نال جوائز فى الموسيقى والرسم وهو طالب فى المرحلة المتوسطة. اتجه إلى دراسة القانون، وبعد وفاة أبيه عام ١٨٦٣ انتقل إلى باريس، وهناك شغل عدة وظائف متواضعة استقال منها فى نهاية المطاف عام ١٨٩٣ لكى يتفرغ للفن، وكان يقول إن معلمه الأول والوحيد هو الطبيعة . (المترجم)

(٦٩) مارك شاجال Marc Chagall (١٨٨٧ - ١٩٥٤) رسام فرنسى يهودى من أصل روسى . ولد فى واحدة من المقاطعات التابعة للإمبراطورية الروسية، ثم انتقل إلى بطرسبرج عام ١٩٠٧ ليدرس الفنون ولما نبغ فيها هاجر إلى فرنسا . (المترجم)



ويمكن القول إن كلا من محمد أحمد المالك الذى يكبر رفيق دربه أحمد الطيب محمد النجار بنحو عشر سنوات، قد عمل بجد واجتهاد لكى يتفوقا معًا، وكانت النتيجة أن أسهما معًا فى تغيير شكل عدد لا يحصى من واجهات البيوت على امتداد الطريق الذى يقود إلى وادى الملوك، بأن حولا مظهرها الخشن إلى لوحة شاملة من الخيالات السحرية، الكثير من أعمالهما مصورة فوق صفحات هذا الكتاب وغالبيتها لنا عليه تعليقات وافية.

تتلمذ المالك على يد الأستاذ السنوسى لفترة من الوقت، لكن عند المقارنة بين إنتاج الاثنين سنلاحظ أن التماثل بينهما محدود للغاية، والمالك رغم أنه يقوم بتدريس مبادئ الفن فى المدرسة التى يعمل بها، فإنه يحتسب نفسه من الفنانين الذين علموا أنفسهم بأنفسهم !! ويمكن القول إن رسوماته فى السنوات الأخيرة أصبحت أكثر روعة وتناسقًا مع مجمل تصميماته (صفحة رقم ١٧٤).

منذ وقت مبكر طور المالك أسلوبًا متفردًا جمع بين رسم رموز ونماذج الحج وبين رسم الأشكال الفرعونية ومشاهد الحياة اليومية فى الريف المصرى، مما ساعده على إبداع واحدة من اللوحات الأصلية الشاملة فى ميدان رسومات الحج على مستوى محافظات مصر كلها، لهذا السبب زاد توهج أعماله خلال العقد الأخير (صفحة ٣٢). هذا الأسلوب فى الإبداع تواصل عبر عدد من الأعمال الجسورة، مثلاً اللوحة المنشورة على الصفحة ١٥٠ – ١٥١ تؤكد قدرة محمد على إقامة علاقة فنية متبادلة بين رموز الحج التقليدية من ناحية وبين أشكال فنية عرفتها مصر قبل مولده بنحو ألفى عام تقريبًا، هنا نراه يجمع بين نسق رسم المسلات والكعبة الشريفة فوق حائط واحد، أما صورة اللوحة المنشورة صفحة ٨ فنرى فيها حيوانات وديان شرق إفريقيا تتهادى عبر سهول السافانا بينما الأيائل الرشيقة تقضم من النباتات الغضة وبعضها يرفع رأسه لكى يتغذى على أوراق الأشجار التى تعلوه.

بهذا الأسلوب تتحول واجهات بيوت الحجاج إلى واحة ملونة أو إلى سراب وهمى فى جوف صحراء قاحلة، وعندما تتلاحم حوائط بيوت القرية مع الرمال المقفرة يتبدد خداع النظر إلا من رسومات مالك الجميلة التى تمنح الناظر إليها لحظة للاستفاقة من قيظ الحرارة وجفاف الطبيعة وقحط الصحراء (صفحة ٣٦ – ٣٧).

سيرة حياة أحمد الطيب تمدنا بعوامل مشوقة للغاية عند المقارنة بينه وبين غيره من الفنانين الذين جاء ذكرهم فى هذا الجزء من الكتاب. أحمد الطيب محمد النجار الذى كثيرًا ما أشرنا إليه باسم الطيب، نشأ فى بلدة القرنة التى تقع على الضفة الأخرى من نهر النيل فى مقابل مدينة الأقصر التى تعد واحدة من أعظم مراكز الآثار فى العالم، درس الفن فى مدرسة إسنا الثانوية على يد الفنان المعلم السنوسى، كما فعل من قبل الرسام محمد المالك. خلال فترة الدراسة برهن الطيب على أنه تلميذ مجتهد وذو ضمير حى، نبع اعتداده بنفسه من والدته ومن حنان أسرته شديدة الترابط، أما أبوه الذى أحيل إلى التقاعد بعد سنوات من العمل فى أحد البنوك فقد عبر فى وقت مبكر عن حماسته لما يتمتع به ابنه الوحيد من موهبة إبداعية. هذه العناصر المشجعة هى التى ساعدت الطيب على أن يواصل حياته العملية فنانًا مبدعًا، وهو الآن فى بداية الثلاثينيات من العمر، يتصف بالتدين ومتزوج ويحمل مسئولية تربية ابنين ويشارك والديه السكن فى منزلهما الفسيح.

الطيب لا يعمل بمهنة التدريس كغالبية فنانى رسومات الحج، ويتحصل على كل دخله من العمل فى ميدان الفن فقط، لذلك يبدو مستعدا دائمًا لتلبية الحاجات الفنية لقريته وجيرانها، سواء كانت رسمًا يحتاج لدرجة عالية من الإتقان تتحلى به بعض الوثائق الرسمية للمحافظة، أو رسمًا تُزين به حافلة لنقل المسافرين أو حتى سيارة أجرة صغيرة. لذلك لم نندهش حين عرفنا أن رسوماته الجميلة التى تزين حوائط المطاعم وواجهات المحلات التجارية تجذب الاهتمام، وترحب بزائريها. إلى جانب ذلك يتمتع الطيب بدقة شديدة فى كتابة الخطوط؛ مما أهله لأن يفوز بوظيفة فى إحدى المؤسسات التى تنتج الرسومات الفنية الخاصة بالسجلات الأثرية.

فى القرنة، وفى الطريق إلى وادى الملوك، حيث يتدفق الزوار من أقاصى الأرض، نجد الفنان أحمد الطيب محمد النجار يرسم على الواجهات الوسيعة للمنازل العادية مناظر شمولية مذهلة عن ذكريات رحلة الحج إلى مكة، فى أداء حاز التفوق فى كل التفاصيل والألوان.

شوهد هذا المبنى البعيد يضم على ارتفاعه إلى خط السقف مأدبة فنية حافلة، فقد رسم الفنان حديثا جدارية تذكارية توفرت فيها مجالات واسعة النطاق، استخدم فيها كل الظواهر الأساسية المتصلة بالحج، فضلاً عن العناصر الإضافية للتزيين، ففيها الجمل المجهز للسفر، والطائرة النفاثة الحديثة دلالة على طول الرحلة، وملك الغابة بلبدته الكثيفة دلالة على عناية السلطة والحماية، وقد وقف حاج فى جانب اللوحة وحيدا، يتضرع وهو بلباس الحج التقليدى، ومن عناصر تزيين المنظر النساء الجميلات يحملن جرار الماء، وفى المقابل زى فارسا يمتطى صهوة جوادة ويلوح بعصاه وقد أنطلق فوق أرض معشبة وفى مكان الصدارة على يمين الباب جمع فى صورة واحدة بين الكعبة المشرفة وقبة المسجد النبوى، وقد أحاطت بها أربع مآذن (من مآذن الحرم المكى أو المدنى) وقد رصد بالخط الأخضر عبارات كشفت إحداها أن الحج حدث عام ١٩٨٨ أو ١٤٠٨ حسب التقويم الإسلامى (الهجرى). وهذا العمل الفنى قام به أحمد الطيب فى أواخر الثمانينيات.



الطيب يتحدث عن لوحاته بإسهاب غير ممل ويشرحها بثقة، وهو مثال للنبوغ الذى يمكن أن يتمخض عن التزاوج بين الموهبة والدراسة من ناحية والالتزام والتصميم من ناحية ثانية؛ مما جعل هذا الفنان الشاب من أشهر فنانى رسومات الحج التقليدية المصرية. لذلك عُرف عنه طموحه ومثابرته لأجل تأصيل مهاراته، لهذا السبب نراه يجتهد لإبداع تصميمات جديدة مختلفة ومتنوعة بهدف دعم خبراته الفنية.

يحرص الطيب الفنان المتمكن منذ فترة طويلة على عمل ملفات من الصور التى يجمعها من المجلات والصحف، كثيرًا ما يعود إليها باعتبارها مرجعيات مساعدة يأمل من ورائها أن يحقق مزيدًا من الدقة فيما يقوم به من أعمال فنية. مثال ذلك أنه عندما لفت نظره إعلان عن طراز جديد من الطائرات التى عزمت شركة مصر للطيران أن تضيفه إلى أسطول ركابها، عمد إلى دراسة الصورة بالتفصيل ثم ضمها إلى ملفاته، وعندما أراد أن يستنسخها ظهرت بشكل غاية فى الروعة (صفحة ٧٤).

المدقق فى لوحات الطيب سيلاحظ أن حساسية رسوماته تزداد عمقًا مع كل موسم حج جديد، فى بداية مشواره الفنى ابتدع لنفسه أسلوبًا لرسم الجداريات اتسم بالجرأة، حيث كان يرسم الأشكال غير المظللة ويلونها بألوان زاهية تجعلها مرئية بسهولة من مسافات بعيدة، وعندما يرسم الحيوانات يتغير هذا الأسلوب وكذا الألوان،

في الجهة المقابلة لمدينة أسوان التى يؤمها زائرون لا حصر لهم من جميع أنحاء العالم، تتراص مجموعة لا نهائية من القرى الهادئة المتجهة ناحية الشمال لعدة أميال على امتداد نهر النيل، ويضمها معا طريق أخدودى متعرج. هذه القرى النوبية تحمل كل منها اسماً مختلفاً، ولكنها فى مجموعها تعرف بـ " غرب أسوان ".

الأجيال المتتالية من سكان هذه القرى كانوا دائمى البحث عن عمل يعتمد كلية على السياحة عبر النهر، لذلك قام من كان يملك منهم قوارب صغيرة بتأجيرها مقابل أجور مجزية باعتبار أنهم ملاحون ومرشدون سياحيون فى نفس الوقت، اللافت أن الجزء الأكبر من المكاسب التى تدرها هذه الأعمال كان يوضع فى شكل ادخارى حتى يبلغ النصاب النقدى الذى يمكن أحد أفراد الأسرة من السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج. وبينما الاستعدادات للسفر تسير على قدم وساق يتم الاتفاق مع الفنان المحلى محمد عمر لكى يقوم بتزيين البيت لأن ذلك جزء حيوى من برنامج الاحتفال بعودة الحاج سالماً إلى داره وعائلته.









من أحب الأعمال إلى قلب هذا الفنان النوبى وأكثرها خيالاً وحيوية، والتى نراها فوق حوائط عشرات البيوت القروية فى هذه المنطقة، رسم البراق الذى تقول السيرة النبوية المطهرة إنه حمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى رحلة الإسراء والمعراج إلى السماوات العلا. مقاييس الفنان عمر الخيالية جعلته يرسم هذا المخلوق الأسطورى بهذه الكيفية عدة مرات. لكن لا يوجد رسمان متطابقان للبراق المجنح!! (أربع منها منشورة هنا على هاتين الصفحتين).

فى هذا الخصوص يمكن القول إن الفنان، عندما نفذ اللوحة المنشورة صورتها فوق هذا الكلام استعان بالمنمنمات الفارسية لكى يدعم خياله بهذا النوع الفريد من الأجنحة وبذيل الطاوس، وعندما غطى رأس البراق جمع بين النجمة الخماسية والهلال!! هذا المخلوق الخرافى نراه عبر نوافذ القطار يعدو عبر حوائط البيوت الوضاءة التى أثر فيها احتكاك الأجسام بها أثناء المرور بجانبها، وكذا الترميمات التى تتم بالبناية ومياه الأمطار رغم ندرتها.

الكثير من هذه اللوحات التى لكل منها بصمتها الخاصة، وقعت عليها أسماء كثيرة، وهذا سبب لنا إرباكًا شديداً حتى شرح لنا مدرس من أبناء المنطقة أن الفنان الأصلى بعد أن يرسم الخطوط الرئيسية للوحة على الحائط يكلف أحد الصبيان الذين يعملون فى ورشته بتلوينها وفق إرشاداته، ومن ثم يصبح من حقه أن يضع اسمه عليها. وهذا ما يفعله محمد عمر. ومن المحزن أن هذا الفنان اللامع لم ينفذ أى عمل جديد خلال السنوات القليلة الماضية. الأمر الذى جعلنا نندهش بسبب توقف عطائه الذى جعله يزين الكثير من بيوت هذه القرى. فى الصورة السفلى من الصفحة المقابلة صورنا الفنان محمد عمر واقفاً إلى جوار واحدة من آخر ما نفذ من رسومات.

حيث يتحول إلى الأسلوب الواقعى المخفف وإلى الدفقات النموذجية التى تصنعها فرشاته. هذان الأسلوبان فى التعبير يمكن التعرف عليهما داخل لوحة واحدة، على الرغم من أنهما ممتزجان معا فى تناسق، ونقصد بذلك اللوحة المنشورة صورتها على صفحة ١٧٥.

يبدى الطيب اهتماماً عظيماً بالبنايات التى يتعاقد على تزيينها. فبعد أن يكشط الحائط الخارجى ويعيد توضيبه يطليه بالجبس، ويعبر عن أفكاره المبدئية برسم خطوط بسيطة تعكس رؤيته التى سوف تتحول إلى لوحة فوق السطح الذى يستعد لتزيينه (اللوحة السفلى إلى يسار صفحة ١٣٦). اللافت أنه يستخدم ألوان طلاء عادية مما تطلى به البيوت بشكل اعتيادى لأنه يفضل استخدام الألوان البدائية. من يراه وهو يعمل يدرك أنه يعمل بسرعة مستخدماً فرشاة عريضة لتغطية الكتل الصلبة من الحائط. وعندما ينتهى من إعداد كل مساحة ملونة على حدة يضيف إلى اللوحة الإضافات التى تمثل اللمسات الأخيرة. ومن خصائصه أيضا أنه يتعامل مع الحائط متتبعًا مسار الشمس ومستفيداً من الظلال كلما أمكنه ذلك، وعند الظهيرة ينتقل بثقة إلى داخل الدار لكى يواصل تحويل حوائط الحجرات عالية الأسقف الخالية من أية زينة إلى بيئات مشرقة ومضيئة تتسم بالنضارة.

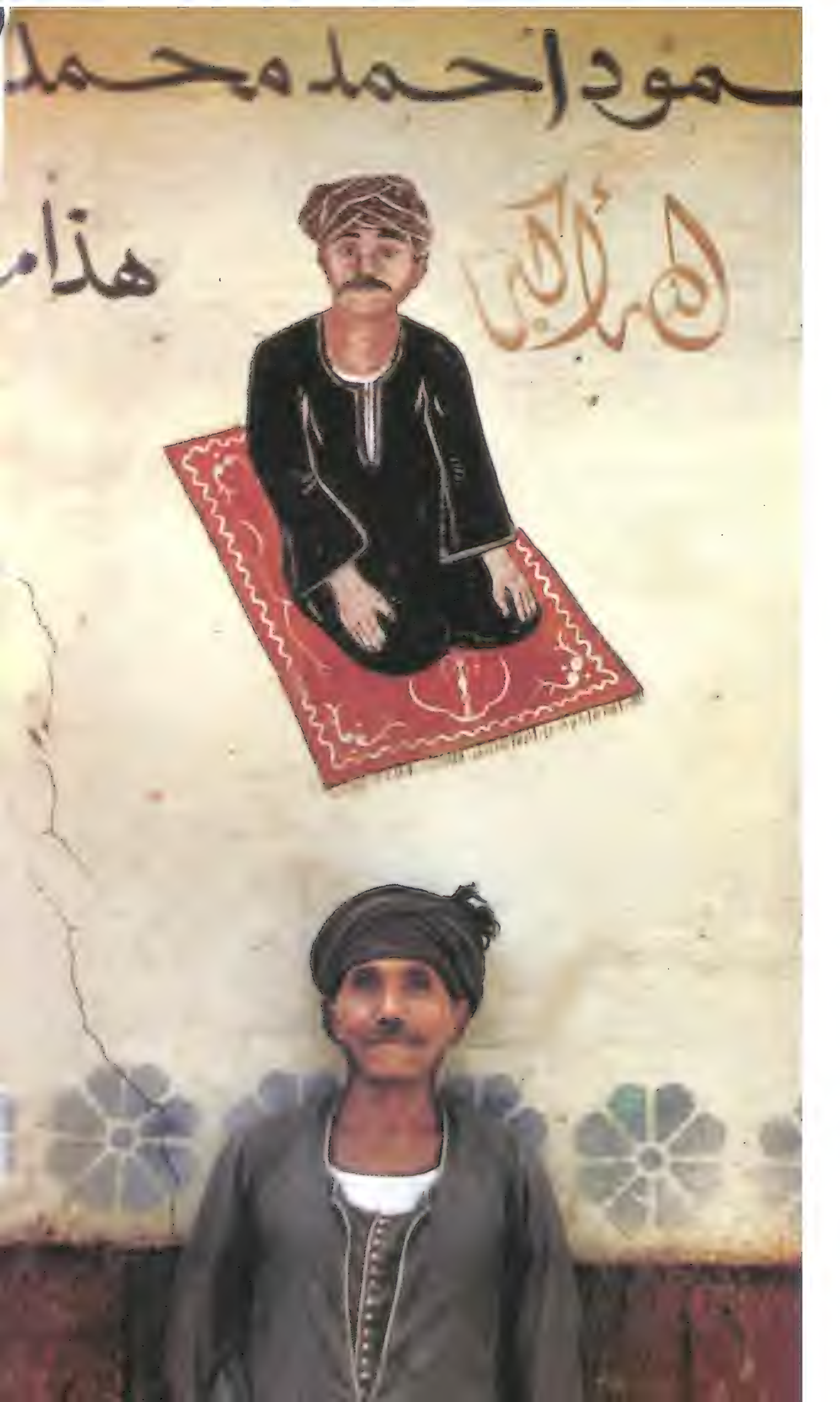
يؤمن الطيب بأن الحوائط الداخلية لبيت الحاج من الأفضل أن تزين هى الأخرى، ولا يكتفى برسم واجهة البيت الخارجية، لكنه يفضل أن تكون رسوماتها مختلفة عن الرموز والصور التذكارية لرحلة الحج المقدسة ومرتبطة بعناصر جمالية مثل الأشجار والطيور والورود (صفحة ١٥٤ - ١٥٥). لذلك نراه يحرص على رسم باقات زهوره حرة دون أن يضعها فى آنية لأنه يشعر أن حبسها داخل مثل هذه الأطر يفقدها جمالها الطبيعى (صفحة ١٠٥).

اليوم وبعد ازدياد الطلب على رسومات الطيب، نراه مشغولاً بصفة مستمرة مع أصحاب الأعمال من المحليين لتزيين واجهات محلاتهم التى تتاجر فى العاديات، والتى يزورها السائحون القادمون بوسائل النقل الجماعية لمشاهدة آثار وادى الملوك الشهير (صفحة ٤٦ - ٤٧) لأنه يؤدى مثل هذه المهام بشكل متفوق، حيث يجمع فى رسوماته بين المشاهد القديمة ورموز الحج فى العصر الحديث. جداريات الطيب المفعمة بالحيوية دائما تغطى واجهة البناية كلها والحوائط الجانبية فى بعض الأحيان، لذلك لا نندهش عندما نلاحظ أنه يزداد كل عام خبرة وتزداد رسوماته مع الأيام إشراقًا، ومؤخرًا اتسع موضوع لوحاته ليشمل صفوفًا متوالية من الرسومات الصغيرة المختصرة التى تعبر عن الحياة المعاصرة لحياة الريف المصرى.

يأتى الزبائن للطيب بسبب افتتانهم بالمشاهد التقليدية التى يزين بها جداريات الحج التى يرسمها، وبالموسيقيين والراقصين المرحين الذين يصورهم، وبالنسوة والشابات اللاتى يصورهن مبتسمات بينما يحملن جرار الماء بتوازن رشيق فوق رءوسهن، وكذلك بالزهور والشجيرات المورقة التى يتفجر منها الجمال، وأيضًا لبراعته فى تصوير مجموعات الحيوانات المفترسة الناعمة ذات النظرات المرعبة. وعلى الرغم من أنه يكرر هذه الصور المتعارف عليها، فإنه يحرص على عمل بعض التغيرات فى كل لوحة، لدرجة أن التنقيب الفنى سوف يجد صعوبة فى العثور على لوحتين له متطابقتين بنسبة مائة فى المائة !!. وبهذه الكيفية يستطيع الفنان الطيب أن يوازن بين قناعته أن من حق زبائنه تحديد نوعية الرسومات التى يرغبون أن تزين بها واجهات بيوتهم، وبين متطلبات حرفته الفنية التى تفرض عليه أن يعيد تنفيذ ما سبق له أن رسمه، ولو بطريقة مختلفة.

تختلف تكلفة اللوحات المتألقة التى يبدعها الفنان الطيب، وحتى وقت إعداد هذا الكتاب للنشر[٧٠] كان يحصل على نحو ١٠٠ جنيه مصرى مقابل تزيين بيت تقليدى لواحد من الحجاج، أما عندما يتعاقد لتزيين دكاكين الهدايا الكبرى أو ورش تصنيع الرخام فالمبلغ يكون أكبر، لأن ما يكلفه به أصحابها من رسومات يحتاج إلى تصميم أدق وإلى إضافات تستهلك منه وقتًا أكثر فى الإعداد والتنفيذ. وعلى الرغم من ذلك لا يتردد، مثله فى ذلك مثل أغلب أقرانه

(٧٠) نشر الأصل الإنجليزى سنة ١٩٩٥.



نادراً ما يقوم الفنان من تلقاء نفسه برسم شخصية واقعية إضافة إلى الرموز الشاملة التى تعكس رحلة الحج، ما لم يطلب منه أصحاب البيت ذلك، وهذا ما يمكن ملاحظته بين الحين والآخر فوق حوائط بيوت القرية المصرية. مالك هذا البيت - الذى نرى صورة حائطه المزينة يسار هذا النص - الذى أدى فريضة الحج منذ سنوات، يشاهد هنا جالساً فوق سجادة الصلاة الناعمة زاهية الألوان يؤدى فرض صلاته. وفق الفنان سيد حنفى فى تنفيذ هذه اللوحة المدهشة التى يبدو فيها التشابه واضحاً بين الأصل والصورة فى الملامح والملبس أيضاً، كما نلاحظ أن فرشاته نجحت فى التعبير عن حالة الخشوع التى حملتها قسمات وجهه، كما وفقت فى نسخ عمامته وجلبابه اللذين يتزيا بهما القرويون المصريون كل يوم، ويمكن القول إننا لما صورناهما معاً - الأصل والصورة - أضفنا مغزى جديداً ينفى أى شك أن رسم شخصيات بعينها لم يكن معروفاً أو مطروقاً على مستوى فنون رسومات الحج .

من فنانى رسومات الحج، فى التنازل عن أجر مجزٍ إذا قصده صديق أو جار، وفى هذه الحالة غالبًا ما تنتهى المساومات حول السعر إلى رقم يرضى جميع الأطراف ويكون منسجمًا - كما هى العادة - مع قدرات الزبون المالية . المنافسة الفنية بين الطيب وصديقه المالك، المزاحم له فى الميدان، تتنامى على أرضية أن التعاقد مع أى منهما يعد دليلاً على أن العمل المطلوب يحتاج لفنان ذى موهبة فى تصميم رسومات الحج فى بلدة القرنة. وعلى الرغم من صعوبة التفرقة بين إنتاج كل منهما، فإن الاختلافات الصغيرة فى أسلوب التنفيذ واختيار موضوع اللوحة تجعل الأمر فى الاستطاعة بعد دراسة متأنية لعشرات النماذج التى نفذها الرجلان. ولأنهما يعيشان فى بيئة يتردد عليها السائحون بشكل كبير، فليس هناك مكان آخر فى مصر تشاهد فيه جداريات رسومات الحج بعين الأغراب كما تشاهد هذه النماذج الاستثنائية التى أبدعها هذان الفنانان الموهوبان صاحبا العزيمة الصلبة.

عندما تمكن والد الطيب مؤخرًا من أن يحقق حلم حياته بالسفر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، كان من الطبيعى أن يقوم الابن بتزيين حوائط البيت، الذى يقيم فيه مع والديه، من الخارج ومن الداخل. لذلك قرر منذ البداية أن تعبر اللوحات عن اهتمام إضافى خاص بعودة والده الحاج، ولقد وفق فى ذلك إلى حد كبير. أما الأب العائد من الحج فلم يبد تحيزًا أكثر من اللازم ناحية العمل الذى أبدعه ابنه، لقد كان العمل نفسه هدية يستحق المرء أن يفاخر بها. وعلى الرغم من أن رسومات واجهة البيت الخارجية بدأت فى التحلل، فإن رسومات حوائطه الداخلية لاتزال محتفظة برونقها وبنضارة الحياة المنبعثة منها كما كانت يوم رسمت لأول مرة، مما يجعل منها برهانًا صامتًا على القدرة الإبداعية التى أنتجتها. أما بالنسبة للأصدقاء وأبناء أسرة الطيب، فهذه الرسومات تعد تذكارًا يوميا لرحلة الرجل إلى مكة المكرمة، كما تمثل هذه الرموز عملاً فنيًا يعكس عمق الحب الذى يكنه الابن لأبيه .

على عيد ياسين

واحد من أكثر فنانى مصر الواعدين فى مجال رسومات الحج، يعيش ويعمل فى مدينة سلوى بحرى، التى تقع على الضفة الشرقية من نهر النيل فى منتصف المسافة بين الأقصر وأسوان. المدينة تبدو أكبر من حقيقتها، لأنها تمددت إلى الخارج ناحية عدة قرى وتجمعات تربط بين جانبى الطريق الرئيسى. مجموعة البلدات هذه تمثل شبكة من البيوت المغطاة بالكلس الأبيض، تشكل فيما بينها تناغمًا عادة ما يتلألأ تحت ضوء الشمس المتقدة، أقبية هذه البيوت الرحبة مستورة خلف بوابات خشبية كبيرة، يلاحظ عليها بصفة عامة لمحة من فن المعمار الذى تتميز به القرى النوبية التى تتناثر إلى الجنوب من هذه المنطقة .

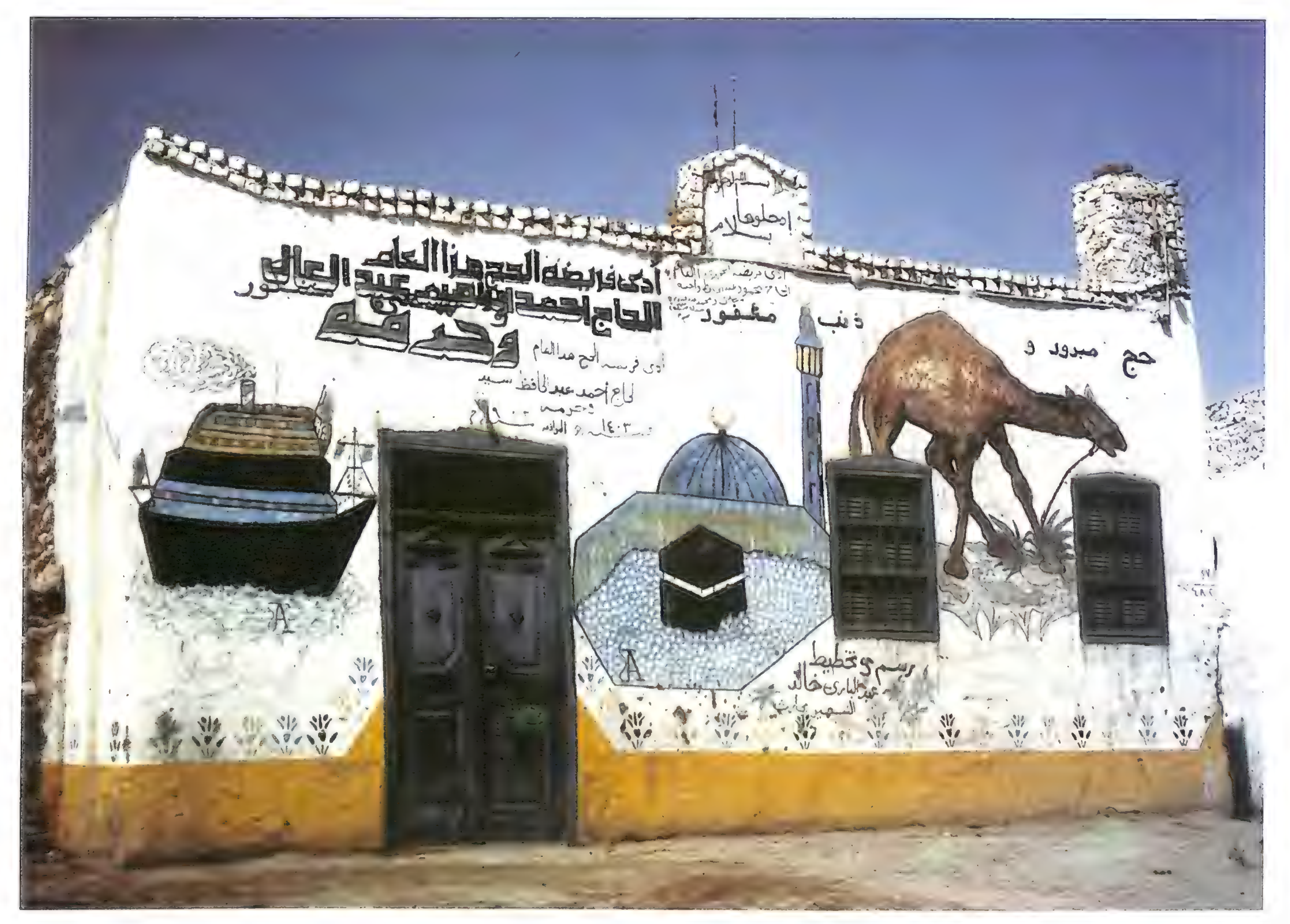
يمكن التعرف على أعمال على عيد من مادة موضوعها التى تعكس رؤية واقعية من حياة قرى صعيد مصر ومن احتفالاتهم التقليدية، وأيضا من رسوماتها المتقنة وما يبديه من مثابرة واهتمام بالتفاصيل. بعض من أجمل لوحات هذا الفنان يمكن مشاهدتها دون الحاجة إلى الابتعاد عن الطريق السريع المزدحم، أما البيوت التى لا يحصى عددها، والتى زينتها لوحاته خلال العقدين الأخيرين، فتنتشر فى صفوف متتابعة بين التلال المنخفضة إلى الشرق من الطريق السريع . بالقرب من ذروة واحد من هذه المرتفعات الرملية أقيم مسجد صغير أبيض اللون، كثيرًا ما يتردد عليه على عيد المسلم المتعبد. ولِمَ لا وقد قام بتزيينه من الداخل بكل ما لديه من أحاسيس فياضة، مستعينًا بالتصميمات الهندسية التقليدية التى تبرز النسق الإسلامى الأصيل؟ وعلى الرغم من أنه يعتبر أن مثل هذا العمل هو الأكثر أهمية ضمن ما حققه من إبداعات أخرى، إضافة إلى أنه شديد الافتخار بزخارف حوائط البيوت الداخلية، فإن خيالاته المحلقة التى يجعلها فى خدمة جداريات الحج وأسلوبه الجميل فى التعبير. هى الأكثر إبرازًا لموهبته.

فى أواخر الثمانينيات وصف الفنان المدرس الشاب عبد البارى خالد - من أبناء بلدة شارونة بصعيد مصر - جدارية رسومات الحج التى تقع أسفل هذا النص بأنها أفضل ما أنتج حتى وقت لقائنا به، لدرجة أنه رسم حرف A اللاتينى مرتين توثيقاً لاسمه بجوار توقيعه عليها بالأحرف العربية، والذى جاء إلى يسار رسم الكعبة على يمين مدخل البيت تأكيداً على أنه رسمها وخططها !! بل أضاف اسم الشهرة "حارث" زيادة فى التوثيق!!

هذا البيت الذى تخلب واجهته الألباب يقع فى مكان هادئ بعيداً عن الطريق الرئيسى، وعلى الرغم من ذلك يثير الانتباه، لأن صورة الجمل قوى البنيان الذى يرعى الحشائش المرسومة بين ضلفتى الشباكين تجذب انتباه قائدى السيارات الذين يبهرهم المنظر. وبينما جاء نموذج الكعبة وحولها صفوف الطائفين مقنعاً بشكل بسيط، نرى العكس من ذلك عندما نمعن النظر فى صورة الجمل حيث نراها مرسومة بإحساس متدفق يدل على معرفة بطبيعة الحيوان وقدرة على معرفة تفاصيل جسمه.

خالد لم ير الكعبة أبداً، ومعلوماته عن السفن محدودة وقاصرة على المراكب السياحية التى تجوب النيل، وليس على دراية بالسفن الضخمة التى تبحر فى المحيطات. أما الجمل، سفينة الصحراء، فيبدو أنه على معرفة به؛ لذلك التقطت عينا الفنان أدق تفاصيل الوقفة غير الرشيقة التى يكون عليها هذا الحيوان عندما يرعى العشب وهو مقيد إلى الأرض.

يلاحظ أن العديد من لوحات رسومات الحج لم يوقع عليها مبدعوها. فليس هناك حاجة لذلك لأن كل فرد فى القرية بشكل تقريبى يعرف من رسمها. ومن الطبيعى أن تكون هناك استثناءات لهذه القاعدة، حيث عرفنا بعض الفنانين الذين يحرصون على التوقيع على كل عمل فنى ينجزونه، باعتباره نوعاً من التوثيق، وهناك من يشعر شعوراً جارفاً أن عملاً ما على وجه الخصوص يجب أن يعرف باسمه.





يعد على عيد ياسين، الذى نراه فى الصورة إلى اليمين واقفا أمام واجهة منزل أحد جيرانه التى زينها عام ١٩٨٧، من بين الفنانين المصريين المتميزين. هذا العمل الفنى دفعه لأن يطلى حائط البيت بمزيج من الألوان التى يفضلها، وعلى رأسها الأزرق الفاتح لأجل توفير الرمزية المطلوبة لرسومات الحج. أما الجزء الأسفل فلونه باللون الأصفر لكى يضفى نوعا من الجلال على اللوحة التى تحيطها الصحراء، خاصة عند غروب الشمس. أما المشاهد المرسومة فلونها مستخدما اللون الأصفر الذهبى والأزرق الغامق محاولا بهذه الكيفية أن يخفف من وطأة الألوان الأخرى المحيطة باللوحة من كل ناحية. إلى اليسار من الباب الذى يؤدى إلى الداخل رسم الفنان شخصين يحتضن أحدهما الآخر، وجعل الإطار الذى يجمعهما كلمة " حج " وإلى جانبها أكمل الدعوة الشهيرة " مبرور وذنب مغفور ". يعد فن رسم الأشخاص داخل أو ضمن خطوط الكلمات العربية أحد السمات المميزة لهذا الفنان (صفحة ١٠١). أما إلى يمين الرسم فنلاحظ لمسة انفرادية له، حيث صور ثعبانا ضخما ملتفا حول شجرة مادا لسانه المشقوق ناحية عصفور صغير يحلق بجناحيه، ويعد رسم مثل هذه المخلوقات المرعبة بجوار مداخل بيوت الحجاج من قبيل الحماية المرجوة لهم بمناسبة عودتهم سالمين إلى دورهم بعد أداء الفريضة.

مشاهد احتفالات ومراسم الأعياد التى يحرص أبناء الصعيد فى مصر على المشاركة فيها، تعد من المواضيع المفضلة لدى الفنان على عيد لأنها تمثل عنده رموزًا مبهجة تعبر عن عودة الحجاج الجدد. البيوت التى يزينها عيد فى مثل هذه المناسبات تمتلئ بشخوص الموسيقيين وراقصى العصى والحصان البرى المتحرر، بالإضافة إلى المبتهجين الذين يطلقون الأعيرة النارية من مسدساتهم (صفحة رقم ٢٨ -٢٩ -١٤٢ -١٤٣).

مصداقية هذه اللوحات تجعل المرء يكاد يسمع صخب الموسيقى وجلبة حوافر الخيل بينما هو يستمتع بالنظر إلى هذه الجداريات الحيوية، بل يمكن تذوق طعم " الشربات " أو المشروبات الأخرى مثل التمر هندى التى تقدمها بشكل متخيل السيدة الشابة التى يظهر امتلاء جسمها تحت ثيابها التقليدية (صفحة ١٤٠).

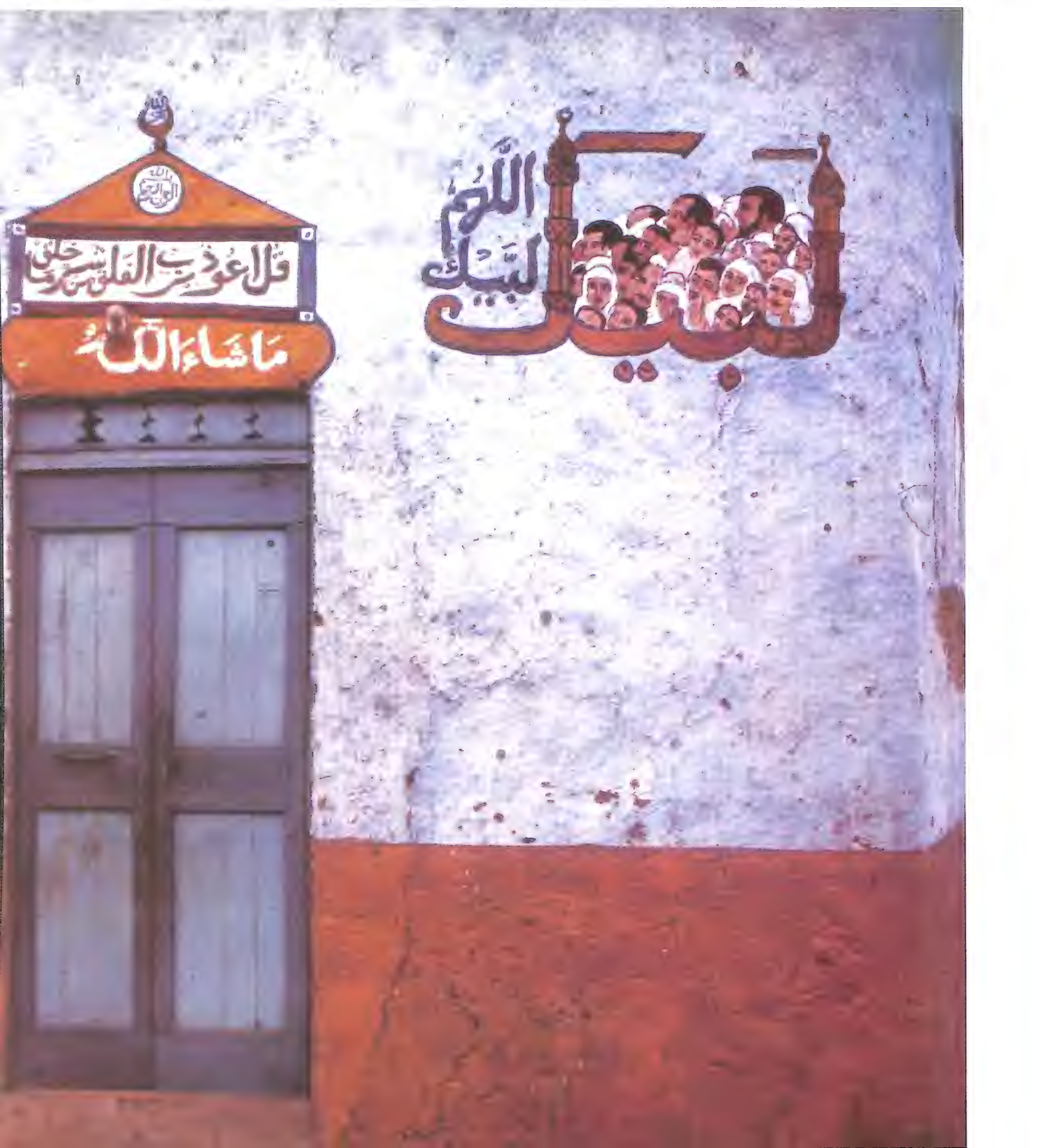
فى مشهد آخر فوق جدارية أحد البيوت (صفحة ٢٨ - ٢٩)، نرى حاجا كبيرًا فى السن فخورًا بهيئته هذه التى يظهر بها فوق هذا الحائط الطينى ممسكًا بيده لجام فرسه الذى يمتطى صهوته بمهارة، وباليد الأخرى يمسك عاليًا بمظلة بيضاء تحميه من حرارة الشمس الحارقة. هذا الرسم تحديدا يتواءم مع بعض أوجه الحياة التى تعرفها القرية المصرية. ليس معنى ذلك أن الفنان على عيد قد تخلى به عن رسومات الحج التى يحرص على تنفيذها مستخدمًا مشاهد رمزية مثل الطواف حول الكعبة ووقوف المسلمين على جبل عرفات، لأن الفاحص المدقق عليه أن يهتم بالحرفية التى يمزج الفنان عن طريقها بين الرسم والكتابة العربية، مبينًا حالة الوجد التى يكون عليها حجاج بيت الله الحرام، ومطوعًا بعض حروف اللغة العربية إلى ما يشبه المآذن الصغيرة، مضيفًا بذلك نوعًا من الازدهار الأنيق لشخوصه المرسومة وحروفه المكتوبة.

من الواضح أن أبناء مدينة سلوى بحرى مستبعدون من نماذج رسومات عيد. ربما، وهذا هو الاحتمال الأكثر دقة، لأنه مكتف بما تعكسه لوحاته من صور مرئية له ولجيرانه. وها هو بلمسة حانية فيها أستاذية يرسم العديد من الوجوه التى تغطى رءوسها بطبقات كثيفة من قماش العمائم الأبيض الذى ما زال مستخدمًا فى صعيد مصر.

لوحة أخرى (الصفحة المقابلة) رسمها على عيد فوق حائط بدائى بطريقة مختلفة، حيث كتب كلمة " الحج " الضخمة مطوعا امتداد ذيل حرف الجيم، بحيث يتحول إلى شكل سيف إسلامى محدب يرفعه صاحبه بإصرار دفاعا عن الدين، قاصداً بذلك إحياء سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم). أما صورة الحاج التقليدى الوسيم الذى يرتدى العباءة المطرزة وتحتها الأردية الأنيقة ويحمل نسخة كبيرة من القرآن الكريم تحت ذراعه. فيبدو فى قمة الحماس الذى تولد لديه بعد رحلته إلى مكة المكرمة، وهذا ما تعكسه الجملة ذات الأهمية العظمى التى تقول " الحج فريضة " والتى أحاط بها الفنان شخص الحاج الذى رسمه على هذه الكيفية.

أما شخوصه الذين يرسمهم غير مرتدين ملابس الإحرام أثناء قيامهم بأداء شعيرة الحج، فتراهم فى لوحاته مرتدين الجلابيب الاعتيادية واسعة الأكمام، والتى يلونها إما باللونين الرمادى والأزرق أو الأخضر الإردوازى أو الأبيض. أو يصورهم مرتدين الزى السعودى التقليدى (صفحة ١٢٠).
نادرًا ما يوظف على عيد الألوان الساطعة عندما يرسم لوحاته إلا فى حالة استخدام اللون الأزرق المبهج خلفية يستدل منها - كما فى عموم مصر كلها - على أن قاطن البيت على وجه الخصوص قد وُفق فى القيام بأداء فريضة الحج. الباحث عن رسم للطائرات والسفن والقطارات - التى تعد من الرموز العمومية التى يلجأ إليها فنانو رسومات الحج للتعبير عن ذكريات الرحلة المقدسة - لا يعثر على أى منها فى لوحاته التى أنجزها، ويستبدل برؤيته الفنية لوسائل النقل بالعودة إلى الزمن الذى كان فيه الجمل هو وسيلة النقل الرئيسية التى تحمل آلاف الحجاج عبر رحلتهم الطويلة الشاقة فوق دروب الصحراء إلى مكة المكرمة (صفحة ٩٨) .
أما صورة المُسلمَيْن اللذين يرسمهما على عيد متعانقين، فتعد من أروع أعماله التى كررها أكثر من مرة، وهو لا يكتفى برسم أحد الرجلين أسمر اللون والآخر ذا بشرة فاتحة يحتضنان أحدهما الآخر بشكل أخوى، بل يعمد دائمًا إلى وضعهما داخل إطار شبه دائرى يصنعه بحرفية عالية من كلمة " حج " مستكملا بقية الجملة الشهيرة " مبرور وذنب مغفور " بصورة دعاء منفصل (صفحة ١٠١). بالنسبة له تُعد هذه الإيماءة الإنسانية نوعًا من التأكيد على حيوية وعالمية العلاقة الأخوية التى تجمع المسلمين على مستوى العالم كله، الأمر الذى تبرزه فريضة الحج أو الركن الخامس من أركان الإسلام، وعندما سألناه عن مصدر الإلهام الروحى لهذه الفكرة، رد بإجابة تحمل البساطة والوضوح معًا حيث قال : إن جذورها الخيالية تقبع داخل أحلامه!!
نود أن نقول إن مثل هذه الإجابة كثيرًا ما رددها على أسماعنا العديد من بسطاء الفن الشعبى على مستوى العالم كله .
على عيد اليوم فى بداية الأربعينيات من عمره، حلو المعشر ذو صوت خفيض، يتروى كثيرا فى الحديث عندما يجيب عن ما يطرح من أسئلة تدور حول حياته الشخصية وأعماله الفنية. نشأ فى مدينة سلوى بحرى، ولم يتركها إلا لكى يؤدى الخدمة العسكرية بين عامى ١٩٦٥ و ١٩٧٥. يقال إنه كان يستثار منذ طفولته عندما يراقب باهتمام رجلاً يقلب بفرشاته الطلاء استعدادًا لرسم صورة، كانت لديه رغبة ملحة لكى يصبح فنانًا، ربما لذلك السبب أثر فيه واحد من أعمامه كان يرسم اللوحات الجدارية ويوقع عليها باسمه .
وعلى الرغم من ذلك لم يبدأ على عيد حياته العملية باحتراف تزيين واجهات بيوت الحجاج إلى أن انتهى من خدمته فى الجيش المصرى وبعدها التحق للعمل بهيئة الاتصالات السلكية واللاسلكية. ولكنه لم يبق بها طويلاً بسبب تمسكه بحقه فى الحصول على إجازة سنوية لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع لكى ينفذ رسومات بيوت الحجاج التى تعاقد على تنفيذها، لأنه يشعر عندما يرسمها بنوع من الالتزام الدينى، بالإضافة لما تشكله من مصدر لدخل إضافى معقول. وعندما يحتاج إلى بعض الدعم المالى يلجأ إلى طلاء المنازل ورسم العلامات التجارية وتزيين حوائط الحوانيت الداخلية، وكلها نشاطات تدعم مركزه باعتباره فنانًا ورسامًا محليا .
كل عام وبعد أن يشد المحظوظون رحالهم إلى مكة المكرمة تاركين مجتمعاتهم القروية خلف ظهورهم، يستعيد على عيد دوره الفنان، ويبدأ فى إعداد واجهات البيوت وحوائطها الداخلية لاستقبال رسوماته. ولكى يفى بمتطلبات مرحلة التجهيز هذه فى أسرع وقت ممكن، غالبًا ما يستأجر واحدًا من الصبيان لمساعدته .
على عيد الفنان، دائما يستخدم اللونين الأبيض والأزرق الساطع لطلاء خلفيات اللوحات، وفى بعض الأحيان يضيف شريطًا من الزركشة ذات اللون الأصفر الفاقع المائل إلى الحمرة عند قاعدة اللوحة، وعندما تصبح كل الحوائط معدة ونظيفة وواعدة باستقبال إبداع جديد يقوم بمفرده برسم الخطوط الخارجية التى تحدد إطار لوحاته الساحرة، وعلى الرغم من أنه عند هذه المرحلة يكون قد أفصح عن كثير من أفكاره بشكل عام فإن الوقت لا يزال مبكرًا لكى يبهر العين بخيالاته .





قل اعوذ برب الفلق من شر ما خلق
ما شاء الله
لبيك اللهم لبيك

بعض فنانى رسومات الحج يحرصون على ملء كل مساحة فوق الحائط الذى يبدعون على سطحه نماذج رموز الحج، وبعضهم الآخر يعتمد أكثر على أسلوب البساطة المتهجية لكى يعبر عن هذه الشعيرة. الكثير مـن لـوحات الحج التى رسمها على عيد ياسين فوق واجهات البيوت فى مدينة سلوى بحرى طليت باللون الأزرق الخفيف المقبول. أما الجزء الأسفل من الجدار فطلى بلون قريب من لون أرضية الشارع، وأما الحائط الخشن فقد عولجت مكوناته بحرفية ضاعفت من حيوية الجو الريفى الذى عكسه اللونان اللذان طلى بهما، وأما ضلفتا الباب الخشبيتان فقد اختار لهما درجتين متوائمتين من اللون الأزرق، جاعلا الدرجة الأغمق للإطار والأخف للداخل. وذلك بغية جذب العين إلى الرسوم المصورة على الجانبين ولإبراز الجمل الخطية التى اعتنى بها، وأما الإنارة المثبتة فوق باب البيت فهى ليست فكرة عملية ولكنها وسيلة أيضا لإضاءة الطريق أمام العابرين ليلا .

اهتم الفنان على عيد بصورة الكعبة الكلية التى رسمها إلى يسار مدخل البيت وأحاطها بأعداد هائلة من الحجاج الذين تجمعوا حولها، فى المقابل - ولكى يوازن هذه الصورة - رسم إلى يمين الباب مجموعة من الحجاج الورعين بملابس الإحرام تطفح وجوههم بالبشر، وجعلهم يتضرعون إلى الله فى صلاتهم. واتباعا لبعض التقاليد العربية بالغة القدم، أحاط على عيد بحرفية شديدة هذه الوجوه النضرة، بنص تعبدى يقول " لبيك اللهم لبيك " وجعل من حرفى اللام والكاف فى الكلمة الأولى ما يماثل مئذنتى المسجد الحرام فى مكة. اللافت للنظر أن الفنان استطاع عن طريق عدد محدود من الألوان ومجموعة بسيطة من الخيالات أن يبدع عملا له حساسيته الخاصة على مستوى الفن الشعبى الدينى.



عليه إذن أن يكرس العديد من الساعات للعمل بحماس، لأجل الانتهاء من رسم وتزيين واجهات وحوائط البيوت، التى تعاقد على تسليمها إلى عائلات الحجاج قبل أن تبدأ الاحتفالات التى رتبوا لها لكى تكون فى استقبالهم . مثلا، تعاقد على عيد عام ١٩٨٨ على رسم واجهات أكثر من اثنى عشر منزلاً، ولأن موسم الحج جاء ذلك العام فى منتصف فصل الصيف فى مصر حيث بلغت درجة الحرارة أعلى معدلاتها وشارفت مستوى ١٢٣ فهرنهيت[٧١]. اضطر على عيد أن يُجدول برنامج عمله بحيث يتمكن من الانتهاء من رسم واجهة بيت كل يومين، وذلك حتى يستطيع الوفاء بتعاقداته، ويقال إنه وُفق فى هذا الأمر عن طريق اقتسام المثابرة والتصميم على بذل الجهد مع الآخرين .

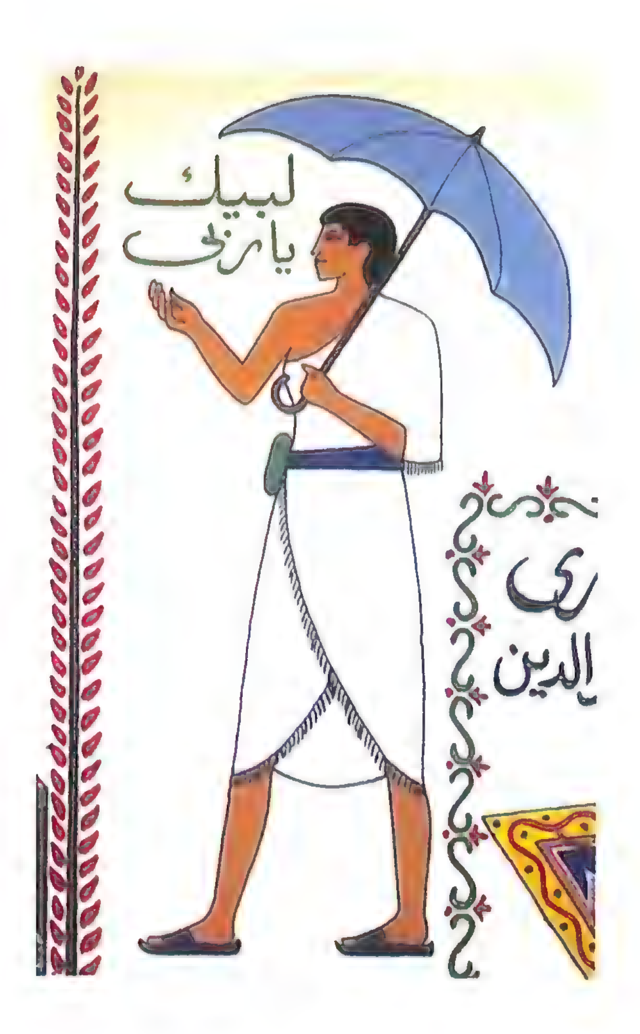
تختلف المكافأة المالية التى يحصل عليها هذا الفنان مقابل رسم واجهة بيت أحد الحجاج فى ضوء عدد الحوائط التى سيقوم بتزيينها من ناحية وتبعًا لقدرات العائلة من ناحية ثانية، وهى تبلغ فى المتوسط قيمة ما يحصل عليه العامل الأجير لمدة أسبوع .

مر على عيد خلال عقد التسعينيات بحادثين مهمين أكدا سمعته فنانًا أصيلاً : الأول عندما جذبت أعماله أنظار البعض من خارج الإقليم، مما دفع أحدهم للتعاقد معه على تزيين مجموعة من بيوت الحجاج على مبعدة من القرى التى تعود على التعامل معها . قالت لنا سيدة عجوز أثناء جلوسها فى حجرتها الخاصة بمنزلها الذى يقع بالقرب من مدينة كوم أمبو وهى تشير بافتخار إلى الرسوم التى تعكس رحلتها إلى مكة المكرمة، إن ابنها ذا الذوق الرفيع هو الذى تعاقد مع على عيد لتزيين دارها . وأثنت كثيرًا على الفنان ليس فقط لأن إنتاجه رائع ولكن لأنه متميز (الصورة المنشورة صفحة ١٣٠). الطريف أن على عيد عندما يستمع إلى هذا التعليق يبدو عليه الاغتباط والرضا ويفتر ثغره عن ابتسامة خجولة تنم عن سعادة من أصبح معروفًا خارج قريته التى نشأ فيها . أما الحادث الثانى ففيه أيضا إطراء عليه، رغم أنه يسبب له بعض الضيق، حيث لوحظ أن بعض الفنانين من المنافسين له بدأوا بتقليد تصميماته ورسوماته (صفحة ١٢٩). وهذا الأمر وإن كان مرفوضا أخلاقيا، فإنه يوثق بشكل عام " لميلاد فنان عملاق ". الأمر الذى يعنينا أن على عيد ياسين يُعد - بلا شك - فنانًا قديرًا فى ميدان الرسم الشعبى، ويحسب ضمن أبرع فنانى رسومات الحج فى مصر .

---

(٧١) درجة الحرارة هذه بمقياس Fahrenheit المستخدم فى أوروبا تعادل نحو ٥٠ درجة تقريبا على مقياس Celsius المستخدم فى مصر ودول منطقة الشرق الأوسط . (المترجم)

كشاف بأسماء الفنانين وبلادهم والصفحات التى نشرت عليها رسوماتهم



فيما يلى قائمة بأسماء الفنانين الذين جاء ذكرهم ضمن صفحات هذا الكتاب وأسماء المدن والبلدات التى يمكن العثور على لوحاتهم فوق جدران بيوتها، وكذا أرقام الصفحات التى تتضمن نماذج من إنتاجهم:

- أحمد الطيب محمد النجار، القرنة : ٢٧ و٤٦ -٤٧ و٧٤ و١٢٠ -١٢١ و١٣٦ و١٣٧ و١٥٣ و١٥٤ و١٥٥ و١٧٥ و١٧٩ و١٩١.
- أحمد بشير ومحمد بشير (شقيقان)، رأس غارب : ٧ و٣٢ و٧٦ و٨٦.
- أحمد حسن فرحوت، الشرفا والتجمعات المحيطة بها : ٢٧ و ٨ و٨٤ و٩٤ و٩٥ و١٠٢ -١٠٣ و١٠٨ و١١٥ و١١٦ و١٤٨ و١٦٤ و١٦٦ و١٦٧ و١٦٨ و١٧٠.
- أحمد محمود السنوسى، إسنا والمنطقة المحيطة بها : ٧٣ و٧٨ و٧٩ و١٦٦ و١٧٢.
- رجب سيد أحمد متولى، التجمعات شمال إسنا : ١٦٠.
- سيد حنفى، سوهاج : ١٤٤ و١٨٣.
- صلاح حسن مبارك، السويس : ٧٦ و١١٩ و١٤٥ و١٦٢.
- عبدالبارى خالد، الشارونة : ٩٢ و٩٣ و١٨٥.
- عبدالرازق، التجمعات شمال إسنا : ٢٠ - ٢١ و٥١ و٦٧ و١٠٥ و١١٠ -١١١ و١٣٤ -١٣٥ و١٥٦ و١٧٦ و١٧٧.
- عرفة، بورسعيد: ٦٨ - ٦٩ و١١٢-١١٣
- على سيد، التجمعات جنوب إسنا : ٧٣ و ١٢٢-١٢٣ و ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٢.
- على عيد ياسين، سلوى بحرى : ٩ و١٨ و٢٨-٢٩ و٦٦ و٨٩ و٩٨ و٩٩ و ١٠٠ و١٠١ و١٠٦ - ١٠٧ و١٣١ و١٤٠ و١٤١ و١٤٢ - ١٤٣ و١٧١ و١٨٦ و١٨٧ و١٨٨ -١٨٩ و١٩٤.
- محمد أحمد المالك، القرنة : ٨ و٣٠ و٣٢ و٣٦ -٣٧ و٧١ و٨٣ و١٤٧ و١٥٠ و١٥١ و١٥٢ و١٥٣ و١٧٣ و١٧٤.
- محمد عمر، غرب أسوان: ١٠٩ و١٨٠ و١٨١.
- محمود العربى، إسنا والدير : ١٥ و ٧٧ و٩٢ و١٣٨ و١٣٩ و١٧٠.

كشاف بأماكن اللوحات والصور وفق صفحات نشرها بالكتاب:

٧ رأس غارب

٨ بلدة القرنة

٩ بلدة سلوى بحرى

١١ بلدة القرنة

١٢ منطقة غرب أسوان

١٥ مدينة إسنا

١٦ – ١٧ مدينة القاهرة

١٨ بلدة سلوى بحرى

٢٠ – ٢١ بلدة القرنة

٢٣ بلدة القرنة

٢٤ – ٢٥ مدينة إسنا

٢٧ اللوحة العليا / بلدة الشرفا

٢٧ اللوحة السفلى / بلدة القرنة

٢٨ –٢٩ بلدة سلوى بحرى

٣٠ بلدة القرنة

٣٢ بلدة القرنة

٣٦ – ٣٧ بلدة القرنة

٤٠ مدينة كوم أمبو

٤١ مدينة الجيزة

٤٦ – ٤٧ بلدة القرنة

٥١ بلدة القرنة

٥٢ – ٥٣ مدينة دندرة

٥٧ مدينة دندرة

٦٠ –٦١ مدينة المنيا

٦٥ مدينة الجيزة

٦٦ بلدة سلوى بحرى

٦٧ بلدة القرنة

٦٨ – ٦٩ مدينة بور سعيد

٧٠ مدينة السويس

٧١ بلدة القرنة

٧٢ اللوحة اليسرى / مدينة الفيوم

٧٢ اللوحة العليا يمينا / بلدة سلوى بحرى

٧٢ اللوحة السفلى / بلدة القرنة

٧٣ اللوحة العليا يسارا/ شمال مدينة إد

٧٣ اللوحة السفلى يساراً / مدينة أسيوط

٧٣ اللوحة العليا يمينا / مدينة إسنا

٧٣ اللوحة السفلى يمينا / بلدة دندرة

٧٤ بلدة القرنة

٧٥ بلدة أبو تيج

٧٦ اللوحة العليا يسارا / مدينة بور سعيد

٧٦ اللوحة السفلى يسارا / مدينة قليوب

٧٦ اللوحة اليمنى / بلدة رأس غارب

٧٧ اللوحة العليا يسارا / بلدة القرنة

٧٧ اللوحة العليا يمينا / مدينة إسنا

٧٧ اللوحة السفلى / مدينة القنيطرة

٧٨ – ٧٩ مدينة إسنا

٨٠ مدينة الجيزة

٨١ مدينة بنى سويف

٨٣ بلدة القرنة

٨٤ – ٨٥ مدينة الجيزة

٨٦ اللوحة اليسرى / بلدة رأس غارب

٨٦ اللوحة العليا يمينا / مدينة العريش



٨٦ اللوحة السفلى يمينا / مدينة إسنا

٨٧ اللوحة العليا يسارا / بلدة إدفو

٨٧ اللوحة اليمنى / مدينة أسوان

٨٧ اللوحة السفلى / مدينة قوص

٨٨ كلتا اللوحتين / بلدة الشرفا

٨٩ بلدة سلوى بحرى

٩٠ جنوب مدينة المنيا

٩١ بلدة القرنة

٩٢ اللوحة العليا / بلدة الدير

٩٢ اللوحة السفلى / بلدة الشارونة

٩٣ بلدة الشارونة

٩٤ – ٩٥ بلدة الشرفا

٩٧ بلدة طرة

٩٨ بلدة سلوى بحرى

١٠١ بلدة سلوى بحرى

١٠٢ – ١٠٣ بلدة الشرفا

١٠٥ الحى الشمالى لمدينة إسنا

١٠٦ بلدة سلوى بحرى

١٠٧ بلدة سلوى بحرى

١٠٨ بلدة الشرفا

١٠٩ منطقة غرب أسوان

١١٠ –١١١ شمال مدينة إسنا

١١٢ مدينة دمياط

١١٢ – ١١٣ مدينة بور سعيد

١١٤ مدينة الأقصر

١١٥ بلدة الشرفا

١١٦ بلدة الهوارة

١١٧ مدينة سوهاج

١١٩ مدينة السويس

١٢٠ بلدة سلوى بحرى

١٢٠ – ١٢١ بلدة القرنة

١٢٢ – ١٢٣ مدينة إسنا

١٢٤ بلدة دندرة

١٢٥ مدينة أسوان

١٢٦ كلتا اللوحتين بلدة المخادمة

١٢٧ مدينة قوص

١٢٩ بلدة سلوى بحرى

١٣٠ بلدة دندرة

١٣١اللـوحة اليمنى / مدينة كوم أمبو

١٣١ اللوحة العليا / بلدة دندرة

١٣١ اللوحة السفلى / مدينة السويس

١٣٢ بلدة دندرة

١٣٣ مدينة السويس

١٣٤ – ١٣٥ بدلة القرنة

١٣٥ بلدة المخادمة

١٣٦ بلدة القرنة

١٣٧ بلدة القرنة



١٣٨ – ١٣٩ مدينة إسنا

١٤٠ بلدة سلوى بحرى

١٤١ بلدة سلوى بحرى

١٤٢-١٤٣ بلدة سلوى بحرى

١٤٤ مدينة سوهاج

١٤٥مدينة السويس

١٤٧ بلدة القرنة

١٤٨ إحدى قرى الدلتا

١٤٩بلدة الشرفا

١٥٠ – ١٥١ بلدة القرنة

١٥٢ بلدة القرنة

١٥٣ بلدة القرنة

١٥٤ – ١٥٥ بلدة القرنة

١٥٦ مدينة إسنا

١٥٧ بلدة القرنة

١٥٨ –١٥٩ شمال مدينة أسوان

١٦٠ شمال مدينة إسنا

١٦٢ اللوحة العليا / مدينة السويس

١٦٢ اللوحة السفلى / مدينة الأقصر

١٦٣ بلدة الميمون

١٦٤ بلدة الشرفا

١٦٦ بلدة الهوارة

١٦٧ بلدة الهوارة

١٦٨ بلدة الشرفا

١٦٩ مدينة إسنا

١٧٠ اللوحة العليا / بلدة الشرفا

١٧٠ اللوحة السفلى / مدينة إسنا

١٧١ كلتا اللوحتين بلدة الشرفا

١٧٢ مدينة إسنا

١٧٣ بلدة القرنة

١٧٤ بلدة القرنة

١٧٥ بلدة القرنة

١٧٦ – ١٧٧ شمال مدينة إسنا

١٧٩ بلدة القرنة

١٨٠ منطقة غرب أسوان

١٨١ منطقة غرب أسوان

١٨٣ مدنية سوهاج

١٨٥ بلدة الشارونة

١٨٦ بلدة سلوى بحرى

١٨٧ بلدة سلوى بحرى

١٨٨ –١٨٩ بلدة سلوى بحرى

١٩١ بلدة القرنة

١٩٢ بلدة أسفون المطاعنة

١٩٣ بلدة سلوى بحرى

١٩٤ مدينة كوم أمبو

المترجم فى سطور :

الدكتور حسن عبد ربه المصرى، تفرغ طوال العشرين عامًا الأخيرة للعمل فى الحقل الإعلامى الدولى، حيث ترأس القسم العربى براديو لندن الذى كان يخضع لإشراف وزارة الخارجية البريطانية، ثم تولى إدارة مكتب التبادل الإعلامى الأوروبى، ويعمل حاليًا مستشارًا إعلاميًا لدى عدد من المؤسسات الأوروبية والعربية بالعاصمة البريطانية.

يسهم إلى جانب ذلك بالكتابة فى عدد من الصحف المصرية والعربية والإلكترونية التى تصدر من بريطانيا وأمريكا .

الأعمال السابقة.

أولاً. الترجمات :

- كتاب " مؤسسات الفكر والرأى وسياسات الولايات المتحدة الخارجية "، تأليف دونالد إيه . ويلسون، نشر وتوزيع دار كُتاب العالم الثالث بنيويورك .
- كتاب " بواعث تغيير السياسات الخارجية فى عهد الرئيس ريجان "، تأليف جيمى جيه . ماكجان، نشر وتوزيع دار كُتاب العالم الثالث بنيويورك .
- كتاب " اللوبى، القوة السياسية اليهودية والسياسة الخارجية الأمريكية "، تأليف إدوارد تفان، نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة .
- أوراق " الديموقراطية الأمريكية، التاريخ والمرتكزات "، نشرتها وزارة الخارجية الأمريكية، نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة .
- رواية " وقائع انتحار موظف عمومى "، تأليف مايكل بريس، نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة .

ثانيًا. المؤلفات :

- كتاب " سلام إسرائيلى تحميه أمريكا "، نشر وتوزيع مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة.

المصورة والمحرر فى سطور:

آن باركر مصورة فوتوغرافية، حازت عدة جوائز، وعرضت أعمالها فى الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية وأوروبا . وقد شاركت الكاتب أفون نيل – المتخصص فى موضوعات الفنون الشعبية العالمية – فى إصدار كثير من الكتب ، منه: Molas (١٩٧٧) ، و Los Ambulantes (١٩٨٢) و Early American Gravestone Sclupture (١٩٨٢).

التصحيح اللغوى : أسامة عبدالهادى

الإشـــراف الفنـــى : حســـن كامـــل



مجموعة من الرسومات تعكس الإخلاص الدينى لدى الذين رسمت من أجلهم، كما توضح موهبة الفنانين الفطريين الذين رسموها، وهى تتحلى غالبًا بتصورات أكثر التصاقًا بالخيالات الشخصية. لقد حرص كل من المصورة والمحرر على فحص المعانى المختفية وراء رسم وحدات متكررة، وعلى مقارنة الأسلوب الإقليمى فى الرسم، وعلى التعريف بأساتذة فن رسومات الحج من المعاصرين.

من سوء الحظ أن "هذه الزهور المبعثرة فى صحراء مصر"، دون أن تتوافر لها الحماية ضد أشعة الشمس الحارقة والرياح الرملية والأمطار الموسمية، تعانى من تحلل ألوانها وضياع معالمها، ولا أحد يهتم بأنها غير قابلة للإصلاح أو الاستنساخ.

هذا الكتاب يعد الدارسة الوحيدة والموسعة التى تتضمن سجلاً باقيًا لهذا الفن سريع الزوال، والذى يعد من أهم الفنون الشعبية الدينية.